

محمد جبريل

رباعية بحرى

رواية

محمد جبريل

أبو العبـــــــاس

اقروا الفاتحـــة لابو العبـــــاس

ياسكندرية ياأجدع نـــــــاس

أغنية شعبية سكندرية

القيراط الخامس والعشـــرون

في اللحظة التالية لأذان الفجر من زاوية الزواوى ، الضوء الذى يصدر عن نافذة الجد السخاوى ، المقابلة ، يتكسر عبر شيش نافذته ، على جدران الغرفة الواسعة . لدقائق ، ثم تسود الظلمة . السعى إلى الزاوية من صفر باشا وشارع جودة والمسافرخانة وفرن حبيب والأزقة المتفرعة ، ربما حتى سراى رأس التين . الهمهمات ، الدعوات ، البسملات ، الحوقلات ، الأصوات المتحادثة ــ مهما تتلفع بالهمس ــ فإنها تصل إليه ــ خلل الصمت والظلمة ــ واضحة ، رائقة . يتلاشى كل أثر لضوء ، فيما عدا الأضواء الباهتة المنبعثة من ثقوب الزاوية : بابها الصغير ، ونوافذها التى يغطيها وجه إنسان . كتل الظلام تلف الناس والأشياء . حتى الظلال تختفى . تستسلم المساحات العريضة والزوايا والأركان والجزئيات والذرات ، بعد الأذان مباشرة ــ ظاهرة تحيره ــ لظلمة كثيفة ، ممتدة ، تلغى الملامح والتفاصيل . ربما يصحو على إيقاع جياد الملك ، فى شوارع الحى . ساعة ، وتعود إلى السراى . ينصت ــ فى موضعه على

السرير ــ إلى الابتهالات والاستغاثات والتسابيح ، تتناهى من مئذنة أبو العباس ..

فى هذه اللحظات ، يعد نفسه للخروج . يعلو بكتفيه وأعلى ظهره . يحرص ألاّ يسعل ، أو يعطس ، حتى لايصحو الأولاد فى الغرفة الملاصقة . تواجه عيناه تكسرات الضوء المتسللة من شيش النافذة . تتشابك أصابعه وراء ظهره . ينسحب الضوء ، وتحل الظلمة . أزعجه فى البداية ألاّ ترى عيناه ــ مهما يطيل التحديق ــ شيئاً على الإطلاق ، ثم اكتفى بالنظر فى اللاشئ أمامه وحوله . حتى الثياب المعلقة التى تبدو ــ بتداخل النور والظلمة ــ أجساداً ضائعة الملامح ، تذوب فى حضن السواد القاتم . ينتبه إلى صوت إغلاق الشيخ وهيب ، خادم الزاوية ، للباب والنوافذ ، فيهبط من جانب السرير دفعة واحدة إلى أرض الحجرة . الجانب نفسه الذى صعد منه ، ربما الحظ يواتيه ..

ارتدى فانلة رقيقة ، تنتهى إلى الكتفين ، مفتوحة على الصدر والظهر والذراعين ، وسروالاً من التيل الأزرق . ودس قدميه فى حذاء من التيل الأبيض ..

قبل أن يميل إلى باب الخروج ، اتجه إلى حجرة الأولاد . قال للمرأة المستلقية فى طرف السرير :

ــ اليوم أحسن ..

وهى تعدل رأسها على المخدة :

ــ الحمد لله !

ــ تريدين شيئاً ؟

ــ سلامتك ..

علا صوته بالتذكر :

ــ كما قلت لك فى الليل : لايلعب الأولاد خارج البيت .. قد يتدخل الجيش ضد المظاهرات ..

لطمته هبة هواء ، وهو يفتح باب البيت من الداخل . فضل ــ اتقاءً لبرد الصباح الخريفى ــ أن يختصر المسافة . اتجه إلى الحارة الموازية لطريق الكورنيش ، خلف مطاحن شيمى بك وسينما الأنفوشى ..

حرص ، فلم ينظر إلى الوراء ، حتى يطرد النحس عن نفسه . تعرج به السير فى حوار وأزقة . اقتحمت أنفه ــ فى اقترابه من الشاطئ ــ ملوحة البحر ، ورائحة الطحالب والأعشاب والأسماك الميتة على الرمال . على ناصية

الحجارى ، لمح قطاً أسود ، غاب فى شارع خير الله بك ، المتفرع من السيالة . تفاءل ، ومضى إلى الوسعاية المتربة ، المقابلة لدكان محمد صبرة الحلاق ..

أعاد النظر ..

أنسية ؟!..

عرفها من مشيتها المنكفئة الطفلة . مالت من الوسعاية إلى شارع ابن السعادات . التقى بها ــ من قبل ــ ثلاث مرات ، وربما أربعاً . فاصلت فى شروة من حلقة السمك . اشترت أقة بسارية فى المرتين اللتين رضيت فيهما بالثمن . هزت رأسها بالرفض ، فيما تلا ذلك ، ومضت . سمع فى قهوة الزردونى عن ترددها على بيوت العزاب ، وعلاقاتها ، فوق الأسطح ، وداخل الأكشاك الخشبية فى ليل الأنفوشى . رآها ــ ذات مساء ــ تدخل البيت المهجور فى شارع سليم البشرى . أدرك أن أحاديث القهوة صحيحة ، فاستعاذ بالله ، ونفض رأسه ..

وهو يدنو من معسكر خفر السواحل ، سار وراءه كلب مجهول . لخطوات ، ثم اختفى ، فازداد تفاؤله ..

دوناً عن الشاطئ كله ، عن الشواطئ كلها ، اختار ــ ذات صباح لايذكر تفاصيله ــ هذا الشريط الساحلى الضيق ، الممتد إلى مابعد قلعة قايتباى ، تعزله عن الشوارع والمارة والأعين ، أسوار المساكن . المياه التى يخنق لسان الميناء الشرقية ــ بارتفاعه ــ أمواجها ، قبل أن تصل إلى الشاطئ الذى تقل فيه الرمال ، وتزداد الحجارة والزلط والحصا والأوساخ ، يقذف بها من وراء أسوار المساكن . مع هذا ، اختار الطريق الحجرى ، الممتد ، الضيق ، تتوازى فى جانبيه مياه البحر وجدران البيوت ..

كانت المنطقة ــ إلى مابعد انتهاء الحرب بأشهر ــ محظورة على الصيادين . يشغلها جنود الإنجليز ، والمدافع المضادة للطائرات ، والأضواء الكاشفة ..

خلع جلبابه وحذاءه ، وشد الصديري ، ورفع السروال إلى مافوق الركبتين . خطا بقدميه فى الرمال المبتلة ، يعانى قطع الحجارة والأصداف المتكسرة والطحالب والأعشاب . خاض فى المياه ، فلا يبعد ــ إلا بخطوات ــ عن الشاطئ ، ورنا إلى الأفق الضبابى ..

لما صادف السمانات الاثنتى عشرة فى المكان نفسه ، باعها إلى أمين عزب . عد النقود ست مرات . أنكر ــ فى عصر اليوم ــ على الحاج قنديل شتائمه التى لاتنتهى ..

اختلج شارب الحاج قنديل :

ــ أصبح للجربوع صوت يرفعه ..

وهو يغالب التوتر :

ــ أنا لم أدس لك على طرف ..

اهتز الحاج فى كرسيه :

ــ وهل أنتظر ؟!

أعطى الحاج ظهره ، وانتظر أفواج السمان ثانى يوم ، فى الموعد نفسه .. لكن الشهر اليتيم بين الشهور خذله ، وانتهى . غابت أسراب السمان . فاجأته الأيام بالشبكة الخالية . رسم التأسف والمسكنة :

ــ غلطة ياحاج .. لن أكررها !..

قبل أن يرتب الكلمات ، ويفتح فمه ، رفع الحاج شفتيه من مبسم الشيشة ، وابتدره فى غضب :

ــ أنت من صبيانى ياولد ؟..

همس بلهجة متذللة :

ــ خدامك ياحاج ..

أسند مبسم الشيشة على كتفه :

ــ اسمك ؟

ــ على .. على الراكشى ..

عدل الحاج قنديل النظارة المقعرة فوق أنفه :

ــ وماذا تعمل هنا ؟.. كل البلانسات فى البحر !..

لم يتذكره الرجل . بالتحديد : لم يعرفه . المملكة تشغى بالرعايا . العشرات يعملون ــ بأمواله ، وتحت سطوته ــ فى ورش المراكب ، والصيد ، والبيع بالجملة والقطاعى ، والدخول فى مزادات الحلقة . لم يفتعل ــ فى السنة التالية ــ خناقة . غاب عن البلانس ، وعن الحلقة ، وانتظر أفواج السمان فى الشريط الساحلى الضيق ..

ثم لم يعد ينتظر ــ فى سبتمبر وحده ــ غلالات السحاب الطائرة ..

بالمصادفة ، سأله أمين عزب عن السمان ..

قال :

ــ لسنا فى سبتمبر ..

فى لهجة مشجعة :

ـــ مارس موسم السمان أيضاً ..

أضاف رحلة العودة فى مارس ، الملتف بالأمطار والأنواء والرياح والبرودة ، إلى أيام الغياب عن البلانس ، والحاج قنديل ، واللقمة التى ـــ بالكاد ، وبالإهانة ـــ يحصل عليها . امتدت شهراً ثانياً أيام الوقوف فى الشريط الساحلى الضيق . إن نسى ، ذكّره الباعة فى الشوارع . ينادون : كواليا .. الزوج بقرشين ..

ومضت عينا أمين عزب بابتسامة مشفقة :

ـــ ألم يكن من الأوفق أن تظل مع الحاج قنديل ..

جاشت مشاعره :

ـــ الحاج قنديل يقاسمنا فى كل قرش ..

وغلب صوته تهدج :

ـــ حتى صياد السنارة يشاركه رزقه ..

لم يعد السمان ـــ فى العام نفسه ـــ اكتشافه الوحيد . ربما لاتأتى إلى الاسكندرية ـــ إلى شريطه الساحلى بالذات ـــ كل الطيور الوافدة والراحلة ، كلمه الجد السخاوى عن مواعيد قدوم طيور الفصول ، ومواعيد ارتحالها : العصافير ، الدقناش ، سمانة الغرب ، النورس ، الخنشع الزيتونى ،

فرخة الغيط ، الوردار ، الحسينى ، الكحلا ، أبو فصادة ، أبو ديل ، الغر ، الخضارى ، الكيش ..

قل اهتمامه بصيد الأسماك ، بمواعيد هجرتها ، قدومها ورحيلها ، المناطق المباحة والممنوعة ، مناطق التكاثر والجدب ، الأنواء التى يصعب ــ حين تأتى ــ أن تخرج البلانسات إلى عرض البحر . ركز همه فى صنع شبكة تحتضن أسراب السمان المتعب . إذا جاوزت البحر ، وحطت على قارب أو جدار أو حجر ، استراحت : تنفض عنها التعب ، تطير ، تواصل الهجرة . الشبكة التى تتقلص عليها يداه ، فخ النهاية فى الرحلة التى لايدرى أين ، ولامتى ، ولاكيف تبدأ ..

دله قاسم الغريانى على المكان ، لنشر الغزل ، ورفو ثقوبه . الصمت الذى يعمقه تحرك ذرات الرمل فوق المياه الهادئة ، عزله فى جزيرة مهجورة . الأصابع المدربة تلضم الثقوب المتهرئة ، الواسعة . الخيوط الرمادية تسبق قرص الشمس فى صعوده من الأفق . أسراب النورس تطير إليه ، فى سرعة مذهلة ، كأنها تنوى اختراقه ..

تساءل بينه وبين نفسه : لماذا الطيور لاتواجه الأمام فى تحليقها ؟.. لماذا تكتفى بنصف الدائرة ، ثم تعود ــ ربما ــ فى الطريق المضاد ؟

تنبه إلى مايشبه الريح المفاجئة ..

غادر جزيرته المنعزلة . انتتر من جلسته لمرأى أسراب السمان ، كادت تلامس المياه فى طيرانها . اصطدمت واحدة بأعلى كتفه . طارت فى نصف دائرة ، ووقعت على الأرض . أمسك بها ــ بيديه ــ قبل أن تفيق ، وتعاود الطيران . فى اللحظة التالية ، قام بطوله . فرد ذراعيه مضربين يلقفان الأسراب الوافدة ، يهبطان بها إلى الأرض ، يغيبانها تحت الشباك المفروشة . شغلته الحكاية ، فلم يعرف عدد السمانات إلاّ عندما عرض عليه أمين عزب شراءها ..

سألته أم الأولاد مشفقة :

ــ هل تنوى ترك مهنتك ؟!

حدجها بنظرة غاضبة :

ــ أنا ؟!

ـــ نحيا على نقود الطير معظم أيام السنة .. ولولا الحاجة مانزلت البحر ..

أردفت فى توجس :

ـــ إذا غضب منك الحاج قنديل .. لن يقبل بقية المعلمين أن يتعاملوا معك ..

علا صوته :

ـــ هل أظل العمر تحت قدمىّ الحاج زفت ؟!

ثم وهو يهز أصبعه :

ـــ لو لم يحقق صيد السمان مافى رأسى ، فسأعود صياد سنارة .. أصطاد حتى فى الشواطئ الممنوعة ..

حين انتظر الحاج قنديل ـــ فى الصباح الباكر ـــ على باب الحلقة ، كان ضباب اليأس يحجب الرؤية أمامه . امتد الممنوع فى أعوام الحرب . شمل الساحل بأكمله . غاب الحاج بين الطبالى ، وجرادل الماء ، والثلج ، والأجسام المنحشرة ، والمزادات ، والمساومات العلنية والجانبية والهامسة والتى يقطر فيها العرق ، والقبول ، والرفض ، والصهينة ، ودفاتر الصادر والوارد ، ومباحث التموين ،

والأكواب المترعة بدم الترسة ، ورائحة الأسماك التى تأخر حفظها فى الثلاجة ..

نبهه حمودة هلول إلى وجود الحاج ..

لايذكر الكلمات التى قالها ، وإن يذكر هزة الرأس الموافقة ..

وعاد إلى البحر ..

كان الوحيد ـــ بين المتعاملين مع الحاج قنديل ـــ الذى ظل فى المدرسة إلى الثالثة الابتدائية ، وقرأ القرآن ، وتعلم سماع نشرات الأخبار ، وقراءة الصحف ، وكشف مايغمض عن سائليه من أمور السياسة ..

تعلم صيد الإسفنج تجربته الثانية ..

غاص إلى أعماق بعيدة . من العجمى ـــ غرباً ـــ حتى السلوم . ميّز ـــ بعد شهور ـــ أنواع الإسفنج : التركى كب ، هانى كوم ، الزيموكا . ثلاثة أنواع رئيسية ، يحرص عليها ، ويهمل الباقى . جرت النقود ـــ لفترة ـــ فى يديه . لكن المشهد القاسى هجر به المنطقة كلها : فتحى عبد ربه صعد من الماء مشلولاً . نزل إلى الأعماق مايزيد على الأربعين متراً . واجه شيئاً لم يتبينه الرجال ، بعد أن أخرسه الشلل ،

شيئاً قاسياً ، مفترساً ، دفعه إلى الطلوع من الماء بسرعة . الحقيقة التى يعرفها صيادو الأسفنج ــ بتأثير الفزع ــ نسيها . طلوع الأربعين متراً مرة واحدة ، أضاع توازن الدم ، فشل الجسد ..

ــ أريد أن أشترى قارباً قبل أن يحل شتاءان .. لاأحلم بالنعيم .. لكن عشرين عاماً فى البحر تعطينى الحق فى أن أكون حر نفسى ..

القارب والطراحة وهجر السنارة ، حلم الأب الذى مات بموته . غالب الدمع وهو يتسلم أوراق انتقاله إلى الرابعة الابتدائية . من بين عشرات الرؤى المبهمة ، والباهتة الملامح ، تطفو هذه الصورة بالذات : خطوات الأب التى أتعبها التنقل بين الشواطئ ، تبطئ فى المنطقة المقابلة لمستشفى الملكة نازلى . يضع البوصة والغلق على سور الكورنيش . يتنهد فى حزن هادئ . يغمض عينيه ، كأنه يتهيأ لنوم ..

ــ أحياناً ، لم أكن أستطيع تدبير إيجار الشقة . أجمعه بالسلف ، حتى ألبى الطرقات المزعجة أول كل شهر ..

المائة والثلاثون قرشا ــ إيجار الشقة ــ كانت ــ قبل الحرب ــ مبلغاً وقدره . الشواطئ كلها مفتوحة . المبلغ ــ الآن ــ يقل عن إيجار غرفة فى أسطح بيوت السيالة ، لكنه يعانى صعوبة تدبيره ..

ــ المصيبة أنى أكلم نفسى .. فماذا تفهم امرأة غبية مثلك ؟!

أقسى مافى الأمر انه يفكر ، ويخطط ، ويحلم بالتنفيذ . جيشان أعماقه سره الذى لايدرى به أحد . حتى المرأة ، همها اللقمة والمستقبل الذى لايجاوز ظلها ..

تكاثفت المتاعب ، فاختفت الظلال ، وحلّت العتمة . أطال الوقوف ، يحدق ، ويتلو الآيات والأدعية ، ويرهف السمع ، لكن الظلمة الساكنة لم تغادر داخله ، ولاحوله ..

عاود التحديق فى اللاشئ ، وإن غادرت عصافير اللوحة على الحائط إطارها . صفقت بأجنحتها . طارت فى سماء الحجرة . صنعت أشكالاً وتكوينات . علت أصواتها بشقشقة عذبة ..

الليـــــــــل

اعتاد التردد على الجامع لأداء صلاة المغرب . يادوب ينهى اليوم ــ قبلها ــ فى قهوة الزردونى . منذ الصباح يشترى ويبيع ويصيح ويتعارك ويفاصل ويساوم . فى موسم السمان وطير البحر يعود إلى القهوة ، أو إلى البيت . إذا باع من شروات الحلقة ، يجلس إلى الحاج قنديل ــ بعد أن تخلو الحلقة ــ يتحاسبان ، فيأخذ ماله ، ويعطى ماعليه . يغادر الحلقة ــ بعد أن يربّط على شروة اليوم التالى ــ إلى قهوة الزردونى . يلعب الدومينو والكوتشينة . يناقش أحوال البحر والصيادين ، ومايطرأ على الأنفوشى ، ويغيب عنه . يدعو الرجال إلى الغداء ، ويدعونه إليه . ربما تأخر فى العودة ، فتسبقه الصلاة . يلمح قهوة " مخيمخ " خالية من أصدقائه ، فيواصل السير إلى أبو العباس . يتأمل ــ دون تنبه ــ حركة الميدان . يصعد الدرج الرخامى ، إلى الباب الملكى ، المطل على ميدان المساجد . يشق السبيل بين المصلين والساعين إلى المقام ، والذين يفضلون المذاكرة فى صحن الجامع ..

تبدو ــ كصورة ثابتة ــ جلسة الإمام على كنبة المبلّغ . أمامه وحوله أنصاف دوائر من المصلين ، اعتادوا الجلوس إلى الشيخ بعد صلاة المغرب . تمتد الجلسة إلى أذان العشاء ، والنجفة الهائلة وسط الصحن ، ترسل دفقات من النور ، تتحدد بين مساحات الظلال التى صنعتها نصف الدئرة قبالة الإمام ، واللمبات المتناثرة فى الأركان ، تصنع ظلالاً بأجساد الواقفين والجالسين ..

ألف التردد على الجامع ، والمجاوزة ــ دون التفات ــ إلى الميضة . يغتسل ، ويتوضأ ، ويسعى إلى الجدار القريب . مغمض العينين كالمتأمل . لايشغله الطنين الصاخب ، تعمق صداه الجدران . الأصوات الداعية والمسبحة والقارئة ، تتردد فى البهو الفسيح . تصطدم بالجدران العالية ، والأعمدة . يتردد لها صدى . رنين لايستمع إليه فى مكان آخر . تردد على ياقوت العرش والبوصيرى وعلى تمراز ونصر الدين . يبدو الصدى فى أبو العباس مغايراً بما لايستطيع أن يحدده . تطول به الجلسة إلى صلاة العشاء ، منفرداً . يتأمل المقرنصات والزخارف والنقوش فى الأبواب والنوافذ والأسقف ، والأعمدة الرخامية الهائلة ، والعقود

المحملة بالجفوت والصنج والخناصر ، أو يلمحه صديق ، فيتسامران . لكن الصمت السادر الذى كانت أنصاف الحلقات تتابع به حديث الإمام ، دفعه إلى القعود قريباً ..

لم يع كل ماتعنيه كلمات الإمام ، وإن تأكدت خطورتها فى إضفاء الإمام جدية علىملامحه ، ومصمصات الشفاه المتناثرة . وضح التأثر عميقاً فى أنصاف الحلقات . استهوتهم الرحلة التى صحبوا فيها كلمات الإمام . فتشوا ــ لما تهيأ ، كالعادة ، لتلقى الأسئلة ــ عن غير المألوف ، ومايبعد عن نطاق الحديث ..

استأذن عبد الرحمن الصاوى ، فأعطاه الإمام اهتمامه ..

كان يحرص على الجلسة المسائية . ينصت ، ويتابع المناقشات ، وإن لم يحاول السؤال يوماً ..

خصّه الإمام بنظرة مشجعة ، فقال فى صوته الهادئ :

ــ ماحكم الدين فى من يواجه ابنه بالقول : لست ولدى ؟

قال الإمام :

ــ إذا كان هو الأب الحقيقى ، يقام عليه الحد ..

خالط صوته قلق :

ـــ وماالحد ؟

ـــ الجلد !

تساءل عم سلامة :

ـــ ومن هذا الأب الظالم ؟

قال الإمام :

ـــ هل لابد أن ينطبق السؤال على حالة بالذات ؟!

قطع عباس الخوالقة اتصال الصمت :

ـــ هل يحل للرجل أن يتزوج حماته ؟

همس الإمام بإشفاق :

ـــ ومايدفعه إلى هذا الغلب ؟!

قال الخوالقة :

ـــ عطية سرور ، تاجر العطارة فى شارع الميدان ، طلق زوجته وتزوج أمها .. ناقشناه ، فأكد مشروعية الزواج ..

قال الإمام :

ـــ زواجه من الأم صحيح إذا لم يكن قد دخل على الابنة .. بمعنى أنه إذا تزوج المرأة ثم طلقها قبل أن يدخل بها .. فإنه ـــ إن شاء ـــ تزوج أمها ..

قال الخوالقة :

ـــ مضى على زواجه من الابنة شهران .. فهل من المعقول ألاّ يكون قد دخل عليها ؟

قال الإمام :

ـــ ألزم الله طائر كل إنسان فى عنقه ..

خالط تردد مرتبك صوت الحاج محمد صبرة :

ـــ هل تختلف شهوة الرجل عن شهوة المرأة ؟

قال الإمام وهو يهز رأسه :

ـــ الرجل له شهوة واحدة .. أما المرأة فلها تسع شهوات..

أردف فى تحذير باسم :

ـــ اليود الذى تشمه المرأة مع هواء البحر يغطى جسمها بالشهوة .. فلا تهمل امرأتك وإلاّ خانتك !

ترامى صوت من صف خلفى :

ـــ هل يساوى الله فى العقوبة بين اللوطى والزانى ؟

قال الإمام :

ـــ الفعل متشابه ، والعقوبة واحدة .. وربما عقوبة اللوطى أشد ..

أضاف كالمتنبه :

ـــ أذكرك بأن الملك جبريل اقتلع مدينة سادوم التى كان قوم سيدنا لوط يرتكبون فيها الخبائث ، وحملها على طرف أحد أجنحته ، وحلق بها إلى علو شاهق .. ثم ألقاها كأنها ورقة !

ثم وهو يضغط على الكلمات :

ـــ قبر اللوطى يلفظه فور الدفن ، ليخلد فى نار جهنم !

غمز عم سلامة بعينه :

ـــ معظم القبور إذن خالية من أصحابها !

عبره الإمام بنظرته . اتجه إلى الأصابع المستأذنة فى أسئلة أصحابها ..

ـــ أين صاحبنا حمادة بك .. يومان لم نره ؟

قال الحاج محمد صبرة :

ـــ زرته عصر اليوم .. إنه بعافية ..

التقط الإمام من فمه سناً مكسورة . تأملها ، ثم أعادها :

ـــ انصحوه بأكل التفاح .. فهو يدبغ المعدة ..

قال الحاج محمد :

ـــ أخذ حماماً ساخناً ، ونزل إلى الطريق ..

قال الإمام :

ـــ عليه بالسفرجل إذن .. إنه قوة للقلب الضعيف ، والمعدة التى تعانى ..

استطرد متذكراً :

ـــ وانصحوه بالملح .. لو علم الناس مافى الملح ، لاختاروه على الترياق المجرب ..

اطمأن إلى تلهف الحاضرين لما يفيد ، فقال :

ـــ تناول الملح بمقدار ، مفيد .. لكن لاتديموا أكل السمك .. إنه يذيب الجسم .. إذا ضعف المسلم ، فليأكل اللحم باللبن .. ألبان البقر دواء .. فإن ألح عليه المرض ، وتناول إحدى وعشرين زبيبة حمراء .. فلن يغلبه المرض !

***

بعد صلاة العشاء ، تأخر فى مغادرة الجامع . تأخر كذلك عشرات من المصلين . انتظم معهم فى صفين متقابلين . تسلموا نسخاً من البردة ، مطبوعة بخط نسخ ، مشكولة

بشكل واضح . بدأ الجميع فى تلاوتها بصوت خفيض فى البداية . علا ، وعلا ، حتى انتهى إلى نغم متماوج :

هو الحبيب الـــــذى ترجى شفاعتـــــه

لكل هول من الأهــوال مقتحـــــــم

فمبلـــغ العلــم فــيــه أنـــه بشـــــر

وأنــــــه خير خلــــق الله كلهـــــم

ارتفع الإيقاع بالذكر ، وأطفئت الأنوار ، وتعالى النداء : الله حى ! الله حى !

البداية قرار مطمئن ، هادئ : بسم الله الرحمن الرحيم .. فاعلم أن لاإله إلاّ الله !

تماوجت الأصوات بهمس ، والرءوس تهتز فى أماكنها ، والأجسام ساكنة . ثم تحركت الأجسام ، وانتفضت واقفة . علت الأصوات ، وازداد التطوح ، ثم انتتر الذاكرون إلى فوق بآخر ماعندهم ، نترات متلاحقة متتالية ، هدأت ، وهدأت الأصوات ، وعادت الأجسام إلى الأرض ، واهتزت الرءوس فى أماكنها ، وعادت الأصوات إلى التماوج بالهمس

تأتلف الحركة وتنسجم . يعلو الإيقاع . ترافقه ـــ ثانية ـــ هزات الأجساد والأيدى المتطوحة : هو .. حى .. قيوم .. حق .. قهار ..

ترتفع التنهدات والصرخات والتشنجات . يطيب الوقت . يكاد الأمر يفقد ترابطه . ترتفع ـــ فى وقتها ـــ صيحة الانتهاء ، ممدودة ، عريضة ، عالية : الله ، إشارة الانتقال إلى طبقة عالية . يكبس الشيخ أيديهم وأرجلهم . يقيمهم على بركة الله . تسكن الحركة ، وتهدأ الحواس ، ويتهيأ الذاكرون لطبقة أخرى من ترديد لفظ الرحمن الرحيم ..

خطر له أن ينضم إلى الطريقة الشاذلية . الدرجات صعبة : المريد ، المقدم ، النقيب ، الخليفة خاتمة الدرجات الروحية . لو استطاع أن يقطع الدرجات إلى آخرها ، يعرف الأسرار والرموز والدلالات والإيحاءات والإشارات والمشكاة والزيتونة والنوم على المسامير والزجاج المتكسر ، تخضع له الثعابين والحيات ، فيطلقها على من يسيئون إليه ، ويجنب أذاها المحبين . يمتطى الحصان فى الجلوة ، حوله المريدون والأتباع . ذوى الخاطر ـــ بتوالى الأيام ـــ فاكتفى بالمشاركة فى الحضرة ، وترديد الأناشيد ، والسير وراء جلوة الخليفة ،

والإخلاص فى حب آل البيت والصحابة والأولياء والتابعين ..

***

فكر فى الميل إلى شارع سيدى ياقوت العرش . اعتاد الجلوس إلى عم جابر برغوت ، خادم الجامع . يسأل ، ويجيب الرجل . يجد فى مجلسه تعاطفاً ومؤانسة ..

اجتذبته ــ من بعد ــ أنوار وأعلام ونوافذ مفتوحة وشرفات يطل منها نساء وأطفال ، وصوت حودة بدران شهب تخترق الليل ..

دخل السرادق فى الناحية المقابلة للبيت . ضخم ، علقت أمامه ، وفى داخله ، التعاليق والنجف واللمبات الملونة ، والرايات الحمراء والخضراء . يتوسط نهايته منصة خشبية ، يجلس فوقها العوالم ، يقابلها صفوف من الكراسى والدكك الخشبية ، وفرشت المساحات الفاصلة بالسجاد الأحمر ..

حيا وجلس ، وشكر على السيجارة وكوب الشربات ..

العوالم على دكتين ، فى نهاية السرادق ، تفصل بينهما ترابيزة ، عليها الشموع والمرطبات ..

تبين ــ بنظرة جانبية ــ أن محيى قبطان يجلس فى الكرسى الملاصق . حيا ، وسلّم ، وتمتم بعبارات مجاملة ..

همس محيى قبطان فى أذنه :

ــ أخيراً .. تزوجت بنت الحاج قنديل !

وضع راحته على جانب فمه ، وحرص على خفوت صوته :

ــ هل كانت عانساً ؟

ــ بالعكس .. النساء يتحدثن عن جمالها وبياض لحمها.. لكن الحاج أصر ألاّ تراها عين قبل الزفاف .. فإذا سئل ، قال : إنها تشبهنى .. وأنت تعرف نصيب الحاج من الجمال ..

ابتسم ، فكشف عن أسنان مفلوجة :

ــ وهل وافق العريس على الشرط ؟

قال محيى قبطان فى صوته الهامس :

ــ يتزوج أموال الحاج لابنته !

أعطى انتباهه لصوت حودة بدران . يلعلع ، فيغطى على الأصوات الهامسة ، المتلاغطة ، المتشابكة ، يشغى بها السرادق الواسع ..

قاعد على الرمـــــل وحدى فى عـــز ضـهريـــــة
الشمس قدحت دماغــــى .. يا نارى ياعنيــــــــه
ومن هـــــوا البحــــــر ما شعرتـــــش بحنيــه
تلسعنى نـــــار الجفا .. تحرقنى .. أتلــــــــوى
يا حلــــــو عطفــك لروحى ضـــــل شمسيــه

طالت الجلسة . أيقظه الوصول المفاجئ لموكب العريس . كان قد أتم دورته السباعية فى ميدان ابو العباس ، يطلب الإذن من السلطان . سبقته الموتوسيكلات والسيارات المصاحبة والهتافات والزغاريد وطلقات الرصاص والنقرزان بالسروال الفضفاض والصديرى المزركش ، ينقل العصا الطويلة ذات العمامة الملونة ، بين جبهته وذقنه وأنفه وكتفه وأطراف أصابعه ، دون أن يمسكها بيده . يرافقه مساعداه بنقرات منتظمة على طبلتين علقتا فوق صدريهما ..

توقفت السيارة فى أول الطريق . نزل العريس إلى حلقة الأصدقاء ..

هتف حودة بدران :

الحارس الله والصلاة على النبى .. يحرسك ياعريس

أضاف الأصدقاء :

وانت أونطجى !

وهتف حودة بدران :

ياما انت صغير ..

أضاف الأصدقاء :

حلو يا عريس !

وتعالت الأصوات منغمة ، يرافقها تصفيق :

اقروا الفاتحة لابو العباس .. ياسكندرية ياأجدع ناس ..

وترامى ـــ من الشرفة المطلة على السرادق ـــ صوت العالمة تغنى :

قطعنى حتت .. أنا ملك إديــــــك

وعنيّه حكــت .. حكت لعينيــــك

آه ياوله .. ياولـــه !..

توقفت عربة على ناصية الساحة المقابلة للبيت ، مزدانة بالشيلان الكشميرى والورد والأزهار . يجرها أربعة جياد ، ويخفرها الأولاد . استقبل العريس عروسه فى عودتها من الحمام . مانعت ـــ فى البداية ـــ وتأبَّت ، كما تقضى الأصول . ثم سارا إلى داخل البيت ، خلف ستار من الشيلان الكشميرى ، فلا يراهما الناس . يتناثر فوقهما الملح والبدور

: قطع صغيرة من نقود ذهبية وفضية ، تسبقهما الزغاريد وزفة العوالم وأبو الغيط وأولاد عبد السلام

***

اختار لخطواته أن تميل إلى شارع البورينى ، ومنه إلى الساحة الواسعة ، قبالة حمام الأنفوشى ..

كان يعلم أن عم محجوب ، حارس الحمام ، يفتح أبوابه أثناء الليل للمعارف . يغادرون البيوت إلى الحمام ، فإلى أبو العباس ، أو المساجد الأخرى ، القريبة ، ليتجهوا ـــ من بعد ـــ إلى الشاطئ ..

لمح النوافذ مضاءة ، فتأكد حدسه ..

تفحصته ـــ للحظة ـــ عينا عم محجوب :

ـــ على الراكشى .. من البيت أم إليه ؟

قال على الراكشى :

ـــ فى الشوارع من أول الليل ..

أطلق عم محجوب ضحكة قصيرة من أنفه :

ـــ أغضبتك المرأة ؟..

قال الراكشى :

ـ سرقنى الوقت بين الذكر فى أبو العباس ، وزفاف بنت الحاج قنديل ..

دس فى يد عم محجوب قرشاً . ناوله الرجل صابونة مستعملة وفوطة ..

تعالى صوت من خلف أحد المربعات :

ـ لن تذهب إلى الحلقة إذن هذا الصباح ..

ميز صوت قاسم الغريانى ..

لأن الجن يتخذون من الحمامات مأوى لهم ، فقد استعاذ بالله من أذاها ، وهو يخطو على عتبة المدخل ، بادئاً بالقدم اليسرى ..

بدا المكان ملتفاً بضباب الماء الساخن من الأدشاش ، وفى المربعات المتلاصقة بطول القامة ..

قال الراكشى وهو يغالب ابتسامة :

ـ أستطيع ـ بحول الله ـ أن أظل ثلاثة أيام بلانوم ..

وقال لأصوات الرجال المتلاغطة داخل المربعات :

ـ كلما وجدتكم بربطة المعلم فى الحمام ، عرفت أن حالكم واقف ..

قال قاسم الغريانى :

ــ نحن فى يد النوة .. تذهب فنركب البحر .. وتأتى فنأتى إلى الحمام ، أو نجلس فى القهوة ..

تناهى صوت من المربع الأخير :

ــ هل عرفتم ماحدث ؟..

أدرك حمودة هلول أنه أسرف فى تصنع الجدية ، فغاب الهدف الذى أراده . قال فى سرعة ، ليبدد المشاعر المتباينة ..

ــ شفيقة غراب ماتت !

قال قاسم الغريانى :

ــ حسبنا أن الحرب عادت ..

أضاف سيد الفران :

ــ أو أن الملك فاروق هو الذى مات !..

اطمأن هلول ــ بأصابعه ــ إلى غياب الصابون عن وجهه :

ــ موت شفيقة غراب ليس حدثاً عادياً .. لها الفضل فى متعة الآلاف ..

ولون صوته :

ــ وحل عقدهم أيضاً ..

قال سيد الفران :

ــ المرة الأولى التى زرت فيها كوم بكير ، كنت واحداً فى طابور ، والمرأة تستند إلى جدار ، تعطى اللذة فى دقائق ..

قال الغريانى :

ــ وماشأنك أنت بعالم الرجال ؟.. جاوزت الخامسة والثلاثين ولم تتزوج .. فهل أفشى السر ؟ ..

قال سيد :

ــ أنا أقفز وأجرى .. لاحاجة بى للزواج !

قال الغريانى :

ــ أشهد لك بالتفوق فى العادة السرية .. وإن كنت أثق أن هذا هو آخر تفوقك !.. ..

قال دياب أبو الفضل ، وهو يسلم جسمه إلى الماء الساخن :

ــ آخر الأنباء : حمدية بنت توفيق الرشيدى .. فرت مع عم شاكر فراش مدرسة الحجارى ..

علت فى مربع الغريانى صيحة دهشة :

ــ لاأصدق .. الرجل خطوتين والقبر ..

قال دياب أبو الفضل :

ــ أغواها بكلماته المعسولة ..

قال الغرياني :

ــ البنت بكر .. بخاتم ربها !

قال خميس شعبان :

ــ كنت أبيع لها كوباً من دم الترسة .. مرتين كل أسبوع ..

قال الغرياني :

ــ لذلك فجسمها بلا عظام !

قال سيد :

ــ يابخته الملعون .. فتاة كاملة الدسم !..

قال خميس شعبان :

ــ عندي لك عروس أشهى منها ..

قال عم محجوب ، دون أن يزايل مكانه في مدخل الحمام :

ــ إلحقه بها يا خميس .. وإلاّ تزوج على روحه !

وشى صوت سيد بالغضب :

ــ وهل شكوت لك ياشقيق فرعون ؟!

قال خميس شعبان :

ــ لاتغضب من سيد ياعم محجوب .. إنه منا وعلينا ..

ثم بنبرة معاتبة :

ــ يا سيد .. تقسو على عمك محجوب وهو فى سن أبيك ؟!

قال سيد :

ــ إنه دائماً يرقص فى مركبى ..

قال خميس شعبان يبدل اتجاه الكلام :

ــ البنت التى اخترتها لك .. لم تذق شفتاها طعم شفاه أخرى غير شفتى أمها ..

سأل الغريانى فى اهتمام :

ــ من البنت ياخميس ؟

قال خميس شعبان :

ــ صفية بنت المعلم محمد كسبة صياد الجرافة ..

قال الغريانى :

ــ بنت شاطرة .. بها عرق دمياطى ..

* * *

دفع الباب الخشبى بجانب كتفه . كانت يداه مشغولتين باحتضان " الغلق " الخالى . ند عن الباب صرير ، عمق الصمت الذى ساد المكان . تداخل بالظلمة والخواطر الجهنمية التى تسللت ــ فى الليل ــ إلى رأسه ، فأحس بالرضا . ابتسم لفكرة الغريانى أن يترك للمرأة ــ ليلة ــ فرصة القيادة فى الفراش .. هل تظن نفسها الرجل ، فترفع ساقيه ؟!

دندن بصوت خفيض :

وانا مالى ماهيه اللى قالت لى روح اسكر وتعالى ع البهلــــــى

شده الضوء الصادر من الحمام . تعجب لسهو المرأة ، أو لخوفها . اتجه إليه ليطفئه ..

علت الدهشة بصوته :

ــ تغسلين فى الفجر ؟!

سبق انتظاره للجواب شهقة المرأة ..

ضحك :

ــ خفت ؟

وهى تغالب الارتباك :

ــ الدنيا ليل .. لم أشعر بصوت المفتاح فى الباب ..

قبل أصابعه المضمومة :

ـــ نورك يضئ المكان ..

نترت الماء من يدها ، وأسدلت قميص النوم ـــ بعفوية ـــ على فخذيها ..

قال :

ـــ أنا زوجك ياامرأة ..

حاولت التشاغل بعصر الغسيل ..

قال فى حسم :

ـــ كفى !..

ثم وهو يعاونها على القيام :

ـــ لاداعى لدخول الحجرة .. قد يصحو الأولاد ..

خالط صوتها احتجاج :

ـــ هكذا على الأرض ؟

ـــ نعم .. هكذا على الأرض !

تلفتت فى حيرة . مالت إلى شوال فى ركن المكان ، فنفضته . التمعت عيناه بالسؤال :

ـــ هذا الشوال .. من أين ؟

قالت وهى تسوى الشوال فى الأرض :

ـــ انه شوال الدقيق ..

ارتعشت أهدابه :

ـــ وأين الدقيق ؟

ـــ خلص ..

صرخ :

ـــ كله ؟!

ـــ كله ..

أطال النظر إلى المرأة التى توقفت عن تسوية الشوال ، كأنه يراها للمرة الأولى . بدت له طيبة ، ومسكينة ، ومهمومة . بدت له شيطاناً ينغص عليه حياته : شعرها الأكرت ، وعيناها اللتان غابت إحداهما وراء سحابة بيضاء ، وقامتها المدملجة القصيرة ، وثيابها التى لم تبدلها منذ سنوات . حتى عندما يضاجعها ، تكتفى بسحبها إلى مافوق البطن ، وتسلم نفسها فى بلادة ..

باخت الصور ، وتماوجت ، وتطوحت ، سخيفة ، وبلا معنى . تقافزت الكلمات داخل حلقه . فلما أدرك أنه فقد الرغبة فى الكلام ، أشاح بيده ..

ومضى ..

ا لو احــد نصفــان

طالت الوقفة ، فداخله الشك أنها ربما لن تجئ ..

استطالت ظلال الغروب فى شارع سيدى داوود ، فأمسى المكان رمادياً ، أو كاد . بدا القادمون أشباحاً من ــ وإلى ــ الحجارى والموازينى وسليم البشرى والمسافرخانة وصفر باشا . قلت حركة السير ، فتمطى الهدوء فى أرجاء المكان ..

كان إذا مشى أمام البيت ، أسرع فى خطواته . يتوجس من السكون فى الداخل ، خلف الباب والنوافذ المغلقة ..

أعاد النظر من الباب الموارب . ربما المرأة سبقته ، فاختبأت ــ حتى لايراها أحد ــ داخل البيت المهجور . تداخلت الظلال ، وتلاشى الضوء من الأبواب والنوافذ المغلقة ، فاختفت المرئيات تماماً . نسى ــ أو تناسى ــ مخاوفه ، أن البيت مسكون بالعفاريت . تغيب فى النهار ، وتظهر فى الليل . تبدأ صياحها وصراخها عندما تتمدد الظلمة فى المكان فتغيب ملامحه . يغالب الخوف ، لايتلفت

، وإنما يمضى إلى الأمام ، تسبق خطواته ما تسعفه به ذاكرته من آيات قرآنية وأدعية ..

أغلق الباب ، فانعكس الصوت المفاجئ ضوءاً مفاجئاً فى نافذة البيت المقابل . هم بالانصراف ، لكن النافذة التى أطل الضوء من خصاصها ظلت صامتة ..

تعمد أن يصل قبل الموعد المحدد ، لتجده فى انتظارها . حين غادر البيت ، أهمل النظر فى ساعته ، فهل أوقفته اللهفة أمام البيت المهجور ، قبل زمن من الموعد المحدد ؟..

ضايقته البسمة التى اتسعت فى وجه المرأة ، عندما أفرغ المشكلة من جوفه . تردد ، وتلعثم ، وغلبته الحيرة . دفعها إلى القسم بدينها حتى لايعرف الأمر ثالث ..

بدا الصدق فى قسمها ، وإن أتبعته بابتسامة يصعب أن تغيب عن باله ..

دس فى يدها خمسين قرشاً ، ففاجأته بالسؤال :

ــ هل أحضر معى شيئاً ؟

مسح المكان بعينيه ، فلايواجه ابتسامة ألصقتها بوجهها

ــ ماذا تقصدين ؟

وهى تدارى فمها براحة يدها :

ـــ حمادة بك .. أنا لم أجرب هذا الأمر من قبل ..

فى ضيق لم يحاول إخفاءه :

ـــ لاشئ !

أعادت لف الملاءة حول جسمها ، وتهيأت للانصراف . أوقفها بنظرة . مالت بعينيها ناحية الشاطئ . لفه سكون الظهيرة . يتناهى ـــ من بعد ـــ تكسرات الأمواج ، صياح أسراب النورس ، صفارة باخرة فى الميناء الغربية ، دقات مسمار متكاسلة فى هيكل قارب ، هتاف سائق بنز فى الحصان الذى يجرى بآخر ماعنده ..

اقترب ، حتى داعبت أنفاسه أذنها :

ـــ أنسية .. أعتمد على تصرفك كثيراً ..

***

لما ناداها ـــ فى المرة الأولى ـــ واصلت السير ، دون أن تعنى بالالتفات . لم يخطر ببالها أنها هى المقصودة بالنداء . لحقتها أيام الأبوحمدات ، عندما استوقفها مرعى بيبى فى أول شارع سليم البشرى . كان السكون سائداً ، بالليل المبكر ، وبرودة الشتاء ..

ـــ أنت فى حاجة إلى رجل ..

كانت تعرف مهنته ، والأذى الذى ألحقه بناس مهمين :

ــ أحب أن أحيا بلا زواج ..

زوى مابين عينيه :

ــ من قال إنى أعرض الزواج ؟

ولون نبرات صوته :

ــ أنا أعرض حمايتى !

حاولت أن تلملم جرأتها :

ــ مم ؟..

ــ من أذى أولاد الحرام !..

قالت بصدق :

ــ ومن يهتم بى ؟

وهو يضغط على كتفها :

ــ هذه وظيفتى ..

وعلا صوته مهدداً :

ــ لاتتحركى منذ الليلة بغير حمايتى ..

ثم فاجأها بالقول :

ــ سأتكفل بإقناع حمادة بك أن يتركك تقيمين فى البيت.

شردت فى تأمله : شعره المفلفل ، المهوش ، والثقوب المتناثرة فى وجهه بتأثير جدرى قديم ، وشاربه المنسدل على شفته العليا ، والجلباب الكستور يضيق على قامته الطويلة الممتلئة

ومال على أذنها :

ـــ أنا أعرف حكاية البيت ..

وعلا صوته :

ـــ وكل شئ ..

فكرت أن تظهر ترحيباً ، وتدعوه إلى بيت سليم البشرى . يدخل ، فتصرخ بآخر ماعندها . تتهمه بمحاولة سرقتها . هذا هو الاتهام الوحيد الذى تستطيع أن توجهه إليه . أطلقت أف ف ف للتنبه إلى أنها تدخل البيت متسللة فى الليل . هو بيت حمادة بك . لم يعترض الرجل طريقها إلاّ بعد أن عرف كل شئ . ماالذى أدخلها البيت حتى يسرقها فيه ؟!..

لاذت بالبيت المهجور . لاتخرج ، ولاتقابل الآخرين . ولما توصلت إلى قرار ـــ ارتعش له جسمها ـــ بالرفض ، ترامت إليها من النوافذ المقابلة ، أحاديث النساء عن معركة الفتوات فى ميدان الخمس فوانيس . من لم يمت ، أو يدخل

المستشفى ، أخذه البوليس . وأعلن المخبرون منع حمل السكاكين والخناجر والمطاوى والسنج ، وادعاء الفتونة ..

اعتادت ــ من يومها ــ ألاّ تلتفت لنداء لاتتبين صوت صاحبه ..

اضطرت للنظر من اللهفة التى امتطت صوته . تعرفه جيداً ، ولابد أنه يعرفها هو أيضاً . ناداها عبد الرحمن الصاوى ــ ليلة عيد ــ فى مجلس الحاج محمد صبرة الحلاق ، ومنحها جنيها . جذب مبسم الشيشة من شفتيه ، فتمنت مبلغاً مماثلاً ، وربما زاد عما دفعه الصاوى ..

أدماها صوته الغاضب :

ــ لاتجوز الزكاة لمومس !..

شغلها الأمر فى الأيام التالية . تداخل الفضول والغضب ، فأعطت سمعها للروايات المتناقضة ..

لم تعرف الكثير عن حياته ، ولعلها لم تعرف عن ظروفه الخاصة شيئاً ، وإن تأكد صيته بما ورثه : اسطبل السيالة ، الفرن البلدى خلف سيدى على تمراز ، البيت الجديد فى شارع الحجارى . رويت حكايات عن الأموال

التى خلّفها له والده فى صفائح مياه قديمة ببدروم بيت وكالة الليمون ..

سألها محمود عباس الخوالقة : هل تدركين مدى السمعة التى تتمتعين بها ؟..

جاوزت مشاويرها الأنفوشى ــ وبحرى كله ــ إلى المنشية والعطارين ومحرم بك وأحياء أخرى . من بين آلاف النظرات التى حاصرتها ، ودعتها ، لم تتجه إليها عيناه ، يوماً . مع ذلك ، كان جزءاً من مألوف حياتها : خطواته المتلاحقة فى شوارع الحى . مجلس العصر، ومبسم الشيشة ملتصق بشفتيه ، أمام دكان الحاج محمد صبرة . خوف سيد الفران ــ عندما يضيف رغيفين إلى ماتشتريه من الخبز الرجوع ــ يعلنه فى نظراته المتطلعة إلى باب الفرن . أحاديث السخط والإعجاب والدهشة وعدم التصديق ..

عم سلامة ــ صاحب مطعم النبلاء بشارع السيالة ــ أضاف عشرة قروش إلى أجرها ، وهى تغادر ــ آخر الليل ــ باب المطعم الخلفى . ربت ردفها ، وقال :

ــ هذا خير حمادة بك .. يطلب الرضا ليفوز فى الانتخابات ..

وطلبها ــ فى الأيام التالية ــ رجال وشبان كثيرون ، لم تكن تعرفهم ، ولارأتهم من قبل . عرف الطريق إلى البيت صيادون وبحارة وعمال فى الميناء وأفندية وزبالون وعتالون وسائقو تراموايات وكمسارية وخدم جوامع وزوايا وصبيان قهاوى ومخبرون وعساكر وردية . حتى الممرض فى مستشفى الملكة نازلى ، قال إنه فضل القدوم إليها ، وكان يستطيع مصاحبة امرأة من المترددات على المستشفى . كان يربكها أكثر من موعد فى الليلة الواحدة ، فتفسح ساعتين بين موعد وآخر ..

لما ناداها ــ فى المرة الأولى ــ واصلت السير . غاب عن بالها أنها هى المقصودة بالنداء ..

عاود نداءه بصوت أعلى :

ــ أنسية !..

ذكر الاسم ، فالتفتت ..

العصر موعد جلسته أمام دكان الحاج محمد . لاشيشة ولاأصدقاء ، ونظرات متطلعة لطفل ــ داخل الدكان ــ ينتظر دوره فى غياب الطهور . وسير التجليخ ، المعلق بجوار المدخل ، يدل على دكان حلاق ..

دعاها بيده ، فتأكدت ، وعادت بخطوات مترددة ..

فطن إلى صعوبة الحديث أمام الناس . قام من كرسيه ، وأشار إلى الشاطئ :

ــ اسبقينى إلى هناك !

المرة الأولى التى اقترب منها ، وحادثها ، وتوضحت ملامحه . بالكاد يبلغ الأربعين ، وربما أقل . أميل إلى القصر ، تكسو الشعيرات البيضاء فوديه ، ووجهه مستدير ، تنتشر فيه بقع الشمس . له عينان دائمتا التلفت ، وشاربه نحيل أقرب إلى الصفرة . خمنت من الثقب الصغير فى طرف أذنه العلوى أنه كان يضع حلقاً ..

كانت تحيا الروايات العجيبة ، والمختلفة ، ولايأتى ــ فى بالها ــ أن تجاوز الهامش ..

ذهول المفاجأة تراجع أمام اللهجة التى تقطر وداً :

ــ كيف حالك ؟

حدجته بنظرة متسائلة :

ــ الحمد لله !..

قال فى لهجته المتوددة :

ــ الملعون سيد يضايقك كثيراً !..

الملامح الهادئة تخفى عقلاً حويطاً . نظرات سيد القلقة ، المتطلعة إلى باب الفرن ، تنفى أن يكون هو الذى أفشى سر نفسه . العمال الآخرون سوق ، كل واحد فى حاله ..

أضاف دون أن يعنى بتحديقها المستغرب :

ـــ مضايقات الآخرين لاتنتهى أيضاً ..

لو يدخل فى الموضوع !..

أجفلت لمروق طائر فوق رأسها . تواصلت لحظات الصمت ، تعمقها الأصوات البعيدة للأمواج ، وصفارات البواخر ، وصيحات النورس ، وصرير عجلات الترام فى انحناءة مساكن السواحل ..

سوت الملاءة على جسمها :

ـــ أستأذن ..

ارتفع صوته بتوتر :

ـــ أريدك !..

تردد ـــ لحظة ـــ فى مواجهة نظرتها المتسائلة ..

شجعته بهزة من رأسها ..

***

طرف الخيط يصعب التقاطه ..

كان فى السابعة لما طلبت أمه أن يشترى فولاً للعشاء من الطنطاوى . شجعته الظلمة ، فنزع الحذاء من قدميه ، وأسنده إلى باب البدروم ، وغادر البيت حافياً . برودة الطريق ، وملمس الحصى والتراب ــ فى باطن القدمين ــ يتسلل بلذة ، تتصاعد ، فتشمل الجسد كله ..

قال الولد محمود عبد العزيز ، زميله فى البوصيرى الأولية :

ــ كأنك تحرص على الهزيمة فى هذه اللعبة ، فلا ينال العقاب سواك !..

تملكه العناد ، فرفض تنازل الولد عباس متولى ، عن حقه فى العقاب . قست العصا على اليدين الممدودتين ، لكن اللذة ــ يذكرها ــ جاوزت الألم ، والأمنية أن يمتد الزمن ..

لم يكن يضمر شراً . مجرد التلامس بين صدره وأيدى النازلين من ترام الرمل إلى الطريق . عشرات يتدافعون ، فيستقبلهم بوقفة ثابتة . كلما تزايد الضغط ، علت إيقاعات النشوة ، وتراقص الجنون فى الجزر الوحشية ، وحملت البداية هراوتها ، وعادت إلى أصل الأصول ..

دفعته المرأة بقبضة غاضبة :

ـــ هل ينقصنا زحام ؟!..

الدفعة زر خفى ، أشعل النيران فى بطنه . لم يتحرك فى وقفته . تمنى لو أعادت المرأة دفعتها الغاضبة .. لكن الطابور تواصل ، وابتلعت الأمواج ماصادفها ، وواصلت الاندفاع ..

لم يكن الرجل مخطئاً . هو الذى دفعه فى طابور السينما ليقف أمامه . لايذكر الكلمات التى عقب بها على ملاحظة الرجل . نظرات الواقفين فى الطابور لم تشغلها الصفعة التى هوت على وجهه . ظل فى وقفته ، وقال من بين أسنانه كلاماً آخر ، قاسياً . توالت الصفعات . زاد الرجل فبصق عليه . العينان مغمضتان ، والوحش النائم يصحو ، والدماء تسرى فى الشرايين الناضبة ، والخضرة تزهر فى مساحات الجدب ..

أضنته المأساة ، حاصرته ، طاردته كظله . نسبها إلى سواه ، ولمّح لجلساء قعدة العصر . علت ضحكات السخرية ، وقالوا كلاماً معيباً ..

ظلت الرغبة العارمة حبيسة أحلامها . أخرس لسانه ، حتى لهؤلاء اللائى تقاضين الثمن . قرر ـــ فى إصرار ـــ

أن يتحمل عناق السر المشبوب باللهفة والجنون ، فلايصبح السر سراً لو تخلى عن عناقه ..

نطق الاسم ــ ذات ليلة ــ دون وعى :

ــ أنسية !..

رغم سيرتها التى تلوكها جلسة العصر ، لم يعن حتى بأن يدقق فى ملامحها ، ولا فكرفى بواعث اختيارها . أمسك الخيط من طرف النهاية . توالت حمم الرغبة ، فدمرت أعماقه . فى اللحظة التالية ، شغلته تماماً . تابعها ، راقب تصرفاتها ، سأل الجلساء ، وهؤلاء الذين سال عرقهم على جسمها . حتى الرغيفين الزيادة لم يفلتا من رقابته . تنصت إلى الهمسات فى الأركان المظلمة . تُقَوِّت الكلمات القاسية ــ هو نفسه فعل ذلك ــ تتناول الهبات ، لغرض أو لغير غرض ، تذهب وتأتى وتتسلل إلى داخل البيوت وتنصت وتجيب وتناقش ، لايغادر الهدوء ملامح الوجه ، ولايعلو الصوت عن الهمس ، والنظرات تغفو فى الشرود ..

هل هى المأساة السر ، يخشى أن تطارده بها أيامه القادمة ؟!..

اختار الظهيرة أنسب موعد لانتظارها ..

أوشك اليأس أن يتسلل إليه ــ فى اليوم الرابع ــ لما رآها قادمة من شارع خير الله بك ، فى طريقها إلى السيالة..

***

ــ مساء الخير ..

فاجأه الصوت الهامس . لم ينتبه لقدومها ، مع أن بداية الطريق ــ من سليم البشرى ــ تبعد بمسافة . شمله الإرتباك ، فلم يرد على تحيتها ..

قال وهو يخطو إلى الأمام :

ــ اتبعينى ..

دون أن تجاوز الهمس :

ــ فلنبق هنا !..

تساءل فى دهشة :

ــ كيف ؟..

لملمت جرأتها :

ــ ألا تملك هذا البيت ؟

ــ لكنه مهجور !..

ــ لن نسكن فيه ..

ــ يخلو حتى من النور ..

رفت على شفتيها ابتسامة :

ــ وماحاجتنا إلى النور ؟!..

ــ لى بيت قريب .. سنجد فيه كل مانحتاجه ..

وهى تسبقه إلى الداخل :

ــ أمرتنى أن أتصرف ..

نظر ــ بتلقائية ــ إلى النافذة المقابلة . كانت قد أطفأت نورها . تابع تلقيها صرير الباب .. لكن الظلمة جاوزت رمادية الغروب ، عمق من حلكتها إغلاق الأبواب والنوافذ..

قادته من رسغه ، فأدرك أنها قد وصلت إلى الحجرة التى تعرفها جيداً ..

لم يعد ترددها على البيت تخميناً ، وربما فاته ــ أثناء رقابته الصارمة ــ أنها تقيم فيه بصورة ثابتة ..

فى اللحظة التالية ، فاجأته ــ فى أعلى كتفه ــ بضربة قاسية . صرخ متألماً . مد أصابعه يريد دفعها . عاجلت الأصابع بضربة سريعة ، فأدمتها . هل تبصر فى الظلام ؟..

علا الغضب بصوته :

ــ كيف تجرؤين ؟..

دون أن يزايلها الهدوء :

ـــ أمرتنى أن أتصرف ..

لماذا عرض الأمر عليها ؟..

شغلته الفكرة ، تملكته تماماً ، فأنسته نتائج كان عليه أن يتدبرها . عاجلته ببصقة ملأت وجهه . شدت قميصه بأصابع متوترة . لولا أنه هو الذى طلب وشرح وأفاض ، لتأكد أن هذه هى صورة علاقاتها فى الحجرات المغلقة : خاصمت الهدوء ، وتعالى صوتها ، مازجته حشرجة غريبة ، كأنها تموت . سرت القسوة حتى أطراف أصابعها ، قسوة مدمرة ، لاتبالى أين ، ولاكيف . تضع جسده المتكور فى أيدى ، وأقدام ، الآلاف من العفاريت والمردة ..

أذهله أن الشياطين ـــ رغم الغضب ـــ تراقصت ، وأطلقت أغنياتها المحمومة ، وباحت الطلاسم بألغازها ، وتوالت الصرخات المنتشية ، وتداخلت الأصوات ، وتلاشت المسافات والحدود ..

فكر أن يوجه الضربات كيفما اتفق . فتدرك إصراره على الرفض .. لكن المفاجأة اجتذبته ، فطاوعها ..

توالت الضربات والصفعات والشتائم . دفعت رأسه بقدمها . لاحقت جسده الممدد بركلات موجعة . تأرجحت

السفينة الرعناء وسط الطوفان ، ولثم الصياد قدمى عروس البحر ، وامتص الرضيع الحنان من صدر أمه ..

اطمأنت ـــ بأصابع مدربة ـــ إلى تحقق الرجفة المشتهاة . هدأ ـــ من بعدها ـــ الجسد ، وتواصل الصمت . سوت ملاءتها ، ودفعت إليه ثيابه ..

أمسكت برسغه ، وقادته إلى الخارج ..

مد أصابعه إلى صوت معالجة يدها للباب المغلق :

ـــ خذى بقية أجرك ..

فى صوت تغلف بهمس البداية :

ـــ لاأريد شيئاً ..

وابتلعتها العتمة ..

في حضـرة السلطـــان

ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنـــا

***

إن الله وملائكته يصلون على النبى . ياأيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلموا تسليماً

***

كان فى سياحة ، عندما عانى التردد : هل يلازم البرارى والقفار ، للتفرغ للطاعة والأذكار ، أو يرجع إلى المدائن والديار لصحبة العلماء والأخيار ؟.. وصف له الناس ولياً برأس جبل ، فصعد إليه . وكان الليل قد جاء ، فقال فى نفسه : لأدخل عليه فى هذا الوقت . تناهى صوت الولى من داخل المغارة : اللهم إن قوماً سألوك أن تسخر لهم خلقك ، فسخرت لهم خلقك ، فرضوا منك بذلك . اللهم وإنى أسألك اعوجاج الخلق على ، حتى لايكون ملجئى إلاّ إليك . قال الشاذلى لنفسه : يانفس ، أنظرى من أى بحر يغترف هذا الشيخ . فلما جاء الصباح ، دخل عليه ، فأخذته منه هيبة ،

وقال له : ياسيدى ، كيف حالك ؟.. قال الشيخ : أتشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم ، كما تشكو أنت من حر التدبيروالاختيار ، فقد ذقته ، وأنا الآن فيه . وأما شكواك من برد الرضا والتسليم ، فلماذا أقول : أخاف أن تشغلنى حلاوتهما عن الله ؟. قال : ياسيدى ، سمعتك البارحة تقول : اللهم إن قومك سألوك أن تسخر لهم خلقك ، فسخرت لهم خلقك ، فرضوا منك بذلك . اللهم فإنى أسألك اعوجاج الخلق علىّ ، حتى لا يكون ملجئى إلاّ إليك . فتبسم الشيخ ، وقال : عوض ماتقول سخر لى خلقك .. قل يارب ، كن لى .. أترى إذا كان لك أيفوتك شئ ؟.. فما هذه الجنابة ؟..

أمضه الإحساس بالوحدة ، وهو يستند إلى الجدار ، فى جلسته طرف صحن الجامع . يمتد أمامه فراغ الصحن إلى الأبواب الخارجية ، يتقاطع فى أروقة ، تصنعها الأعمدة ، والقناطر فوقها . اختلطت الأنوار والظلال . شكلت تكوينات على الأجسام الجالسة ، والأرض

انتحى الركن ، تحت واحدة من القباب الأربع الصغيرة . قبالة القبة المواجهة لضريح السلطان ..

ألف الجامع : المئذنة ، والقباب ، والباحة الداخلية ، والعقود المجملة بالجفوت والصنج والخناصر ، والباب الرئيسى المطل على الميناء الشرقية ، والباب الملكى المفضى إلى السيالة ، وباب الضريح ، والمحراب ، والمنبر ، والميضة ، وتآلف الهمسات والأدعية والبكاء والزغاريد والنداءات . النسوة يطفن بالضريح . يكنسن حوله . يستندن إلى مقصورته النحاسية . يقبّلنها . يغرفن بأيديهن من الهواء المحيط . يضعنه داخل الملاءات ..

لم يكن يشعر ــ فى مجلسه ــ بحرارة النهار . النوافذ ملاقف ينفذ منها الهواء . يتآلف فى الصحن الواسع ، لطيفاً ، يستكين إليه ، فلا يغادر مجلسه حتى يؤذن للصلاة ..

همس لنفسه ، كأنه يستوثق : حمادة بك ؟!..

لمحه يتسلل بعينيه إلى مشربية مسجد النساء الصغير ، تطل على صحن الجامع ، ساكنة فى الهدوء والظلمة . تأكد مما خامره ، لما اختار الجلوس بالقرب من المنبر ، فى مواجهة ضريح السلطان . الأتباع والمريدون وقصَّاد المقام . النسوة يطفن ، أو يجلسن ، حوله . يلمسن الضريح ، فتنتقل

البركة إلى الأيدى . يمسحنه بالمناديل والثياب ، ويمسحن على رءوسهن ورءوس الأطفال ..

تشاغل بتأمل الأعمدة بقاعداتها الهائلة ، وتيجان البرونز ، والزخارف الجصّية الرقيقة ، والحافات المحلاة بآيات القرآن ، مكتوبة بالخط الكوفى ، والألوف من قطع الرخام الملونة ، المتعانقة فى تكوينات زخرفية ..

نودى لصلاة المغرب ، فاختفى الرجل . لايدرى إن كان قد انتظم فى الصفوف ، أم غادر الجامع ..

فز ، واتجه ــ بخطوات مهرولة ــ إلى حيث وقف أمين عزب ، تحت المنبر ..

قال فى ود :

ــ أين أنت ياعلى ؟

قال على الراكشى :

ــ موجود ..

استطرد :

ــ أصلى معظم الأوقات فى أبو العباس ..

قال أمين عزب :

ــ كما تعلم .. أنا أقضى يومى كله فى زاوية خطاب ..

ثم كالمتنبه :

ـ لماذا لاتأتى لزيارتى ؟..

ومد يده ، فصافحه ، ومضى ناحية الباب المطل على أضرحة الأئمة الإثنا عشر ..

لم يكن يملك وضع أمين عزب داخل إطار محدد ، ولاتأكد إن كان يميل إلى الخير بالفعل .. فهو يؤم المصلين فى زاوية خطاب ، ويلقى فيهم خطبة الجمعة . كان يحرص على جلسة العصر أمام دكان الحاج محمد صبرة الحلاق ، ودرس المغرب فى أبو العباس . ثم لزم زاوية خطاب ، ينصت إلى شكايات الناس ، ويحاول حلّها . ربما سعى لحل مشكلة فى قسم الجمرك ، أو داخل الميناء ، أو حلقة السمك ..

كان الناس يتحدثون عنه بالخير ، فهو متق فى نفسه . اشتغل بأنواع المجاهدات من الصلاة والصوم وقيام الليل وتلاوة القرآن وكثرة التسبيح . وكان على دراية بعلم القراءات ، وبطريقة الأداء والترتيل . حافظاً للقرآن الكريم ، فهو لايلحن ، ولايتلعثم ، وله صوت حسن . ينشد القصائد الإلهية وأناشيد التوحيد . وكان دائم التردد على مقابر

العامود ، يمضى الساعات داخلها . لايحادث أحداً ، ويغلبه انشغال بما لايفصح عنه . وربما ظل فى مكانه ، مستنداً إلى جدار حوش ، يعطى القراء والمتسولين ..

جعل من الإمام الشافعى مثلاً أعلى ، فهو يقسّم الليل ثلاثة أقسام : الثلث الأول للعلم ، والثانى للنوم ، والثالث للتهجد ..

قدم لمساجد الحى الكثير من النذور والهبات : سجاجيد وحصراً وأدوات نظافة وكتباً وذبائح وطعاماً . وكان يرتب لأسر فقيرة إعانات شهرية ، وتكفل برعاية عدد من أيتام الحى . قدم لهم مايحتاجون إليه من طعام وثياب ..

صار بيته ــ على ناصية شارعى اسماعيل صبرى ورأس التين ــ مقصد المحتاجين من أبناء بحرى . يلجأون إليه . يعوّلون عليه فى حل مشكلاتهم ..

من عاداته فى رمضان ، أنه يعد المآدب الطيبة فى زاوية خطاب . يدعو إليها الخدم فى جوامع أبو العباس وياقوت العرش والبوصيرى ونصر الدين وعلى تمراز ، وبعض المساجد القريبة ، الأخرى . تقتصر الدعوة عليهم . يأكلون الفتة باللحم . يتبعونها بالحلوى ، والمشروبات

الساخنة ، والباردة ، ويؤدون صلاتى المغرب والعشاء ، وصلاة التراويح . ربما قضوا الليل إلى السحور ، فى حوارات بلا خيط محدد يصلها . إنما هى وليدة اللحظة ، وعفو الخاطر ..

وحين وهب حذاء جديداً لسيد الفران ، قال له عبد الرحمن الصاوى ضاحكاً :

ــ هل فعلت هذا لكى تطيل عمرك ؟

وهو يدفع براحتيه أمامه ، كمن يتقى خطراً :

ــ أفعله حتى لاأسير حافياً فى الآخرة !

عرفت عنه أفعال الفتونة ، وإن أنكرها . ويذكر أهالى بحرى آخر معاركه ، لما طرد أجنبياً من قهوة الزردونى ، فلم يعد إلى الحى ثانية ..

أستاذه الشيخ عرفة الأنصارى ، إمام جامع ياقوت العرش حتى وفاته . كانت غرفته المطلة على ميدان الأئمة الإثنى عشر ، عامرة ــ دائماً ــ بدفاتر العلم ، ودواوين الكتب ، والسائلين فى العلم . لا يكاد يغادرها إلاّ إلى قيام الصلاة . يؤم المصلين ، ويعود . لايطيل الجلوس فى صحن الجامع إلاّ فى الوقت بين صلاتى المغرب والعشاء . يلقى

دروساً مماثلة لدروس الشيخ طه مسعود إمام أبو العباس ، وإن اختلفت نوعية الدروس ، ونوعية الأسئلة ، والأجوبة ، والمناقشات . قرأ القرآن على سبع روايات ، وقرأ الكتب على أربابها من مشايخ العلم . وقرأ علم النجوم ، وحفظ قصائد الشعراء منذ الجاهليين إلى حافظ وشوقى والجارم . واجتهد فى سائر العلوم ، حتى ذاع صيته خارج بحرى والإسكندرية . واستشهد بأقواله وعلمه ، أئمة ووعاظ فى مساجد كفر الدوار والدلنجات وحوش عيسى ودمنهور . روى الناس عن حياته وقائع كثيرة ، تدخل فى باب الكرامات والخوارق . وعرفوا عنه المقدرة الفائقة على المكاشفات ، والشطح . قيل إنه كان يستطيع أن يتشكل بأشكال البشر والحيوان والطير والحشرات ، وأشكال أخرى لم يرها أحد من قبل . ويستطيع أن يخترق الجدران ، ويخرج من حنفيات المياه ، ويسكن باطن الأرض ، ويشاهد الملائكة ــ بعينيه ــ ويشاهد أرواح الأنبياء ، ويسمع منهم أصواتاً لايسمعها سواه . قصد مجلسه الكثير من العلماء والزهاد وأهل الصلاح ، بلغهم صيته وعلمه ، وفدوا إليه من أحياء الإسكندرية ، ومن المدن والقرى المجاورة . يأخذون عنه ، ويستمعون إليه ،

ويلتمسون منه البركة والمدد ، ويتيمنون برأيه ، ويعرفون النجاح فى مشورته . أخص مالاحظه عليه مريدوه أنه يفهم مايدور فى نفوسهم . يفجؤهم بالسؤال عن خاطر يشغلهم ، أو كلمات يترددون فى نطقها . ملكهم ، وبرع فى صرفهم إلى الجهة التى يريدها ، وحملهم على تلبية أوامره بغير مناقشة ولامراجعة ولاتردد . وكان يدفعهم إلى قراءة ورد ، قال إن منشئه هو الشيخ أبو الحسن الشاذلى . يرددونه كل ليلة ، ويتلونه جماعة ، دون أن يتغيب عن تلاوته أحد . وكان يشدد على ضرورة حضور مجالس الورد ، لا يتغيب إلاّ لعذر قاهر . فإذا لم يقتنع الشيخ بسبب التغيب ، ربما طرد المريد من مجلسه ، فلا يعود إليه . له طريقته فى إلقاء الخطبة . يبدأ بالبسملة والصلاة على النبى ، بصوت هادئ ، ساكن القرار . ثم يعلو بصوته ، ويلوّنه ، فيرج صحن الجامع . إذا أخذته الجذبة ، خلع جبته ، وألقى عمامته ، وشق قميصه ، وراح يحرك جسمه فى ارتعاشات سريعة . كأنه يرقص ، وإن لم يكن مايفعله رقصاً حقيقياً . اعتاد الناس رؤيته وهو يسير فى الشوارع والأسواق ، مريدوه فى ركابه بالعشرات ، يهجرون أعمالهم التماساً لعلمه . إذا سار

فى الميدان ، أو فى الشوارع الجانبية ، تهافت عليه الناس ، وتكاثروا عليه ، وسدوا طريقه . يقبلون يده ، ويرجون منه الدعوات ، وربما اكتفوا بمسح أكفهم فى ثيابه ، ويستعيرون سبحته لعلاج الأمراض ، يلفونها حول رءوسهم أو بطونهم ، للشفاء من الصداع والصرع وآلام المعدة . لما استشعر من نفسه قلة الجهد ، والميل إلى التعب ، لزم بيته ، فلم يعد يغادره . وطالت مدة رقاده ، يعوده الأصدقاء والمريدون . اكتفى بتسلم راتبه ، دون النسبة المخصصة له من صندوق النذور . قال إن رعايته واجب وزارة الأوقاف ، لكن حصيلة صندوق النذور أولى بها الإمام الذى حل محله ، وخدم الجامع . ثم فاجأ أبناء الحى عندما قدم للوزارة طلباً بالاستعفاء . وتعددت الرسائل والعرائض إلى الوزارة ، ترفض قبول الطلب . لما طالت مدة المرض ، رأت الوزارة أنه من الأوفق أن يعفى من الإمامة ، ويثبّت الإمام المؤقت . زادت العرائض ، ترفض التغيير . وانتهى الشد والجذب حين استيقظ الرجل ذات صباح ، فطلب كوب ماء ، بلّ ريقه بقطرات منه ، ثم مات . تخاطف المصلون وضوءه ، فشربوا ، ورطّبوا وجوههم ، وتبركوا بلمس شفاههم للقُلّة

التى شرب منها ، وإن فرغ ماؤها . وروى أن عشرات الطيور ، ذات الألوان المختلفة ، رفرفت فوق جنازته ، منذ بدأت سيرها ـــ بعد أداء الصلاة على الجثمان فى جامع الشيخ إبراهيم ـــ إلى مقابر العامود ..

أخذ أمين عزب على نفسه عهداً ـــ بعد وفاة الشيخ عرفة الأنصارى ـــ أن يأخذ نفسه بسيرته ، ويحفظ أحكامه ورسائله ، ويخاطب الناس بتواضع ، اعتادوا من الشيخ أن يخاطبهم به ..

لم يجلس للوعظ والتفسير ، إلاّ بعد أن حفظ القرآن والحديث ، ودرس الفقه والأصول ، وماكتبه شرّاح الأئمة الأربعة . عنى بمختلف العلوم الإنسانية على منهج الكتاب والسنة . قرأ تاريخ الصحابة والتابعين وتابعى التابعين والأئمة الأربعة ، وغيرهم من أئمة السلف ، والمحدثين . تكاملت معارفه فى علوم الشريعة والطريقة والحقيقة . أجاد تعلم آفات النفوس ، وأمراضها ، وأدواءها . وتوصل إلى الكثير مما يفيد الناس ، ويصلح أحوالهم . وقيل إنه صنّف كتباً كثيرة ، وإن لم يحاول طباعتها . قصر قراءة أصولها

على المقربين من أصدقائه ، يفيدون مما بها ، ويناقشونه فيه ..

اختار زاوية خطاب فى أول المسافرخانة . يؤم فيها المصلين احتساباً . يقضى غالب وقته داخل الزاوية . يفتى بما غمض على المصلين من أمور دينهم ، ويقضى فى شئون دنياهم ، يشرح لهم حقيقة التوحيد والتنزيه ، ومعانى آيات القرآن والطاعات والمعاصى والنية والقضاء والقدر والموت والقيامة والحساب والميزان ، يروى لهم سير الرسول والصحابة والتابعين ..

لم تقتصر دروسه على زاوية خطاب . صحب المترددين عليه إلى سراى رأس التين . يتحلقون حوله فى الحديقة الواسعة ، كحدوة حصان هائلة . يسألون ويجيب ، يناقشهم فيما قد يغمض عليهم . حتى ماكانوا يخفونه داخل حجرات النوم ، اعتادوا مصارحته به ، وطلب النصيحة ..

أفتى للولد سمير بجواز الاستمناء لضرورة . ضبط خميس شعبان ابنه وهو مشغول باستحلاب اللذة . أشفق الرجل لهيئة الفزع فى وجه الولد ..

قال سمير فى خوف :

ـــ الشيخ أمين عزب أذن لى ..

هتف خميس شعبان :

ـــ إنها مضيعة للدين والصحة ..

وهو يخفى نفسه براحتيه :

ـــ أقسم أنه أذن لى ..

رزع باب الحمام فى وجه الولد :

ـــ سيرافقك فى النار بإذن الله !

قال أمين عزب للولد :

ـــ أبوك يخاف عليك ..

ـــ طلبت نصيحتك ، فأذنت لى ..

ضحك أمين عزب ، فظهر التسوس فى أضراسه :

ـــ أفتيت بالضرورة ، وليس بهد الحيل ..

وتأمل الولد :

ـــ لماذا لاتطلب من أبيك أن يزوجك ؟

ـــ أنا أعمل فى ورش البلانسات لأصرف على نفسى ..

ـــ فلماذا لاتتزوج ؟

خرجت الكلمات مبحوحة :

ــ مأحصل عليه يكفى بالكاد للمساعدة فى البيت ..

وهو يحيطه بنظرة مشفقة :

ــ تزوج .. وأقم مع أسرتك ..

قال الولد بلهفة :

ــ أبى من أصدقائك .. فلماذا لاتكلمه ؟..

***

لا يذكر إن كان الشيخ قد بدأ الكلام ، أم أنه هو الذى بدأ . لكن الرجل عقب على ملاحظات أبداها . أجاب على أسئلة شغلته . بدا ودوداً ، طيباً ، فاطمأن اليه . شرق الحديث وغرب . تلاصق كتفاهما فى الصلاة ، وتصافحا ، وهمسا بالقول : تقبل الله !

غادرا الجامع معاً . تصافحا فى أول الطريق إلى السيالة ، وافترقا ..

تعددت ــ فيما بعد ــ لقاءاتهما ، داخل الجامع . شده إليه الطيبة ، والزهد ، والتقيد بمظاهر الكتاب والسنة . اعترف له بكل مايثقل ضميره ، وينغص عليه أيامه . يفترقان أسفل درجات السلم . يمضى الشيخ ناحية جامع ياقوت العرش ..

ناقش تردده فى أى الأماكن يذهب إليها : قهوة الزردونى ، أم شاطئ الكورنيش ، أم يشارك فى حلقات الذكر ؟..

روى للشيخ ــ فى ضيقه ــ عن قسوة الحاج قنديل . لجأ إلى الشيخ طه مسعود . عاب عليه الإمام استغاثته . قال : إن الاستغاثة لاتكون إلاّ بالله تعالى . وتساءل فى عجب : هل يستغيث المخلوق بالمخلوق ؟.. هل يستغيث الغريق بالغريق ؟..

قال على الراكشى :

ــ إنه يجعل لك خاطراً .. فكلمه !

قال الإمام :

ــ كلمته .. فعاب عليك تكاسلك ..

ــ اجمعنى به .. وكن ثالثنا ..

وهو يعبر بيديه عن قلة الحيلة :

ــ لو أنى أنفقت وقتى فى التوفيق بين الناس .. فلن أجد وقتاً لإمامة المصلين !..

تسلل وراء عباس الخوالقة فى صعوده ــ آخر الليل ــ إلى شقته . نزل بكلمات الرجل المواسية ، واعتذاره بأنه

يشق عليه إتاحة العمل فى بلانساته ، لمن أشاح الحاج قنديل في وجوههم بيده ..

مشايخ الصيادين سبعة . يحيا الحاج قنديل وعباس الخوالقة فى بحرى . يجلسان فى الحلقة . يشرفان على كل رحلة ، منذ الإعداد لها ، حتى العودة : السلف ، والتموين ، والفصال ، والبيع . الصبيان للخدمة ، والموظفون لتسجيل الحسابات ..

شكلت الحلقة جزءاً من تجارة المعلمين الآخرين . تركوا العمل فيها للموظفين ، لايترددون على بحرى إلاّ لضرورة ، لإنهاء خلاف مع مصلحة المصايد ، أو مع السواحل ، أو للاطمئنان على بلانس غيّبه البحر ، أو لإنزال بلانس جديد ، تم بناؤه فى ورش المراكب

قال الرجل فى لهجته المواسية :

ــ هذه أصول المهنة يا على .. من يترك معلماً ، لايعمل عند الآخرين ؟..

قال الشيخ :

ــ اسمى يوسف بدوى .. ما اسمك ؟

فى لهفة :

ــ على .. على الراكشى ..

مال الشيخ برأسه على صدره ، وأغمض عينيه . بدا أنه أطال التفكير حين رفع رأسه ، وقال فى كلمات واضحة النبرات :

ــ ياعلى .. إن الله إذا أحب عبداً ، ابتلاه ..

وتهدج صوته بصدق مشاعره :

ــ هذا البلاء فيه تكفير لذنوب سبقت منك ..

واحتضنه بنظرة مشفقة :

ــ عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ..

وقال :

ــ قد يهبك الله ماتشتهيه نفسك ، فيمنعك عن الأنس بحضرته ..

ثم وهو يهز إصبعه محذراً :

ــ أنت تعانى الموت الأحمر ..

أردف لنظرته المتسائلة :

ــ إنه احتمال أذى الناس ..

ووضع يده ــ بود ــ على كتفه :

ـــ العبد الراضى هو الذى يسر للمصيبة كما يسر للنعمة ..

وفاضت عيناه بما احتوى الراكشى :

ـــ على العبد أن يستسلم لحكم الله تعالى فيما قضاه ، حتى يحدث الله بعد ذلك أمراً ..

وقال :

ـــ بادر إلى الله .. لايشغلك عنه خير أو شر . إنه ملجأك وملاذك ..

وسأله :

ـــ أيهما أحب إليك : أن يرضى عنك شيخ الصيادين ، أم تأنس بحضرة الله ؟..

وأطال النظر إليه ، كأنه يتأكد من فهمه :

ـــ إن حل بك اليأس ، وتغلب عليك الطريق ، فقد خسرت !..

* * *

توالت الأسئلة ، وتفجرت الأمانى والأشواق ، وامتلأ القلب بالوجد ، واستشرفت النظرات آفاقاً لانهائية من الأحوال الغريبة ، والمكاشفات التى لاتخطر ببال .

متى يأذن اللـــــه ؟

يا من تحــل بذكــره عقــد النوائب والشدائــد

يا مــن إليه الملتجى وإليــه أمــر الخلق عائــد

ياحى ياقيــوم يا حمــد تنــزه عــن فوائــد

أنت العليــم بما بليت وأنت عليــه شاهــد

أنت الرقيب على العبــاد وأنت فى الملكوت واحد

فرج بفضلك كربتى .. يا من له حسن العوائــد

***

قال رجل لأبو الحسن : مالى أرى الناس يعظمونك ، ولم أر لك كبير عمل ؟.. قال الشاذلى : بسنة واحدة افترضها الله على رسوله تمسكت بها . قال : وماهى ؟. قال الشاذلى : الإعراض عنكم ، وعن دنياكم !

***

الباب الخشبى الكبير ، يفضى إلى فناء فسيح . على جانبيه غرف ، أبوابها بضلفة واحدة . وتتناثر فى الزوايا

مشنات السمك وقطع الفلين والأسفنج وهياكل القوارب القديمة . وعلقت ـــ فى السقف ـــ شباك الصيد ..

فى نهاية الفناء ، نقر ـــ بتأدب ـــ على باب الحجرة المغلقة ..

ظهرت الحجرة – فى ضوء اللمبة الخافت : سرير صغير ، وثلاثة مقاعد ، وترابيزة عليها كتب وأوراق ، ومرآة ، وإناء للشرب ، وأدوات لعمل الشاى ، ووابور بريموس . وافترشت الأرض ـــ أمام السرير ـــ حصيرة متآكلة ..

قال الشيخ يوسف بدوى بلهجة معتذرة :

ـــ هذا أهون من السكنى مع آخرين ..

أضاف للدهشة فى عينيه :

ـــ المفروض أن هذه غرفة مفروشة !..

كان قد سبقه آخرون . جلسوا على طرف السرير ، وعلى مقعدين من الثلاثة ، وتركوا له مقعداً فى مواجهة الباب . أعمارهم لاتجاوز العشرين . قدمه إليهم ، وقدمهم إليه . شغله الحرج عن تذكر الأسماء ، وإن عرف أنهم عمال شحن فى الميناء ، وطالب فى المعهد الدينى

قال الشيخ :

ــ عليك بالمراقبة والمشاهدة والمعرفة ..

ألف التردد على بيت الرجل ، عقب صلاة العشاء ، كل يوم خميس . يزيد عدد الجالسين ، فيبلغ أربعة . ينقص ، فيبلغ ثلاثة . يصعب ــ لضيق الغرفة ــ أن تسع المزيد . أباح لهم مجلسه ، يقرأ عليهم ، ويناقشهم ، ويجيب عن أسئلتهم ..

حرص ــ بتوجيه الشيخ ــ على اتباع الطاعات ، وأداء الفرائض والسنن ، وركعتى الضحى ، وبعد كل وضوء ركعتين . وشغل وقته بالتهجد ، وتلاوة القرآن ، وقراءة الأوراد ، والذكر ، ومجاهدة النفس ، والاشتغال بالله ، وترك ماسواه ، والجلوس إلى الشيخ ، يسأله فيما يغمض عليه من أمور العبادات . ربما مضى إلى بيت الشيخ ــ فى غير موعد ــ إذا أشكل عليه شىء . يكلمه فيما يعانيه ، أو يشغله . ينصت الشيخ باهتمام ، يناقشه ، يرد على أسئلته ، يأمره ، ينهاه ، يشير عليه بما ينبغى اتباعه ..

لاحظ تأثره مما يتعبه فى الحلقة . همس فى لهجة مترفقة :

ـــ قال بعض العارفين : كلما سقطت من عين الخلق ، عَظُمْتَ فى عين الحق ..

وقال :

ـــ اقض حوائجك بالزهد فيها ، والاشتغال بالله عنها . وقال : قل الله الله فى كل أوقاتك . لايشغلك أمرمن أمور الدنيا عن هذا الذكر ، حتى لو كان موت أبويك . وقال : الدنيا والآخرة ضرتان .. متى أرضيت إحداهما ، أسخطت الأخرى . وقال : حب الله وحب الدنيا لايجتمعان . وقال : كل ماينزل بك من هذه الأمور نعم كبيرة . وكان أشد الناس بلاء هم الأنبياء . وقال : إن لم تنل حقك فى الدنيا ، فهو محفوظ فى السماء . وقال : ليست الطهارة مجرد غسل الظاهر ، دون تطهير الباطن . وقال له بعد أيام : طهّر باطن الجوارح من المعاصى والآثام ..

فلما قدم عليه ذات مساء ، قال الشيخ :

ـــ طهر القلب من الأخلاق المذمومة ..

ثم وهو يهز أصبعه فى تأكيد :

ـــ هذه درجة أخرى ، مطلوبة ..

* * *

مضت أسابيع ، ازداد فيها تقربه إلى الشيخ يوسف بدوى . سأل ، وناقش ، واستفسر ، وتعلم معارف كانت غائبة عنه ..

ثم قال له الشيخ :

ــ عليك بدرجة خواص الخواص .. طهر السر عن كل شئ ، سوى الله !

عرف أن التطهير بداية الطريق إلى الله . بداية المجاهدات ، والمقامات ، والأحوال ، ومعرفة الله سبحانه . تطهير الباطن من القبائح ، يلحق المرء بالأئمة والأوتاد والأبدال والنقباء والنجباء والحواريين والرجبيين . السالك هو السائر إلى الله ، المتوسط بين المريد والمنتهى مادام فى السير ..

وقال له الشيخ فى جلسة تالية :

ــ عندما تستقبل القبلة ، اصرف همك عن كل شئ ، لتتوجه إلى الله..

وقال :

ـــ حين تنوى الصلاة ، فأنت تعنى عزمك على الامتثال لله ، والكف عن المعاصى . وحين تكبّر ، فإن ذلك معناه الأّ يكون فى قلبك شئ أكبر من الله ..

تعلم أول آداب الحضور مع الله ، وبين يديه : الإسلام له ، والرضا بحكمه ، وعدم الضيق به ، وعدم الرغبة فى تغيير مافيه الإنسان من وضع ، وأن يملك نفسه من الفضول والغيبة والنميمة والكذب ، وألاّ يرى لأحد فى قلبه حسداً ولاعداوة ، وأن يفارق إخوان السوء ، وصحبة المعصية ، ويكون مستعداً للموت ، مستغفراً من ذنوبه ، مجتهداً فى طاعة الله ..

قل تردده على القهاوى . قد يلمحه قاسم الغريانى ، أو حمودة هلول ، أو خميس شعبان ، فى طريقه من الحلقة إلى أبو العباس . يدعوه ، فيلبى الدعوة . لايفطن إلى جزيرته المنعزلة ، وسط نداءات المشاريب ، وصيحات لعب الكوتشينة والطاولة . يستعيد كلمات الشيخ يوسف بدوى فى الليالى السابقة ، ومايعتزم سؤاله عنه هذه الليلة . يتظاهر بالإنصات والمتابعة . لايتحدث عما يشغله . هو انشغاله الشخصى ، لاشأن للآخرين به ..

زار الشيخ فى زاوية الأعرج ..

غالب تردده :

ــ من هو الأعرج صاحب الزاوية ؟..

قال يوسف بدوى :

ــ كما أعلم ، فإنه الولى الجليل عبد الرحمن بن هرمز..

ــ ومسجده بشارع رأس التين ؟

ــ المسجد به ضريح الشيخ .. أما الزاوية فكما ترى ، ليس بها ضريح ..

لاحظ أنه يقوم بكل العمل : يؤذن للصلاة ، يقرأ القرآن ، يؤم المصلين ، يقضى أوقات مابين الصلوات فى الجلوس إلى مريديه . إذا غاب عن الزاوية ، فلصلاة العشاء فى أبو العباس ، قبل أن يمضى إلى بيته ، فى شارع ابن وقيع . يمضى بقية الليل فى استقبال المريدين ، أو تلاوة القرآن ، وقراءة الأحاديث . ربما غاب ــ لساعات ــ عن نفسه ، فيظل صامتاً ، لايتكلم . ولم يكن يسأل مريديه عن أحوالهم ، وإنما يحدثهم عما يفاجأون بأنه يعرفه ، وينصح ، ويوجه ..

كان يعرف مواعيد الصلاة ، دون رجوع إلى ساعة ، أو سؤال . ينهض دون أن ينظر إلى شئ ، ودون سؤال . يتجه إلى الميكروفون فى الجانب الغربى من الزاوية . يؤذن للصلاة فى موعدها . لايؤخر لحظة ، ولايقدم لحظة . ينشد ـــ قبل أن يؤذن للفجر ـــ ألواناً من التراتيل والدعوات والابتهالات والتسابيح ، يمهد بها للأذان ، ويعد الناس أنفسهم للصلاة ..

كان الشيخ ـــ إذا التقى بإمام أبو العباس ـــ يظهر الود والاحترام ، يطيل السلام والحديث ، يكثر من عبارات التفخيم .. لكنه يتجنب مجالس الإمام ، لايشارك فيها . إذا دخل الجامع ، اكتفى بإلقاء السلام ـــ إن كانت حلقة الإمام قائمة ـــ وسعى إلى قرب المنبر ، فانتظر الصلاة . يؤديها ، وينصرف . ربما استوقفه أحد تلاميذه ، ممن فتح لهم باب قلبه ، وبيته . يمضى معه إلى خارج الجامع ، يستأنفان حديثهما فى الطريق ..

قر عزمه على أن يتأدب بالشيخ . يتلقى منه ، يتربى على يديه . أيقن أنه لاأحد من كل المشايخ الذين جلسه إليهم فى جوامع الحى ، أجدر من يوسف بدوى للانتفاع بعلمه .

حتى أمين عزب نقل إليه ماقاله الحاج قنديل ، ثم نفض يده من الأمر . يتدخل بما لايؤثر فى صداقاته ، ولامكانته ..

استولت عليه سلطنة محبة الشيخ . صار الشيخ حياته . وجد عنده التعاطف ، والمشاركة ، والعناية ، والأمن ، والسكينة . تلقى أسرار العلوم والمعارف والإفهام : قال الشيخ ، زرت الشيخ فى بيته ، للشيخ رأى فى هذه المسألة ، نلتقى فى مجلس الشيخ ، ثلاثة أيام غاب فيها الشيخ عن أبو العباس .. كأنه يعرف الشيخ من قبل البدء ، ويعرفه إلى مابعد الختام . يطوف بباله وهو يختار أنسب المواقع لصيد الطير ، يحصل على شروة من الحلقة ، يفاصل زبائن فى خط الرمل ، يضاجع أم الأولاد ، يتلو القرآن ، ويطالع كتب الحديث والفقه والتفسير والسير . يكتفى ــ عكس ما كان ــ بالتطلع إلى القهوة ، ويواصل السير إلى بيت الشيخ ، أو إلى بيته ..

سأل نفسه ، وهو يغادر بيت الشيخ ، ليلة :

ــ إن لم تكن الجنة لهذا الرجل .. فلمن تكون ؟!

* * *

كان يحرص على التأدب فى مجلس الشيخ . لايتكلم بين يديه إلاّ فى الضرورة ، ولايقاطع كلامه . حتى لو رأى فى الكلام مايدعو للمناقشة ، كتم الأمر فى نفسه ، لايبدى معارضة ، أو ملاحظة ، أو يلقى سؤالاً يضمرعدم الموافقة . سار إلى الله فى منازل النفوس ، يحمل زاد التقوى والطاعة..

بدا له الشيخ جاداً فى طلب الحق ، معرضاً عن الأنس بالحق ، مستغرقاً فى حب الله وخدمته . غلب عليه التوكل والسياحة والفتوة والزهد والتبتل والأفعال الظاهرة المحمودة . لاحظ تقشفه فى لباسه ، وتذلله فى نفسه ، وزهده فى الحياة ، والإعراض عن مباهجها ، والميل عن مطالب النفس ، وشهوات الجسد ، ونزعات الأرض . عصمه الله عن المخالفات ، وعن المعاصى والوساوس والهواجس والتعلق بالأغيار . يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ويؤثر الخلوة على الاجتماع ، والصمت على الكلام ، والصيام على الشبع . اعتاد السهر ، والصمت ، واعتزال الناس ، وإخماص البطن ..

قال زكى تعلب ، الطالب بالمعهد الدينى ، والشيخ فى خلوة :

ــ هو مثل الترسة .. يستطيع أن يحيا أسبوعاً وأكثر بلا طعام يدخل جوفه !

ألفوا أحواله . يباسطهم ، أو يرفض التحدث إليهم ، أو لايحتمل وجودهم . يحصل له انجذاب إلهى ، يغيب عمن حوله وعما حوله . يفيق فيجد مريديه يحتضنونه بنظرات مشفقة ..

يحيا فى عالم غير العالم . يخالط الآخرين ، يناقشهم ، يستمع إليهم ، ويجيب عن أسئلتهم ، لكنه ينطوى على مجاهداته وأشواقه ، يتبعها إلى حيث تقوده . حفظ علوم الطريقة ، أشرف العلوم وأنورها . زواهر الأنباء ، وزواهرالعلوم ، وزواهر الوصل . استوى عنده الرجاء ، والخوف ، والضعف ، والبسط ، والقبض ، والمدح ، والذم . سقط عنده اعتبار الناس ، فلا يرى منهم ضراً ولانفعاً . وكان يراعى أنفاسه فى دخولها وخروجها . وكان يقول : أخاف إن وضعت فى القبر ، وسألنى منكر ونكير ، هل أقدر على جوابهما ؟. لزم داره . لايراه إلاّ من يتردد عليه فى

الزاوية ، أو فى البيت ، ولايخرج إلى أبو العباس إلاّ لصلاة العشاء ، أو صلاة الجمعة . يحرص على أداء الصلاة فى أوقاتها ، هى كمال القرب والمواصلة الحقيقية . يختار الصفوف الأخيرة ، القريبة من الباب الملكى . تنتهى الصلاة ، فينفذ إلى الميدان ، ومنه إلى شارع ابن وقيع . يدخل بيته . يتأكد من إغلاق الرتاج . لايفتح الباب إلاّ إذا استخدم أحد زواره السقاطة ، وأعلن اسمه . كان يعرف أسماء من يدخلون عليه ، وما يزمعون التحدث فيه ، لايسألهم ، وإنما يلجأ إلى بصيرته وإدراكه . وكان يحفظ الكثير من أسماء أهل الحقائق والأصفياء والأولياء وأقوالهم وصفاتهم وبركاتهم ومكاشفاتهم ، يذكرها عفو الخاطر ، لايرجع إلى كتاب ولايجهد ذاكرته ..

لم يستطع ــ لضيق الشقة ــ أن يجعل لنفسه خلوة ، وإن أكثر من الطلوع إلى سطح البيت . يتأمل السماء والقباب والمآذن ونهايات الأفق فى الميناء الشرقية ..

بدا لمريديه أنه يأوى إلى علمه ودينه ، فلا أهل ولا مال ظاهر ولامهنة أو وظيفة يتكسب منها . حتى زاوية الأعرج لايتقاضى مقابلاً لإمامته فيها . لم يتحدث عن بلده ، ولم

يظهر فى بيته زوجة ولاأبناء ، ولا تردد عليه أقارب أو زوار من غير المريدين . ظل الكثير من جوانب حياته فى منطقة الظل . لا يعرفها أحد ، ولا يحاول هو كشفها ، أو حتى الإشارة إليها . كأنه يتعمد أن يكون غامضاً ، وأن تكثر من حوله الأسئلة التى لا تجد أجوبة من أى نوع ..

قيل إنه ينفق من إيراد بيت قديم ، فى قبو الملاح ، ورثه عن أبيه ، الذى ورثه عن جده . وقيل إنه من مواليد عزبة خورشيد . له فيها سبعة أفدنة ، نصيبه من إرث أبيه ، يحيا على ريعها . تنقل بين المدن والموالد والمشايخ والنقباء والقراءات وحلقات الذكر ، حتى استقر به المقام فى الطريقة الشاذلية ، فى المرسى أبو العباس والبوصيرى وياقوت العرش ، والأولياء الكثيرين ، يشغى بهم الحى ، فتختلف صورته عن بقية الأحياء ..

عرف عنه أنه لا يأكل إلاّ الفاكهة والنباتات . قال له شبيروا الجزار ، يوماً : إنى أدعو الله أن يقلدك الناس فى كل شئ ، ماعدا رفض أكل اللحم ، فهذا سيخرب بيتى !..

وكان يهمس باعتزازه أنه لم يغتسل عن جنابة . لم يحتلم ، ولم يتزوج . شغلته عبادة الله عن كل ما عداها ..

مع أنه كان يحفظ آيات القرآن ، لا ينسى ولا يخطئ أو يلحن ، فإنه كان يلتزم التلاوة فى المصحف . وكان يطيل الصلاة . ليست مجرد حركات وسكنات ، قيام وقعود ، تلاوة أقوال محددة ، وآيات . إنما هى وقفة بين يدى الله . ورويت حكايات عن تزوده بأدوات وقدرات خارقة ، مؤيداً بقوى عليا تعينه ، وتساعده ..

لم يحدث مريديه عمن أخذ العهد ، وإن روى أنه أخذ العهد على سيدنا أبو الحسن الشاذلى فى المنام ، أهمل من بعد ذلك دنياه ، وانشغل بالآخرة . وقيل إنه أخذ العهد على السلطان فى قبره . علا صوت ابو العباس من داخل القبر بعبارات ، رددها الرجل . ثم قرأ البسملة ، وقل هو الله أحد ، وآية الكرسى . أصبح ــ من يومها ــ كما أراد لنفسه . جعل من السلطان معراجه وسلمه إلى دنيا التصوف . استمد سره منه ، واستلهمه الولاية ، واستعان به على تبدل حياته . لزم الخلوة ، لا يتردد على الجامع إلاّ لأداء صلاة العشاء ، وقراءة الفاتحة للسلطان . تعرف ــ بين المصلين ــ إلى من توسم فيه صلاحية الريادة ، فدعاه إلى بيته ..

لم يبدأ فى إرشاد مريديه ، وسلوك طريق الحق بهم ، إلاّ بعد أن عرف المخاوف والمهالك والحدود . درس الفقه والكلام والأصول على أيدى أساتذة المعهد الدينى بالمسافرخانة ، وإن لم يلتحق ــ ذات يوم ــ بالدراسة المنتظمة . اقتصر فراغ وقته ــ أو كاد ــ على تلاوة القرآن ، ودراسته ، ودراسة الحديث والفقه ، وحضور مجالس الوعظ وحلقات الذكر . أحكم معرفة آيات القرآن ، ناسخه ومنسوخه ، محكمه ومتشابهه ، مكيه ومدنيه ، وفهم تفسيره . وعرف الروايات والأصول . حفظ الأسماء السبعة الأول ، فصول الأسماء كلها : الحى ، العالم ، المريد ، القادر ، السميع ، البصير ، المتكلم . حفظ الكثير من الأحاديث الشريفة ، والأدعية النبوية ، والسير المضيئة ، وأدعية الصحابة والتابعين والأولياء والصالحين ، والأذكار الشرعية على اختلاف مراتبها ، وأوراد وأحزاب أهل الله . وتفقه فى قواعد أهل السنة ومشايخ الصوفية الرافضة والجهمية والشيعة والمعتزلة والقدرية والمشبهة . عرف الاختلافات فى أسس العقيدة والتوحيد . وتعلم الصرف والنحو والمعانى والبيان والعروض والمنطق والحساب فى حدود المسائل

الشرعية . ثم نذر نفسه لدل السالكين على سبيل العروج إلى الخالق ، وإرشاد التائبين التائهين إلى منارات طريق الآخرة . ينصح بمجاهدات ورياضات وأوراد وأذكار وأعمال ، تزكى نفسه ، تطهرها من أدرانها . يسأل المريدون ويجيب ، يقرءون القرآن ، يفسر لهم الشيخ آياته ، يستنبط منها الأحكام . يروى لهم أحاديث الرسول ، ومآثر آل البيت ، وقصص الصحابة والأولياء والتابعين . تقتصر أحاديثه فى الدين ، لا يجاوزها إلى أحاديث أخرى . لايتكلم إلاّ همساً ، لغلبة تجلى الفيوض الإلهية فى أحواله ، والغالب على طبعه البسط والتبسم ولين الجانب والشفقة . يعروه صمت ، فيعرف مريدوه أنه يتأمل فى الله وصنعته . ربما فز من مجلسه ، وكبّر للصلاة دون موعد . يثق المريدون أن ما فعله هو بعض سر الصلة بينه وبين الملكوت الإلهى . إذا رفع رأسه من السجود ، بدت الدموع على الأرض موضع الرأس ، كأنها البركة الصغيرة . يلجأ إلى غرفته ، أحياناً . يطفئ النور ، ويحكم إغلاق الباب والنافذة . لا يأذن بتسلل ضوء القمر ، أو الأنوار الباهتة من الحارة الخلفية . يلزم المريدون أماكنهم فى الخارج . تصل إليهم كلماته المتسائلة ، والآمرة ،

فيعرفون أنه قد خلا فى حجرته المظلمة إلى قوى لا يعرفونها . يناقشها ، ويصدر إليها أوامره ..

اتسعت دائرة تلاميذه ومريديه . قصده فى زاوية الأعرج خلق كثيرون من أهل بحرى والأحياء المجاورة . غالبيتهم من الصيادين والعمال والباعة السريحة وأصحاب الحرف . من يترددون فى إلقاء الأسئلة بمجلس الشيخ طه مسعود إمام أبو العباس ، أو أن الإمام يهمل الإجابة على أسئلتهم . لا يختار لنفسه موضع الصدارة . يجلس حيث ينتهى به المكان . وندواته ــ فى الأغلب ــ على صورة حلقة . يحرص أن يخدم زائريه ، أصدقاءه ومريديه وتلاميذه . يتصاغر لما يفد على ألسنتهم من آراء تقد عفو الخاطر . لا يبدى تأففاً ، ولا يرفض الإجابة ، إن تضمنت الكلمات سؤالاً ، ويتواضع باشاً فى وجوه محدثيه . لا يشتط به الغضب ، ولا يعلو صوته بعبارة محذرة ، وإن لم يكن يأذن لمريد أن يبصق فى مجلسه ، أو يدخن سيجارة ، أو يضع رجلاً على رجل ، أو يجلس فى وضع اللامبالاة ..

أضاء نفوسهم بكلماته . له آراؤه فى الحقيقة المحمدية ، وأهل البيت ، والأولياء ، والمعجزات ، والكرامات ،

والاستغاثة ، والزيارة الشرعية ، وفى علم الكلام ، وآراء الفلاسفة ، وشطحات الصوفية ، واجتهادات الطوائف والفرق ..

اشتهر بمعرفته بالأصول والفروع والعربية واللغة والتفسير والقراءات ، وبتفوقه فى علم الحديث ، سواء فى التاريخ ، أو فى الإسناد والنسخ والتصحيح والضبط ، وفى حفظ الألقاب والأسماء والكنى ..

تركزت كلماته فى الدعوة إلى الزهد ومخالفة النفس والندم والاستغفار ، والعمل بآيات القرآن ، والاقتداء بسنة الرسول ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق ..

تحدث عن الإخلاص ، والصدق ، والتوكل ، والزهد ، والورع ، والرضا ، والتسليم ، والمحبة ، والفناء ، والبقاء ، والذات ، والصفات ، والقدرة ، والحكمة ، والروحانية ، والبشرية ، ومعرفة حقيقة الحال ، ومقامات أهل الولاية ..

دعا إلى التخلص من معايب الدنيا : الحسد ، والكبر ، وحب الجاه ، والسيطرة ، والرغبة فى الرئاسة ، وهم الرزق ، وخوف الفقر ، وخوف القلب من الثقة فى الله وعطاياه

وقسمته للأرزاق ، وخوف انخفاض المنزلة عند الناس ، والشح ، والبخل ، وطول الأمل فى قادم الأيام ، والغل ، والغش ، والمباهاة ، والتفاخر ، والمداهنة ، والطيش ، وضيق الصدر ، والخوض فيما لايعنى ..

كان يتروى . لاينطق بالرأى إلاّ قبل أن يتدبره . ويختار الكلمات التى تعبر عن المعنى جيداً ..

لم يبالغ فى شروطه كمشايخ آخرين ، فيأخذ على مريده ألاَّ يبقى له تصرف فى ماله ولازوجته ولانفسه ، إنما التصرف كله للشيخ . تحددت شروطه ــ لايجاوزها المريد ــ فى الفرائض والسنن والأوراد والأحزاب والطهارة ..

ــ ليس شيخك من سمعت منه .. إنما هو من أخذت عنه .. فهل اكتفيت بالسماع من إمام أبو العباس ، أو أخذت عنه ماقاله ؟..

قال زكى تعلب :

ــ لم أجد فيما قاله مايغرينى بأخذه ..

قال الشيخ :

ــ إذن .. هو ليس شيخك ..

ثم وهو يضغط على الكلمات :

ــ شيخنا يتحدث عن المبصرات . ونحن فى حاجة إلى أحاديث البصائر ..

وخالط صوته تأثر :

ــ شيخنا يقول للناس ما يحبون أن يسمعوه ..

وجال بعينيه فى الملتفين حوله :

ــ أنا أفضل أن يعرفوا ما تفيدهم معرفته ..

قال زكى تعلب :

ــ إنه يظن أن الله يسكن جبته !..

أظهر الضيق :

ــ مولانا عالم جليل .. لاأحب أن نتحدث عنه بتحقير ..

وقال لعلى الراكشى ، وهو يودعه ، ليلة :

ــ الحقيقة مثل اللؤلؤ .. وهو لايوجد إلاّ فى البحر . ولن تصل إلى ذلك البحر إلاّ بالسفينة .. والسفينة اسمها التصوف ..

وقال له فى ليلة تالية :

ــ التصوف مراقبة الأحوال ولزوم الأدب ..

وفاجأه ــ ليلة ــ بالسؤال :

ـــ ألست مسلما ؟

قال الراكشى :

ـــ طبعاً ..

قال يوسف بدوى :

ـــ التصوف من الإسلام كأنه الروح من الجسد . اتبع شيخك يصح إيمانك ..

ثم فى لهجة مشجعة :

ـــ إذا ترقيت فى مقامات الإيمان .. فستصل بعون الله إلى مقام الإحسان ، فتعبد الله كأنك تراه ..

قال الراكشى :

ـــ وهل هذا آخر المقامات ؟

ـــ إنه مقام العارفين ، الواصلين ، المكرمين بأنوار الله وأسراره ..

مع أنه أفاد من دروس إمام أبو العباس ، استوعب منها ماستطاع ، فإن كلمات الشيخ قادته إلى دنيا مغايرة من القراءات والأدعية والغوامض والأسرار . كشف له عن تلقى العلوم الإلهية . علمه ماينبغى أن يكون عليه المتلقى من الإستعدادات وأداب الأخذ والعطاء ، والقبض والبسط . عالم

لم تطأه قدماه من قبل . يحفل بالنورانية والرؤى والصفاء والأغنيات الجميلة ، الغائبة المصدر ..

لما اطمأن إلى إخلاص انتباهه ، قال :

ـــ قبل أن تواصل سيرك فى الطريق .. عليك أن تطمئن إلى علمك أولاً !

استطرد موضحاً :

ـــ العلم هو أول مافرضه الله على عباده ..

* * *

دفع إليه ، وهو يودعه ـــ ذات مساء ـــ بمظروف كبير الحجم :

ـــ هذه الأوراق .. أتركها عندك وديعة ..

غلبته الدهشة :

ـــ لماذا ؟

ـــ اقرأ مابها .. ثم أعدها ..

أظهر القلق :

ـــ لست متعلماً بما يكفى ..

حدجه بنظرة مترفقة :

ـــ قلت إنك تعلمت إلى الابتدائية ..

ثم وهو يربت كتفه :

ــ مايصعب عليك فهمه .. سلنى عنه !.

رأى الحاج قنديل ــ فى الليلة نفسها ــ يغادر نقطة الأنفوشى ..

تبعه ..

أعد فى فمه كلمات الاعتذار والمصالحة . أسرع فى خطواته ، بحيث إذا نادى على الحاج سمعه ، لكن قدميه أبطأتا ، حتى مضى الحاج فى قلب السيالة .

حقيقة ماجرى للصيـــاد جمعة العدوى

الموت على رقاب العباد . لكن الزميل الحبيب جمعة العدوى ـــ فى الحقيقة ـــ لم يمت . وكان من الصعب إنقاذه من الأيدى التى احتضنته ، وغابت به داخل البحر .. ورأيناها ..

لذلك تفاصيل كثيرة ..

صورة لما يجرى فى بداية كل رحلة :

الجد السخاوى يصعد إلى البلانس أولاً . هكذا تقضى الأصول . عجوز ، يهمل قص أظافره ، أو مداواة جروحه ، فالقبر يخفى كل شئ ..

يشيح بيده للملاحظة :

ـــ عندما نكبر .. لايكون لذلك أهمية !..

يعلو حاجبا حمودة هلول بالدهشة :

ـــ هل الكبر هو انتظار الموت ؟!..

وهو يغمض عينيه فى سرحة :

ــ إنى أركب البحر ، وأنفق على نفسى .. لكن العناية بتلك الأمور ــ يعبر بيديه ــ تختلف عن عنايتنا بها حين نكون شباباً ..

تقدم السن باد عليه ، وإن صعب عليه تحديد عمره . التجاعيد تعرجات فى وجهه ، وأجفانه ضاقت على عينين غاب التماعهما ..

لا أحد يتذكر طفولته . أبناء جيله ماتوا ، والآخرون وعوا عليه وهو عجوز . لم يتعلم سوى حروف الهجاء ، وكيفية وصلها ، وقواعد الجمع والطرح ، وآيات من القرآن ، يحتفظ بكمية طيبة من الأمثال والحكم والألغاز والحواديت والحكايات الجميلة . يعرف بالأنساب ، وأسماء الرجال ، فى السيالة وماحولها ، وغالبية أسماء النساء . عرفهن قبل أن يكبرن ، ويتزوجن ، ويلدن الأبناء . إذا قادته خطواته فى حوارى السيالة ، نادى عليه النسوة من النوافذ وأبواب البيوت . ربما استوقفته واحدة فى الطريق ، وشكت له معاملة زوجها . قد يبادر بالسؤال عن الزوج الغائب ، أو صحة الابن المريض . يرد على الدعابة بما تسعفه بديهته ، ويبذل النصيحة عن طيب خاطر . يزوره الرجال ، يسألونه

، يناقشونه ، يعرضون مشكلاتهم اليومية . حتى الذى تهجر امرأته فراشه ، يشكو له همه ..

ابنته الوحيدة ــ كبرى أبنائه ــ جدة لبنين وبنات . اولاده الثلاثة اختاروا مهناً مغايرة . الأول تاجر منيفاتورة بشارع الميدان ، والثانى عرضحالجى أمام سراى الحقانية ، والثالث سائق بترام الرمل . اعتادت زوجته البقاء ــ لأيام ــ فى الشقة المطلة على زاوية الزواوى ، وإن تردد عليها معظم ساعات النهار ، سيدات من الحى ، ينظفن لها البيت ــ فهى مريضة ــ ويجهزن الطعام ، ويغسلن الثياب ، ويملأن القلل ، ويبخرنها ، ويقضين حاجياتها من السوق . يحببنها لأنها زوجة الجد السخاوى ، ولأنها طيبة ، سهلة العشرة ..

لا يغادر جلسته . يحتضن النفس ــ وأشعة الشمس ــ بقبضتين لاتفتران . ينزع غطاء رأسه قبل أن ينام . يؤمن بفائدة الشمس للجسم ، لايخشى منها حتى على رأسه ..

يرنو إلى السماء بنظرة ممتنة :

ــ عندما يضايقنى أى شئ .. أشكوه إلى الشمس لحظة طلوعها ، فتهدأ نفسى ..

يضيف بلهجته الطيبة :

ــ إذا غابت الشمس .. أحسست بالغربة !

كأنه مسكون بانجذاب نحو الشمس . لا يتصور أنها مجرد كائن جامد . يراها كياناً وروحاً وعقلاً . ربما وجد نفسه مستغرقاً فى التحدث إليها . يكلمها بما يفد إلى ذهنه ولسانه ، ويشكو همه . لايعنيه إن لاحظ من حوله ، أو أنصتوا . يحب الشمس ، والتنفس بعمق ، والتمدد فوق الأرض الرملية ، والبحث عن الهدوء ماأمكن . يحب الجدار القديم . يلتصق فيه بالرؤى التى لا يتبينها الرجال . لا يشرب الكيف ولا القهوة ، ولا يدخن ، وإن أسرف فى شرب الشاى . إذا أصابته أنفلونزا ، أو نزلة برد ، شالها على قدميه . يرفض أن يلزم السرير . لا يركب البحر ، وإن قضى يومه فى قهوة الزردونى . يروى ذكريات قديمة . يردد أغنية بعدت أيامها . يرسل حكمة عفو الخاطر . يعطى خبرته . يفرغ معلوماته للسؤال : هل البحر اليوم شرد أو حصيرة ؟..

الهواء له دوره فى نجاح الصيد ، أو فشله . الهواء الشمالى يزيد فى ضغط الجو . الهواء الجنوبى يؤثر على

حركة الأسماك ، فتستقر فى الأعماق . حقول الأسماك خرائط فى رأسه ، فى الأنفوشى والميناء الشرقية وأبو قير ورشيد ومطروح والسلوم والبرلس وبور سعيد وخليج السويس . المكان ، والعمق ، وأنواع الأسماك . يعرف الكثير عن تيارات المد والجزر والتيارات والضوء والحرارة ، على طول الساحل حتى آخر الحدود الليبية : الأمواج والرياح والعواصف والأنواء وسحب الأمطار ومواعيد السفر ومناطق الوفرة والجدب . البحر صديق قديم ، يطمئن إليه ، فلا يمكن أن يخذله ، وإن اعتاد الرجال قوله : البحر عندما يعطى ، فهويعطى بسخاء . أما إذا أخذ ، فالله هو المنجى !..

دل الرجال ــ بعد انتهاء الحرب ــ على مناطق جديدة للصيد شرقى الساحل . غنية بالبربونى وسمك موسى والمرجان واللوت ..

بكى الرجال فرحاً ..

عمليات الصيد غربى المدينة ، ضعيفة ، رغم توافر الأسماك . البلانسات والفلايك تخلو من الثلاجات ، فيفسد محصول الأيام الصعبة . لكن الرجل يؤكد ــ فى النهاية ــ أن بركة الله ــ وحدها ــ هى التى تحمى الرجال . لاقيمة

للتأكد من ارتفاع الموجة ، وحرارة الماء ، وكمية الرطوبة ، وسرعة الريح ، والتطلع ــ بفهم ــ إلى الأفق . البراعة تتركز فى التأكد من متانة الدفة ، وسلامة الشراع ، وطريقة فكه ، ونشره ، فى مواجهة الرياح واتجاهاتها : بحرية أو غربية أو مريوطية . ما تبقى فمن تساهيل الله . يردد التسبيحات والصلوات على النبى . يرددها الرجال من بعده ..

نحذر التعثر عند صعودنا إلى البلانس . لاننظر وراءنا . نقضى على أسباب النحس . نبصق على الغزل ، أو فى القارب ، استجلاباً للحظ ..

ربما أرجأ الجد السخاوى موعد الإبحار ، إذا قفز أحد الرجال إلى البلانس بالقدم اليسرى ..

ينزلق البلانس فى المياه ببطء . سبحان الذى سخر لنا هذا ، وماكنا له مقرنين . طوله أقل من ثلاثين متراً . مع هذا ، تكدس على سطحه ، وفى دخانيقه ، زاد وزواد : الماء والزيت والشحم والثلج والخيش والغزل والحبال والطبالى وصناديق الدخان والأدوية وأدوات النظافة والجرادل وقطع

الفلين . يغادر الأنفوشى إلى ظهر البحر . بعيداً عن الشاطئ والبيوت والسفن الصغيرة وسماع أصوات الاستغاثة ..

الجد السخاوى يضع يده على حافة عينيه . يحدق فى الأفق ، ما بعد الجزيرة . ربما يتوه فى أزقة الأنفوشى ورأس التين . معظم وقته ــ فى البر ــ فى قهوة الزردونى ، أو فى بيته . يحب حائطاً بالذات ، فى سطح البيت المطل على زاوية الزواوى . يجلس إليه غالبية أوقات النهار . يغفو ، يصحو ، يتأمل تموجات الخيوط المتصاعدة ــ بتأثير حرارة الشمس ــ من مياه الخليج . يهز الرأس لمرأى أسراب النورس ، الغربان البيضاء التى مسخها الله ، لأنها تسرق طعام الصيادين ..

يقول حسان عبد الدايم :

ــ أَلِسْطَة !..

يشير الجد السخاوى إلى السكومندو قاسم الغريانى :

ــ افرد الشراع ..

بعض ماروواه قاسم :

فى لمحة ، أو أقل ، اعتليت الصارى ..

فككت الحبال من حول الشراع . فردته ببطء . أطلقته . هبت الريح ، فامتلأ بالهواء . لاأترك مكانى . أتأمل البلانس . حركة الرجال من فوقه . بيوت الأنفوشى تتحول ـــ من بعد ـــ إلى خط رمادى . يتضاءل ، يشحب ، يغيب ، فتحيط بنا المياه من كل جانب . أتعمد ألا أطيل إليها النظر : انفراجة الموج لمقدمة البلانس فى عناق الرحلات المتصلة ، ساقا امرأة تتشوقان للمضاجعة . .

أنزل إلى الدفة . خلّ عنك ياجد سخاوى ..

شعور الراحة يتملكك وأنت تواجه ـــ من نافذة مرتفعة ـــ ليل المدينة الغويط . الشعور نفسه يتملكك وأنت تدير الدفة فى مواجهة الموج الهادئ . البحر أرضك . يدان لذراعك ، لسطوتك . تقفز فى دائرة الشباك التى ألقى بها الرجال . تتأكد من كردون الفلين الذى يحيط بالدائرة . تتأمل صحوة السماء . امتداد تكسرات الموج من كل الجهات . تردد ـــ مع الرجال ـــ مقاطع أغنية . تساعد فى إعداد الطعام والشاى . ترف ابتسامة لذكرى قريبة . تملأ النفس رؤى وأحلام . حتى الشتاء له أيامه الطيبة ، الكثيرة ..

لسنوات ، عملت جندياً فى سلاح الحدود . كرهت الصحراء ، سكونها ، جمودها ، امتدادها إلى خواء . الصحراء تبدأ رمالاً ، وتنتهى كما بدأت . بقدر ماكرهت الصحراء أحببت البحر . البحر نعرف أوله ولانعرف آخره . نرى سطحه ، ولا نعرف ماذا فى قاعه . هل توجد حياة وناس من عوالم تحتية ، أو أن الأسماك الهائلة ، والكائنات التى لم نرها ، تلتهم البشر ؟!. السطح المكشوف ، الأعماق الغامضة المبهمة ، القوة الهائلة ، الطيبة ، القاسية . تبدل الأجسام والأصوات والألوان فى السطح ، وفى الأعماق . حياة البحر لاتعرف الانطواء وأخذ الجانب . لابد أن تصادق ، تحادث ، تسأل وتجيب ، تبدى الدهشة والفرحة والأمل . تكشف مابداخلك ، حتى لو كنت ذا طبيعة كتومة .. البحر يفرض المصارحة ، يفرض الجرأة ، والشجاعة أيضاً . بمجرد الخروج إلى عرض البحر ، أنت تواجه المجهول : الأسماك الشرسة ، والأنواء ، والأمواج العالية ، وتمزقات الأشرعة ، وأعطال الآلات ، والدوار ، والبرد القارس ، والشمس اللاهبة ..

الجد السخاوى لايخطئ فى ترتيبات الرحلة . متى نعد البلانس للإبحار . الثياب والأغطية المطلوبة ، ساعة القيام ، العودة ، اتجاهات الريح ، توقعات العواصف والأنواء .. لكن البحر ــ فى النهاية ــ بأهله . حياتنا فى المركب أطول من حياتنا داخل البيوت . جيراننا السماء والشمس والمياه والأسماك والعواصف والأنواء وأغنيات الصيد . البلانس هو البيت والقهوة والشارع والعمل . نخالط من تمتد مودتنا لهم حتى آخر العمر ، ونلتقى بمن تنتهى معرفتنا بهم عقب مغادرة الميناء الذى التقينا فيه . الأغنيات التى نرددها فى عرض البحر ، تختلف عن أغنياتنا عند إنزال ، أو رفع ، الشراع ، أو جر المرساة ، أو إذا كان البلانس ينزل البحر للمرة الأولى . لكل مناسبة أغنياتها . نتطلع ــ بعد أيام ــ خلف حاجز المركب إلى الخط الرمادى ، الضئيل ، الممتد فى نهاية الأفق . يهتف أحدنا ، أو نهتف فى صوت واحد :

ــ أرض ! ..

نصادف بلانساً أو اثنين . ثم تتوالى السفن المتجهة إلى عرض البحر ، والعائدة ، والواقفة فى أماكنها . زحام من السفن الكبيرة والصغيرة ، تؤكد دخولنا الميناء . ثم تتناثر

المرئيات : مئذنة أبو العباس ، صارى العلم فوق سراى رأس التين ، قلعة قايتباى ، أسطح البنايات العالية ، صف البيوت فى امتداد الشاطئ ..

يصعد الحاج قنديل إلى البلانس ، قبل أن يصل الشاطئ . يتسلم " المحصول " . يتقاضى هديته ، ونحمل باقى الطبالى إلى الحلقة ، أو يشتريها الباعة على الشاطئ ، أو فى الحلقة . نعطى حاملى الأوعية والسلال ما يأذن به الجد السخاوى من الأسماك والثعابين والجمبرى . يكرر الجد السخاوى اعتزازه بأيام كانوا يفاضلون بين صيد المركب . يختارون الأنواع النظيفة ، ويعيدون الأنواع الأخرى إلى البحر ..

تفتح الأبواب المغلقة ، وتطل النسوة من النوافذ ، ويقفن على الأبواب . تتعالى التعليقات الصاخبة ، والهامسة ، ويؤمر الأولاد بالذهاب إلى أماكن نومهم مبكرين ..

موال للصياديـــــن :

أقــوم من النــوم أقــول يارب عدّلهـــا

بلدى قصاد عينى ومش عارف أعدلهـــــا

وادى ريس البحـــر محتار ما هو عارف يعدلها
سألت شيـــخ عالـــم بيقـــرا فى معادلها
سند الكتاب من يمينـــه والتفت قـــال لـــى :
بين المسا والصبـــــاح ربك يعدلهـــا

ذكر حادثة قديمة كتمهيد مناسب :

البلانس " تماظا " خرج إلى البحر ــ بعد عمرة ــ منذ ثلاث سنوات . غيبت الأيدى المجهولة الحبيب تماظا الهوا من فوقه فى نوة العجوزة ..

نادى على عم حزين الهوا الذى كان يعالج الدفة فى مواجهة الريح الشديدة ..

تألم الرجل ، بكى ، صرخ ، بسمل وحوقل وتهدج بدعوات .. لكنه لم يحاول حتى أن يترك مكانه ..

كان البحر ملك أهله ، والأيدى المجهولة لن يشق عليها أذى من يقاومها . نفّس الرجل قهره فى البلانس . حطمه ــ بعد العودة ــ تماماً . ثأر منه . أضافه إلى خسارة الابن الغالى . لم يكن لديه حيلة أمام قوى مسيطرة ، باطشة ..

ماذا جرى فى الرحلة المشئومة :

خرجنا إلى عرض البحر ، شرقى الاسكندرية ..

الدفة فى يد حسان عبد الدايم ، يديرها دون عناء . الوحيد الذى يغلق فمه على كمية من الزيت . إذا غاص ، ينفثها فى الماء ، فتضئ له البحر ، ويرى طريقه ..

ما يشبه الوسوسة ترامى إلى أسماعنا . اختلاط أصوات الرمال من جزر لا نراها ، بالمياه ، بالأصوات الهامسة التى يغيب مصدرها . جزر مجهولة ، يسكنها كائنات ليست من البشر . ترعى فى أحراشها دواب هائلة . تأتى المراكب ، فتضربها ، تحطمها ، أو تركب فوقها . تهبط بواحد من ركابها ، أو أكثر ، أو بالمركب كلها إلى قاع البحر ..

الجد السخاوى لم يخف قلقه . هز رأسه ، وأشاح بيده..

أهل البحر يضمرون الشر ، فلم يكن فى الأفق ــ لما بدأنا الرحلة ــ ما ينبئ بعاصفة :

ــ اليوم أربعاء .. فيه أُغرق قوم نوح !..

بدا الجد السخاوى أشبه بالمارد . أوامر ، وشخط ، ونطر ، وقوة على النفس ، وعلى الرجال ..

أشار ، فقفز قاسم إلى الصارى ، يحتضنه ، يلمه ، يحيطه بالحبال . تقلصت قبضتا عبد الدايم القويتين على الدفة . أغلقنا الأبواب المفتوحة . ربطنا المعدات المتناثرة فى البلانس . حتى الطبالى الممتلئة بالأسماك والثلج . ربما طيرها عنف الرياح ، وأعددنا الجرادل لنزح المياه عندما يركب الموج سطح البلانس المكشوف ..

اهتز البلانس دون رياح حقيقية . تشنجت أصابع عبد الدايم على الدفة ..

علت الأصوات الهامسة ، تداخلت ، فأصم الآذان زعيق وصراخ وضحكات مجلجلة . تكاثفت الظلمة ، وهاجت الرياح ، وتدافعت الأمواج كالجبال ، لا تتكسر مياهها ..

ارتطمت سلاسل الجبال الصغيرة بجانب البلانس ، فمالت به . كل موجة تحمل فى طياتها روحاً حية ، تدفعها ، تعلو بها . ملايين الأفواه ــ لا نراها ــ تنفخ الهواء الراكد . يصبح ريحاً ، فعاصفة ، فنوة قاسية ..

همس الجد السخاوى بورد البحر :

ــ فلنأمل فى بركات سيدنا الخضر ..

شاب صوت قاسم غضب :

ـــ وماشأن سيدنا الخضر بمانحن فيه ؟!

قال حسان :

ـــ إنه يظهر لمثل مركبنا ، فيقودها إلى الطريق الصحيح ..

نطت سمكة هائلة فى البروة ..

صاح الجد السخاوى :

ـــ لا يلمسها أحد .. حتى قطرة الماء ربما تحمل الخطر..!

فى لحظات ، أحاطت الأيدى الخفية بالبلانس ، واختطفت الحبيب ، الحبيب ، جمعة العدوى ..

الصورة الأخيرة التى نذكره عليها ، حين كان يحتض البروة ، ثم اختفى . تدافعت الجبال الصغيرة ، فأخفته فى ثناياها . لم يجد الفرصة للاحتماء أو المقاومة أو الاستغاثة . اسم قاسم ـــ دون سواه ـــ رف فى أسماعنا : الحقنى ياقاسم ..!

كانت البروة قد خلت منه . الجبال الصغيرة تناطح البلانس بقسوة وحشية ..

نزع قاسم ثيابه ، وهم بإلقاء نفسه وراءه . جذبه الجد السخاوى . احتضنه فى صدره المتعب . المقاومة ربما تدفعهم إلى اختطاف البلانس بأكمله ..

ملاحظات ذات أهمية بالغة :

حين تطوفين بحجرات البيت . تكنسين التراب من الصالة إلى الداخل . لا تكنسيه ناحية الباب الخارجى ، فلا تكنسى الحظ السعيد . تطلقين البخور ، تبسملين ، تحوقلين ، ترددين الأدعية ، تقرئين آية الكرسى ، تتأكدين من إغلاق النافذة المطلة على سيدى كظمان ــ حتى ولى الله لا تأمنين جانبه ــ فلأن تلك هى الوسيلة التى تجنبين بها البيت أذى عوالم أخرى . الأولاد والبنات يصارحون بالشك وعدم التصديق : ماعفريت إلاّ بنى آدم !..

قال قاسم الغريانى :

ــ لو أن هناك عفاريت بالفعل .. فستختار بيوت الأغنياء !..

أضاف وهو يطلق ضحكته المسرسعة :

ــ يكفى أمثالنا عفريت الفقر !..

تستعيذين بالله ، وتطلبين المغفرة . مكتوب فى القرآن الكريم الذى لم يحسنوا الإفادة من قراءتهم آياته . لكنك ـــ لم ؟ ـــ ترفضين رواية اختطاف أهل البحر لزوجك جمعة العدوى . أكدها كل الرجال . ربما أخطأ الجد السخاوى . ربما الأربعاء ليس أفضل الأيام .. لكن البحر عندما أقلعنا ، كان حصيرة . بعدنا عن الشاطئ بأزيد قليلاً من كيلو مترين . اختطاف الحبيب جمعة العدوى هو المعنى لكل ما حدث . أثاروا الرياح بآلاف الأفواه . حركوا الأمواج بملايين الأيدى والأقدام . أحاطوا بالبلانس ، وأصروا على مايريدون ..

لم يكن بوسعنا أى شئ . قاسم هم ـــ لسماع اسمه ـــ بالقفز وراء العدوى .. لكن الأعماق البعيدة ، الدنيا الغامضة المجهولة ، كانت ـــ فى ثوان ـــ قد ابتلعته ..

لعله ـــ يوماً ـــ يعود ..

غيبت الأنواء ـــ من قبل ـــ رجالا كثيرين . فجأة ، عادوا . رووا الكثير من الحكايات والأعاجيب ..

هذا أملنا .

الأسطى مواهـــب

بدوا غرباء عن القهوة ، بالسروال الفضفاض ، والصديرى المزركش ، واللاسة الحرير ..

الكراسى من الليف المجدول ، والترابيزات مستطيلة ، رخامية السطح . وفى الصدر كنبة خشبية ، ذات مساند على الظهر والجانبين . وتناثرت ــ على الكراسى والطاولات والجدران آلات موسيقية قديمة : عود ، كمان ، طبلة ، رق ، ناى ، مزمار .. وثمة صور ــ على الجدران ــ لسلامة حجازى وسيد درويش وزكريا أحمد وأحمد المسيرى وحمامة العطار

تعالت النداءات والدندنات والشتائم وعبارات اللوم والمعايرة ، ولغة السيم التى غابت معانيها : كوانى .. زبال .. آميد .. فورتى .. تشنيب .. موزة جهرة .. أبيّج .. عنترة .. صولى ..

وضع الجرسون أمامهم طاولة من النحاس بثلاثة أرجل . وضع عليها ــ باليد الأخرى ــ صينية ، بها ثلاثة أكواب من الشاى ..

نظر إلى الوجوه الثلاثة التى تحيط بالمكان فى استغراب . أكبرهم فى حوالى الستين ، قامة مدملجة ، ورأس أصلع . على الفودين شعر أبيض . دائم التلفت ، ويجرى بظهر يده على عينه كمن يعانى رمداً . الآخران شابان يشبهانه فى الملامح ، وإن بدا جسماهما أطول وأنحف . قدّر أنهما ابناه ..

ــ جئتم للاتفاق على صهبة ؟..

قال المعلم عباس الخوالقة :

ــ نعم ..

أنهوا ترددهم على الصاغة وسوق الترك وسوق المغاربة ، لشراء الأساور الذهبية والطسوت ، وأناجر النحاس المطروق . أنهوا مشوارهم بقراءة الفاتحة لسيدى المغاورى ، فى التقاء شارعى اسماعيل صبرى وصفر باشا . لم يعد إلاّ الاتفاق مع العوالم ، وتحديد موعد الزفاف ..

قال الجرسون :

ـــ هل جئتم لاسم بالذات ؟

قال الخوالقة :

ـــ لا!..

وهو يومئ برأسه :

ـــ إذن .. عليكم بالأستاذ حسن عشم ..

بدا ـــ فى جلسته على ترابيزة محاذية لشارع اسماعيل صبرى ـــ وحيداً ومنعزلاً عما يشغى فى القهوة . يرتدى بدلة سوداء ظاهرة الرثاثة . أسمر الوجه ، وإن خالط سمرته شحوب . وفمه واسع ، تحيط به شفتان غليظتان ، يعلوهما أنف ضخم ، يطل من منخاريه حزمتان صغيرتان من الشعر الأبيض . بدأ حياته قارئاً ومنشداً فى أبو العباس . تعلم أصول ترتيل القرآن ، وإنشاد التواشيح . طال تردده على حفلات القراء والمنشدين ، وحاول تجويد الترتيل . صار على معرفة جيدة بالألحان فى أصولها الدينية ، واستوعب أصول الأنغام . احترف الغناء فى الموالد والمناسبات الدينية ، والليالى والأفراح . أفلح فى أن يميز الناس صوته بمجرد سماعه ، دون أن يروه : عشم يغنى ! . حين خذله صوته ـــ بتأثير السن والكيف ـــ عمل " مطيباتى " يبدى الإعجاب ،

ويهلل للمطربة أو الراقصة : آه ياسيدى .. كمان والنبى .. ياعينى على كده .. أعد ..

لما بدأ جلوسه على قهوة الفنانين ، حرصت فرق العوالم على استخدامه . أشار على الأسطى مواهب أن تهمل أداء أغنيات مطربات الفترة ، وتغنى من ألحانه . قرن نصيحته بتقديم أغنيات قوامها الموشحات والبشارف والسماعيات . أدتها مواهب فى حفل زفاف ، فتمايل الحضور طرباً ، وطلبوا الإعادة . ذاعت الأغنيات ، فقلدها عوالم الاسكندرية . حتى الرجال خنثوا أصواتهم ، وأعادوا غناءها ..

اعتزم عباس الخوالقة أن يكون حفل عقد قران ابنته ، وزفافها ، فى بهاء حفل ابنة الحاج قنديل وزفافها . هو مثله شيخ صيادين ، يجمعهما الود والصداقة والجلوس فى درس إمام أبو العباس ، وأمام صالون الحاج محمد صبرة . لكن المكانة الاجتماعية لاتعرف العواطف ، ولاتأذن بالتغاضى عن كلام الناس ، وملاحظاتهم ، وعن تأكيد مكانته فى الحى ، وبين الصيادين ..

قال حسن عشم ، وهو يعبث بإصبعيه فى الشعر المتدلى من أنفه :

ــ كان المغنى زمان .. والله زمان يا طرب !

ثم وهويمسح أنفه بظهر يده :

ــ هذه القهوة هى الامتداد لقهوة النجوم القديمة .. غنى فيها سيد درويش ، وسمعه جورج ابيض وسلامة حجازى والست الغندورة والشيخ زكريا ..

استطرد الجرسون وهو يضع الصينية بفناجين القهوة :

ــ فى هذه القهوة ، كان المغنى يحصل على رخصة الغناء واعتلاء التخت ..

هز حسن عشم رأسه فى تأكيد :

ــ كان المغنى يسمع ما يحفظ أمام أساتذة الطرب والموسيقا .. إذا وافقوا على أدائه ، سمحوا له بارتداء حزام احتراف الغناء !

وأشار بيده ناحية الميناء الغربية :

ــ سلامة حجازى ولد بالقرب من هنا .. فى حارة بز امه .. لكن والده كان صياداً من رشيد .. وهكذا كل الأسر القديمة فى المدينة .. أصلها من رشيد ..

وخالط صوته أسى واضح :

ــ القهوة تحتفظ ــ حتى الآن ــ باسمها .. لكن الفنانين لم يعودوا هم زبائن القهوة ، أو أنهم تخلّوا عن مكانتهم لآخرين ..

واتجه إلى المعلم عباس الخوالقة بملامح متسائلة :

ــ هل تحسب أنك ستجد هنا عالمة تجيد تقسيم الليالى ؟.. حسبك وجه مريح .. الوجه المريح أمر ضرورى .. وصوت يخفى ضعفه بأداء الأغنيات الخفيفة ..

واعتدل فى جلسته :

ــ أغنية يعجبنى مثلا ..

ودندن :

يعجبنى اللى يكلمنـــى   وبحنيــه يغازلنـــى

وف نص الليل يسايسنـــى   بس ما حبش يقرصنـــى

وتنحنح :

ــ حتى هذه الأغنية .. لايقدر على أدائها مطرباتنا اللائى يتعاطين الأفيون بشراهة رجل ..

قال عباس الخوالقة :

ـــ كل مأطلبه صهبة جيدة ، تسعد البنت ، وتسعد أمها..

قال حسن عشم :

ـــ الأسطى مواهب هى الوحيدة التى تغنى فى تياترو أحمد المسيرى ..

قال محمود عباس الخوالقة :

ـــ ربما تطلب مبلغاً مرتفعاً ..

قال حسن عشم :

ـــ من يعشق الفن لا تشغله الفلوس .. والأسطى مواهب تحب الفن ..

قال الجرسون وهو يقدم كوب شاى لحسن عشم :

ـــ أسطتنا أزاحت عن عرش الطرب أسماء كبيرة ..

وتظاهر بالعد على أصابع يده :

ـــ فاطمة القطورية وفاطمة كهربة وام النخيلى والتقيلة والحاجة زنوبة ..

وتنهد :

ـــ كثيرات !..

قال حسن عشم :

ــ أسطتنا تخت بأكمله .. تجيد الغناء والعزف على كل الآلات .. وإن احتاج الأمر ، فهى ترقص أيضاً ..

مال عباس الخوالقة على أذن الرجل :

ــ لكنها ــ فيما علمت ــ عجوز ..

قال حسن عشم :

ــ الدهن فى العتاقى ..

ولاحظ نظرة السخط فى عينى الجرسون ، فاستدرك :

ــ ثم أن أسطتنا ماتزال فى أول شبابها ..

اتجهت الأعين إلى باب البيت المجاور ..

وقفت الأسطى مواهب بجسمها الممتلئ ، والأصباغ ملأت وجهها ، والشبشب تطل منه أصابع مطلية بالحناء . يتبعها رجل ضئيل القامة ، ضيق العينين ، شاربه كخط فوق شفتيه . يرتدى جلباباً مكوياً ، ودس قدميه فى قبقاب ..

أطلقت ــ فجأة ــ ضحكة عابثة ، تمهد بها لدخول القهوة . تبعتها بدندنة :

ماتخافش عليــه

أنا واحده سجوريا

فى العشق ياإنتــه

واخده البكالوريـــا

ما تخافش عليـــه

علا صوت حسن عشم مغنياً :

يا دلالى عليك يادلالى   سنتين وانا احب وادارى

أطلقت المرأة ضحكة مصحوبة بغنجة :

عايق على خدك شامة   وعينك منهم يا الله السلامـــة

أمضت شبابها فى حارة العوالم . خطوات من شارع محمد على : زوبة الكلوباتية ونبوية شخلع وعزيزة كهربة وعايدة وصفى وعزيزة حظ وقمر المصرية وحميدة المناصرة والفن والسهر والليل والنجوم والموسيقا والغناء والطرب وضبط الآلات والتقاسيم والصاجات وأغنيات الأفراح والسيم والسلام المربع . تعلمت كل الرقصات : الشرقى والشمعدان والزفة والشرقاوى والنوبى والاسكندرانى . تقدمها فى الأفراح ، ماعدا الشمعدان التى لم يطلبها أحد ، فنسيتها ..

لم تكن مجرد مؤدية . كانت تجيد العزف على الآلات الموسيقية ، وتفهم الغناء على أصوله . ثم لم تعد المهنة كما كانت . زمان ومضى . لم تعد العالمة تستحق اسمها ..

قالت وهى تعد بيديها :

ــ الطاقم يتكون من قانونجى وعازف كمان وعازف بيانو منفاخ وطبال ومونولوجست ومطرب .. زائد راقصتين أو ثلاثاً لزوم الزفة ..

أضاف الرجل وراءها متسائلاً :

ــ والحقاقة ؟

قال لنظرة عباس الخوالقة الداهشة :

ــ هى التى تقول المديح فى حق العريس إن شاء الله ..

قال مصطفى عباس الخوالقة :

ــ نحن أهل العروس ..

قال الرجل :

ــ وتمدح العروس أيضاً !..

قال الخوالقة محتجاً :

ــ لم يبق إلاّ أن ندفع أجر المطيباتى ..

قالت مواهب متغاضبة :

ــ نحن لانستأجر من يبدى الإعجاب أو يهلل .. فننا يكفينا !

أردفت فى لهجة متفاخرة :

ـــ لدينا راقصات يجدن كل ألوان الرقص .. اسكندرانى وشرقاوى ونوبى وشرقى ..

قال الخوالقة :

ـــ سمعنا عن سناء العطار ..

قال الرجل وراءها :

ـــ هذه راقصة زنقة .. يستعان بها إذا غابت الراقصة الحقيقية ..

قال مصطفى عباس الخوالقة :

ـــ نحن نطلب زفافاً محترماً ..

قالت مواهب :

ـــ يا جارية اطبخى ..

قال الخوالقة :

ـــ كل ما تريده الصهبة ندفعه ..

أضاف موضحاً :

ـــ ليلة الحنة .. وليلة الفرح ..

زوى الرجل وراءها حاجبيه فى استنكار :

ـــ طبعاً ..

قال حسن عشم :

ــ الأسطى مواهب من عائلة عوالم ..

ثم وهو يضحك عن فم تساقطت معظم أسنانه :

ــ ولدتها أمها فى فرح !

علا صوت الأسطى دون توقع :

يا ريس البحــر خدنــى معــاك من البــر أحســن لى

أتعلم الكار بوســع البـــال أحســـن لـــى

أزود بمـــده .. أجر لبـــان أحســـن لـــى

طلعت ألــم القلوع لقيت العويل أطول من الصـــارى

رميت المدارى .. وقلت البـــر أحســن لـــى

قال عباس الخوالقة :

ــ طبعاً .. توجد راقصة شمعدان ؟..

شهقت وهى تضرب صدرها بأصابعها :

ــ ماكانش يتعز !.. رقصة الشمعدان لاتعرفها الاسكندرية .. اذهب إلى محمد على ..

فوت الملاحظة :

ــ ليتك تتعاقدين أيضاً مع فرقة نحاسية ..

أطلقت ضحكة مائعة :

ــ الفرق النحاس عند المبيضاتى ..

أضافت بجد :

ــ هذا زمان وفات .. لم تعد فرق النحاس ــ بعيد عنك ــ إلاّ للمآتم .. الصهبة تحلو بالطبلة والرق والقانون والعود..

وأغمضت عينيها كالمتذكرة :

ــ زمان .. كانت الغلبة للموسيقا الشرقية الأصيلة .. أما الآن ، فالكل يعزف الموسيقا الخواجاتى !

قال الرجل الواقف وراءها :

ــ أفراح زمان .. أين هى الآن ؟.. ربما حمامة العطار هو آخر الفنانين الحقيقيين ..

قالت الأسطى مواهب :

ــ متى الفرح بإذن الله ؟

قال مصطفى عباس الخوالقة :

ــ الأربعاء ..

علا حاجباها بالدهشة :

ــ ولماذا ؟.. عروسة الاربع ياتطلق .. ياعلى بيت ابوها ترجع ..

قال محمود عباس الخوالقة :

ـــ فال الله ولافالك !..

قال عباس الخوالقة :

ـــ هذا هو الموعد الذى حددناه مع أسرة العريس ..

قالت مواهب فى تمنع :

ـــ غيّروه .. أنا مشغولة الخميس والسبت والأحد .. والجمعة أجازة .. الاثنين موعد مناسب .. عروسة الاثنين يزورها الحسن والحسين ..

استطردت وهى تميل برأسها إلى الوراء :

ـــ زمان .. كانت البدرة فى الزفة جنيهات ذهب.. نحصل على النقطة بالعافية فى أيام النحس !..

قال حسن عشم :

ـــ الأسطى لا تقبل سوى أفراح الشاطبى وطالع ..

قال الرجل وراءها :

ـــ النقطة فى أحياء البلد لا تأتى بهمها ..

تدخلت الأسطى مواهب :

ـــ أنت أخ عزيز .. وابنتك ابنتى ..

وقالت فى حسم :

ـــ اتفق معهم على ما يريدون ..

قال حسن عشم :

ــ سلمت لنا يا معلمة .. هذا عشم الناس الطيبين ..

وأخرج من جيب جاكتته العلوى ، ورقة صغيرة مطوية . جرى فوقها ببقايا قلم كوبيا :

ــ عشرة قروش عربون .. عشرة قروش أجر العربة الحانطور .. خمسة وعشرون قرشاً ثمن سجائر ..

قال الرجل وهو يتبع الأسطى إلى داخل البيت :

ــ مقاولة الأسطى مواهب معروفة للجميع .. لا فصال فيها !..

تناهى صوت امرأة من نافذة فوق القهوة :

ــ الأسطى ترفض أن يفتح البوفيه بدونها ..

قال عباس الخوالقة :

ــ المفروض أنها تحضر قبل ذلك بساعات ..

قالت المرأة من مكانها :

ــ لابد للأسطى أن تقف بجوار العروس عند افتتاح البوفيه ..

انصرف الشابان . تأخر المعلم عباس الخوالقة . همس فى أذن حسن عشم :

ـــ من هذا الرجل ؟..

هش حسن عشم ـــ بيده ـــ ذبابة ، حطت على حافة كوب الشاى . امتعض لسقوطها فى الكوب . اهتزت ، تحاول التخلص ، ثم سكنت ..

تلفت حسن عشم حوله :

ـــ أى رجل ؟..

ـــ الذى كان يقف وراءها .. يسأل بدلاً منها ، ويرد على أسئلتنا ..

كشف حسن عشم عن أسنانه المتساقطة :

ـــ إنه طبال الأسطى وزوجها .. وقوادها فى حالات الضرورة !..

قهوة كشـــــك

مع أن الضابط الشاب أفاض فى شرح البواعث التى جعلت من إغلاق القهوة ــ وكل محال الاسكندرية ــ أمراً مطلوباً ، فقد سأله المعلم كشك فى قلق :

ــ ماالمطلوب بالتحديد ؟

القهوة منذ أنشأها المعلم كشك الكبير ، فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ــ لم تغلق أبوابها يوماً . تستقبل الرواد إلى الواحدة صباحاً . تهدأ الحركة . يأتى الولد عزت بالمعدات والأغطية . يصف الطاولات . تتحول بالتصاق كل طاولتين ــ إلى أسرّة ــ يريح الرواد أجسامهم عليها ..

قال الضابط :

ــ كل المحال ستغلق غداً .. يوم حداد بمناسبة ذكرى توقيع اتفاقية السودان ..

تساءل بيومى جلال :

ــ مالنا والسياسة ؟!

قال الضابط فى غضب واضح :

ــ ضع فلسفتك فى فمك !..

قال المعلم كشك :

ــ ولكن القهوة لوكاندة أيضاً ..

جال الضابط بعينيه فى المكان : الطاولات المتجاورة لم ترفع عنها المخدات والأغطية ، ورائحة النوم ، وأكواب الشاى المتناثرة فى الردهة الفسيحة ، وصورة على الجدار ــ علاها التراب ــ لخراف فى مروج خضر ..

ــ أياً كانت الصفة .. فإن المحال العامة يجب أن تغلق أبوابها اليوم كله ..

قال سيد الفران فى لهجة متوسلة :

ــ هل بوسعنا أن نلزم القهوة ، ونغلق على أنفسنا من الداخل ؟

زغده فى كتفه :

ــ إن شئت .. تعال نستضيفك فى القسم !..

التقت نظرات الرجال فى قلق ..

لم يكن غادر القهوة سوى ثلاثة من التسعة الذين استقر بهم الحال ، بتوالى الأعوام والرواد . سعى حسنين

الدمنهورى إلى محطة البنزين فى أرض المحافظة القديمة ، يعد لتشغيلها قبل السابعة صباحاً . وبدأ عم محمد الطوشى جولته بصينية الحلوى ، بعد أن اطمأن إلى تسويتها على المياه الساخنة . وحمل زناتى الكناس عهدته ، مكنسة كبيرة . منطقته المحددة : من قسم المنشية إلى مبنى البورصة ..

توالت الأعوام ، فأحكمت العادة قبضتها على القهوة وسكانها . لم يعودوا رواداً . أصبحوا جزءاً من حركتها اليومية . غابت الوجوه الطارئة ، فيما عدا بعض الذين يجلسون على الموائد مصادفة ، ينهون صفقة عاجلة ، أو سائق تاكسى يميل إلى جانب الطريق ليحتسى كوب شاى ، أو متقاضين ينتظرون فتح أبواب ، أو بدء جلسات ، المحكمة الشرعية فى مبناها القريب . اكتفت القهوة بسكانها التسعة ، يغادرونها ، ويعودون إليها ، فى مواعيد ذهابهم إلى أعمالهم ، وعودتهم منها ، لايذهبون إلى مكان آخر..

نزع الضابط فتيل القنبلة ، فانفجرت بعد انصرافه : كيف يترك السكان جزيرتهم المنعزلة ، إلى عوالم أخرى ، لم يحاول غالبيتهم ــ من قبل ــ ارتيادها ، ولايعرفون عنها شيئاً ؟!

بيومى جـــلال :

دعا أقرب التسعة إلى نفسه : مصطفى حجازى ومؤمن الدشناوى ، للجلوس على شاطئ الميناء الشرقية . يصعب أن يمتد الإضراب إلى الصيادين . يشاهدون صيادى السنارة المتناثرين فى امتداد الكورنيش ، أو يتابعون صيد الجرافة ، منذ استدارة حلقة الفلين فى المياه ، حتى سحبها إلى الشاطئ ، والأسماك تلعلط داخل الشبكة ..

وجد مصطفى حجازى فى إغلاق القهوة المفاجئ ، فرصة لزيارة أهله فى كفر الدوار . استهوت الفكرة مؤمن الدشناوى . قرر قضاء اليوم بكامله فى قريته القريبة من دمنهور ..

لم يكد يقطع خطوات فى طريق الكورنيش ، حتى أدرك سخافة الفكرة . ربما استهواه المشهد ساعة ، أو نحوها .. فماذا عن بقية اليوم ؟

خلا الطريق من الجنود ، والسلاح ، والمصفحات . اقتصر وجود الجنود على المعسكرات فى مصطفى باشا وكوم الدكة والميناء . ربما يخرجون بأعداد قليلة فى شوارع

المدينة ، فلا يفطن المارة إليهم . يحسبونهم على بحارة السفن الأجنبية . وثمة صيادون ، علقوا غزلهم ــ ليجف ــ على المراكب المهجورة ، فوق الرمال والحواجز والجدران ..

مال إلى شارع اسماعيل صبرى ، ومنه إلى رأس التين ، فالحجارى . توقف أمام بيت صغير ، تطل واجهته على أول شارع المسافرخانة . تذكر ــ بلا مناسبة ــ أغنية قديمة ، فدندن بها :

والصبـــر أمـــره طـــال

واش بعد وقف الحـــــال

أدهشه ــ قبل أن يستخدم السقاطة ــ أنه لم يناقش البواعث ، ولا كيف ساقته قدماه إلى هذا البيت بالذات . ثمانى سنوات ، أو تزيد ، منذ غابت القرية المطلة على طريق المعاهدة ، وإن لم يعرف من الاسكندرية سوى قهوة كشك ، يكاد لايغادرها إلاّ لشراء الطلبات من شارع الميدان ..

حين أطل وجهها من الباب الموارب ، حدقت للحظات . ثم عرف أنها تذكرته ، لما فتحت الباب على وسعه ..

ظل فى وقفته ، يغالب الحرج ..

تناهى صوتها من الداخل :

ــ تفضل يا سى بيومى .. حسن موجود ..

حسن عبد المقصود !.. دنديط . الترع والجداول وشجر التوت والصفصاف والطرق الترابية . المقابر تعلو ــ فى هضبتها ــ عن البيوت . ناظر محطة السكة الحديد ، جلسته المسترخية فى المنتصف بين شباك التذاكر ومخزن العهدة . إمام المسجد بعصاه التى لا تفارق يمناه . محمود المنسى وحسن النجار ورمضان أبو العلا وابراهيم سليمان . أيام النزهة فى ميت غمر والزقازيق . ورش البلاط واللحام والصاج . صناعة السلال وأقفاص الجريد ، لم تؤت همها ، فترك القرية ..

أدرك من مغالبة حسن ــ فى الداخل ــ لنومه ، وإلحاح المرأة الزاعق ، أنه لم يحسن اختيار وقت الزيارة . كان بوسعه أن يتمشى على الكورنيش ، يتأمل صيادى السنارة والجرافة ، يتطلع إلى المياه والقوارب وطيور النورس ، يخالط الناس ، ويدخل معهم ــ كما يحدث أحياناً ــ فى أحاديث ، تبدأ ــ فى العادة ــ بلا مقدمات . طرف الخيط :

رأى ، والتعقيب عليه . يتصل الحوار ، ويتشابك الخيط ، إلى حيث تنشأ صداقة . يعلم أنه سيخلفها وراءه فور العودة إلى القهوة ..

كان الأمر قد انتهى ، ولم يعد بوسعه التراجع . غالب حرجه بـــ : يا ساتر ، وبسم الله الرحمن الرحيم ..

تعالى صوت المرأة من الداخل :

ــ تفضل يا سى بيومى ..

الحجرة بالغة الضيق . احتل السرير ثلثيها ، وتطلعت إليه ، من تحته ، ستة أعين صغيرة ، فى حين بدا حسن كالمتكوم على حافة السرير ، يدعك عينيه بظهر أصابعه ، ويغالب التثاؤب ..

اكتفى بالتحية من بعد ، وجلس على الكرسى الوحيد فى ركن الحجرة . أحس بسخافة الموقف . لعن الإضراب وسنينه . لو أن القهوة لم تغلق أبوابها ، ربما كان يغسل الهدمتين ، ويعد لنفسه طعاماً ، بدلاً من الأصناف الثابتة التى يقدمها له مطعم التوفيق القريب ..

ــ خير يا بيومى ..

عمق السؤال إحساسه بالحرج :

ـــ خير ان شاء الله .. وجدت فى الإضراب فرصة لزيارتكم ..

تناثرت السلامات والتحيات من جديد . فاترة ، لمجرد أن يدور حديث . ثم أخلت الأعين الستة ـــ فيما بعد ـــ مكمنها ، ونزل حسن إلى الحوض القريب ، فغسل وجهه ، وسحبت المرأة كباس وابور الجاز ، دفعته فى تلاحق ، حتى علا الوش ، وتعددت أدوار الشاى ، وأتى أكبر الأولاد بالطعمية الساخنة من " حسونة " بشارع صفر باشا ، وعلت الضحكات لذكريات بعيدة .

صابر الشبلنجى :

أطل المعلم التميمى على ندائه من النافذة ، فوق الأسطبل :

ـــ أجازة اليوم ياصابر ..

علت دهشته بالسؤال :

ـــ حتى الأسطبل ؟!

وهو يعيد إغلاق النافذة :

ـــ أوامر الحكومة ..

لو أنه صحا من النوم على مهل ، فى الوقت الذى يختاره . يتمطى ، ويداعب بإصبعه خصلة شعره الأمامية ، لايشغله من تخلى القهوة لهم طاولاتها . يعد ــ بنفسه ــ كوب الشاى بالحليب ، يقلب فى " غلَق " الثياب . ربما غسل المتسخ منها . القهوة أغلقت أبوابها ، والأسطبل أيضاً . راحة مدفوعة الأجر من تنظيف اللجم ، وغسل الحناطير والبنزات والكارو ، وبيع الروث للحدائق ، وشعيرات الحصان ، تلتف حول زوائد السنط ، فتسقطها..

مضى فى شارع السيالة إلى نهايته ..

الدكاكين مغلقة ، والشوارع مهجورة . انقطعت الرجل ، فيما عدا أفراد ، اقتعدوا الأرصفة . ربما يعانون نفس ظروفه ، أو أن لهم ظروفاً أخرى . لم يميز من بينهم أحد معارفه . يجلس إليه ، يحادثه ، يأخذ منه ويعطى له . ينقذه من الحيرة التى لم تكن فى باله ، ولا استعد لها ..

تأمل إعلانات ثلاثة أفلام ــ عرض مستمر ــ بسينما الأنفوشى . بالكاد نطق أسماءها : دايما فى قلبى ، بطولة عقيلة راتب وعماد حمدى .. طاقية الإخفاء ، بطولة تحية كاريوكا ومحمد الكحلاوى .. المنتقم ، بطولة أحمد سالم

ونور الهدى . حتى باعة اللبن ، غابت نداءاتهم . واختفى الزبالون من مكان تجمعهم ، أمام منزل أبو خطوة ..

توقفت خطواته ــ بعد أن اتجهت ، بتلقائية ، فى شارع شيمى بك المفضى إلى السينما ــ لما تذكر أن كل الأمكنة مغلقة ..

عاد إلى ساحة المرسى أبو العباس . أسرع لرؤية جانب من البوابة المطلة على ميدان الأئمة مفتوحاً ..

قبل أن يصعد الدرجات الرخامية ، أشاح له الخادم بظهر يده ..

مال ناحية شريط الترام ، ومنه إلى الحديقة المقابلة لمستشفى الملكة نازلى ..

جلس على السور الحديدى ، يتطلع إلى البحر بعينين لاتتأملان . ينصت إلى أصوات التكسرات المتتالية للمياه على الصخور . وتناثر العجائز على الشاطئ يغزلون الكنار ..

لو أنه يعرف !..

القطار يصل رشيد فى ساعة أو أقل . يقضى النهار بكامله ، يعود أول الليل . يجاوز طاحونة أبو شاهين ، فتبدو

المشربيات مغلقة كالعادة . من ؟.. أنا صابر . تستعيض عن عينيها المنطفئتين بيديها ، تفسحان لها الطريق . هل تذكرت أمك ؟!..

قال المخبر :

ــ معك بطاقة ؟

وهو يفك الأستك عن المحفظة :

ــ نعم ..

تساءل القادم من ناحية البحر :

ــ بلا عمل ؟

ــ أجازة ..

ــ تصيد بالجرافة ؟

ــ لا أعرف !

ــ هذا شأنى ..

ــ ولكن ..

ــ الأجر عشرون قرشاً حتى الظهر ..

مضى وراءه ..

وكان نورس قد مال إلى صفحة الماء . التقط شيئاً بمنقاره . لعله سمكة . ثم حلق ــ ثانية ــ فى السماء ..

سيد الفـــران :

لحقها وهى تهم بإغلاق الباب الخشبى الضخم . أهمل النظرة المتسائلة ، عكست صيحتها :

ــ أنت ؟!..

زاد من اقترابه ، فتركت الباب مواربا ً :

ــ ماذا تريد ؟

فى لهجة متوددة :

ــ بصراحة .. الحكومة ضيعتنى فأتيت ..

روى لها ما حدث ..

كانت خطواتها العائدة قد انتهت إلى الصالة الواسعة . خلت من الأثاث ، فيما عدا كنبة وحيدة التصقت بالجدار ، وكراسى ، وترابيزات قديمة تكومت فى جانب منها ، وثلاث إطارات مستعملة ، وعرق ضخم من الخشب ، وصل مابين المنتصف وأعلى النافذة المطلة على منور خلفى ..

تبعت نظراته ..

كأنه يتعرف ــ للمرة الأولى ــ إلى البيت الخالى . كان ينتظرها ــ عقب انتهاء العمل ــ أول دحديرة أبو العباس ،

طريقها التى لاتغيرها منذ ألحقها بالعمل فى بيته ، المطل على سيدى البوصيرى ، عبد الله أفندى الكاشف الموظف بسراى الحقانية . تنظف وتغسل وتكنس . تتحمل أحاديث الرجل عن شقيقتين تزوجتا ، وتركتاه وحيداً . فاته سن الزواج ، ولم يعد ثمة من يملأ حياته . تزوم وتواصل العمل . وافقت للإيراد الثابت . لم تشغل بالها ــ رغم تلميحاته ، المفاجئة ــ فى أن يجاوز دوره كمخدوم . تشعر بالضيق ــ وربما القرف ــ من وجهه المستطيل ، وشاربه الذى أخفى شفتيه . يطيل التأكد ــ فى المرآة ــ من انتظام أطرافه ، والزبد المهمل فى جانبى فمه ، والصوت الرفيع . ثم من الأحاديث المفاجئة ، المفعمة بالإشارات والتلميحات ..

تدخل فى الثالثة ، عقب قدومه من الحقانية ، وتنصرف فى السادسة . تصعد الدحديرة إلى الموازينى . تشترى حاجياتها من شارع الميدان . تلتقى فى طريقها بسيد الفران ، أو سواه . كلمتين أو ثلاثاً ، تحدد الموعد فى ناصية الحجارى والمسافرخانة . تواصل سيرها إلى البيت . تظل خلف البيت . لاتغلقه قبل أن يأتى الآخر . تحرص أن تكون

الليلة لموعد واحد . إذا واجهت إصراراً ، فإنها تأخذ العنوان ، وتطلب الانتظار ..

لم تكن تتوقع سيد الفران فى كل ليلة . الخبز الرجوع لايعطيه حق العشيق . تدبر الحجج لرؤيته . يعلو الهمس أحياناً . يتوضح الإصرار فى لهجته الحادة ، والتماع عينيه ، وارتعاشة أصابعه التى اسودت بما يختلف مع بشرته المائلة إلى السمرة . تنهى الموقف خشية الفضيحة : اتبعنى . هاهو ذا يحدثها عن اليوم كله ، والمقابل . يتأمل داخل البيت الذى لم يكن شاهده فى النهار . لو أنها أصرت على الرفض ، أو قاومت ، فمن يدرى ؟..

ــ هل نقضى اليوم كله فى حجرة مغلقة ؟

فى استسلام لامس إشفاقها :

ــ إنى ملكك ، فتصرفى !

دخلت إلى حجرة مجاورة ، فلم يتبعها ..

عادت بحقيبة من القماش . ملأتها بما لم يتبينه ، وإن أطلت منه عروق خس . حبكت الملاءة على خصرها . رفعت طرفها الأيمن ، فبدا كاحل قدمها ــ تنعمه بالحجر الخفاف ــ أسدلتها على الساق اليمنى ، ضاقت عند الخصر ،

ثم اتسعت لاستدارة الصدر . علت إلى الكتفين ، وطوى الساعد الأيسر أطرافها ، بينما المنديل بأوية يغطى الرأس . تنزلق منه خصلات الشعر الأسود . وضعت البرقع تحت العينين ، فغطى باقى الوجه . ثم ثبتت " العروسة " على الأنف ..

ــ ما أخبار المواصلات ؟..

وهو يؤكد بهزات من رأسه :

ــ رأيتها تعمل فى طريقى إلى هنا ..

ركبت الأوتوبيس من أمام مستشفى الملكة نازلى ..

تبعها فى صمت . تشاغل بالنظر إلى البحر ، يقذف برذاذ الموج خارج الكورنيش . ازدحمت السيارة فى المحطة التالية . حرص أن تكون نظراته ثابتة عليها ، فلا يغيبها الزحام

نزلت فى محطة الشاطبى . اتجهت إلى حدائق الشلالات ، دون أن تعنى بالنظر وراءها ، أو تشير إليه ، فيقترب منها ..

اختارت ظل شجرة أمام المستشفى الأميرى . وضعت طبقاً كبيراً ، به كومة من أم الخلول والجندوفلى وبلح البحر والجمبرى ..

رنا إليها بنظرة متأملة ..

كانت قد أهملت الملاءة ، وتربعت ، وإن غطت ساقيها بفستان من البوبلين الملون . دارت آثار حرق فى رقبتها بإيشارب ، دست أطرافه فى صدرها . عيناها الواسعتان الشديدتا الصفاء ، تغمضهما ــ لكلماته ــ فى خجل يدهشه ..

أطال تأمل تقاطيع وجهها المنمنمة ، ولثغتها الواضحة ، وهزة رأسها فى الكلام ، وكلماتها العفوية ، والتعبير بأصابعها ..

شرقت فى حديثها وغربت ..

مع أنها لا تتردد إلاّ على بيوت العزاب ، أو تدخل بيوت المتزوجين فى غيبة النساء ، والأولاد ، فإنها عرفت الكثير من أسرار البيوت . استمعت إليها فى أوقات الصفو والمؤانسة ، وهى تستبدل ثيابها ، وهى ترتشف كوب الشاى قبل أن تدخل غرفة النوم ، وهى تتهيأ للانصراف . لا تسأل ، إنما تترك أذنيها ، قصعة يقذف فيها الرجال بمشكلاتهم

ومايعانون . تفرق بين شكوى التبرير للخيانة والشكوى الحقيقية . لاتشارك إلاّ إذا تطلع الرجل إليها ، ينتظر رأيها ..

أحس بتحرك الدمع فى عينيه لما قالت : إذا أردت ، فاترك لى هدومك أغسلها ..

وحين لمحته يتأكد من شئ بين إصيعيه ، ثم يدسه ثانية فى جوربه ، تساءلت :

ــ ماهذا ؟

ــ قطعة أفيون ..

ضربت صدرها براحتها :

ــ تتعاطى الهباب ؟!..

قال فى تصعب :

ــ أستعين به على السهر ..

أسندت ذقنها على إبهامها وسبابتها :

ــ ألسنا أولى بثمنه ؟!

اعتادت رؤيته فى الفرن . السيالة والفانلة الممزقة والوجه المتسخ والقدمين الحافيتين . ابتسمت لهيئته الجديدة :

البنطلون ، والقميص الصوف ، والوجه الخالى من الأوساخ..

بدا طيباً ، وإن أصرّ ــ بالكناية والتورية ــ على تأكيد فحولته ، بما لا يتفق مع جسمه الضامر كأن نار الفرن لم تبق له إلاّ العظم . كانت تخلى له ساقيها ، فلا تلحظ الفارق بينه وبين المترددين عليها فى البيت المهجور ، أو يستقبلونها فى بيوتهم . ربما شرد ذهنها إلى جزر بعيدة . تفطن إلى انتهائه حين ينهض من فوقها . لا فوارق إلاّ عندما تفاجأ بغير المألوف . تحاول المسايرة أو الاعتذار . إذا أصر ، علا صوتها ، وهددت بالفضيحة ..

كان قد أهمل شعر رأسه ، فتلبد ، ما عدا الخصلة المتهدلة على جبهته ، وأحاط بوجهه النحيل ، يناقض اتساع عينيه ، وتضخم أنفه ، والسنتين العلويتين الأماميتين ، تضغطان ــ إن أغلق فمه ــ على شفته السفلى . لنحافته البالغة ، فإن تفاحة آدم تتحرك فى رقبته ، إذا تكلم ، أو ابتلع شيئاً ..

فاجأته بالسؤال :

ــ من أين أنت ؟

أطلق من أنفه ضحكة قصيرة :

ــ من هنا ..

ــ أقصد .. بلدك ؟

ــ كفر الدوار ..

ــ أنا من سحالى ..

أدركت أن الكلام فى هذا الأمر ، ربما يجرها إلى ماتحرص على كتمه . حياتها مع أبويها فى القرية القريبة من دمنهور ، تبدو فى ذهنها كالأطياف . وعت على الخدمة فى بيت المستشار صلاح توفيق . على ناصية شارع الصاغة بدمنهور . لما اتهمها بسرقة النقود من محفظته ، تأكدت أن أباها ــ لما استدعاه الرجل ــ سيدافع عن براءتها .. لكنه أغلق عليها باب المطبخ ، وتلاحقت ضرباته . احمرت عيناه ، وارتعش شاربه ، وتقلصت ملامحه ، فلم يعد ذلك الرجل الذى يجلس إليها أول كل شهر ، يسألها عن أحوالها ، ويطمئنها على أمها وأخوتها ، ويدس فى يدها خمسة قروش من راتبها الشهرى ، ويعود . شغله انتزاع اعترافها بمكان المحفظة ، دون أن يسألها إن كانت قد سرقتها بالفعل ، أو يصغى إلى صراخها وتوسلاتها . ظلت

فى مكانها ، تكتم الألم ، وتنصت إلى إلحاح أبيها بألاّ يبلغ سيدها البوليس ، وأنه لن يتركها حتى تعيد المحفظة . فتحت باب المطبخ ، وجرت بآخر ماعندها ..

لاحظ محمود عباس الخوالقة حيرتها فى محطة دمنهور . سألها ، فأجابته . رافقته ـــ يائسة ـــ إلى الاسكندرية . تنقل ـــ لثلاثة أيام ـــ بين أصدقائه ، ثم تركها . التقطت طرف الخيط ، فعادت إلى الشقق بمفردها ..

فاجأها بالسؤال :

ـــ لماذا سميت أنسية ؟

قالت بعفوية اعتادها :

ـــ قالت لى أمى أن أبى اختار اسمى على اسم سيدة تركية ، لها أرض فى قريتنا ..

قال متضاحكاً :

ـــ أنت إذن أنسية التركية ..

مصمصت شفتيها :

ـــ ليت لى جمال التركيات !..

* * *

لمحته ــ وهما عائدان ــ يدس النقود فى الحقيبة القماش

. أجهشت ــ فجأة ــ باكية :

ــ تعدمنى !..

***

بعد أن اطمأن المعلم كشك إلى إغلاق أبواب القهوة ، لحقه صوت سيد الفران من الطريق ..

أدار المعلم ظهره إلى الداخل ..

قال مؤمن الدشناوى ، وهو يسحب الغطاء على صدره..

ــ وحدى جئت قبل الموعد ..

تخللت صوت المعلم ارتعاشة غضب واضحة :

ــ عرفوا السهر منذ يوم الإضراب ..

أضاف ، وهو يتأكد من التصاق الطاولتين :

ــ منذ الآن .. لن أسمح بأى تأخير !..

فلنعبــر النهــر أولاً

من حزب الشاذلى : اللهم إنك تعلم أنى بالجهالة معروف . وأنت بالعلم موصوف . وقد وسعت كل شئ من جهالتى بعلمك ، فسع ذلك برحمتك ، كما وسعته بعلمك . اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة . أنت تحكم بين عبادك ، فهنيئاً لمن عرفك ، فرضى بقضائك ، والويل لمن لايعرفك ، بل الويل ، ثم الويل ، لمن أقر بواحدانيتك ولم يرض بأحكامك . ياشديد البطش ، ياجبار ياقهار ياحكيم . نعوذ بك من شر ماخلقت ، ونعوذ بك من ظلمة ماأبدعت ، ونعوذ بك من كيد النفوس فيما قدرت ورأست ، ونعوذ بك من شر الحساد على ماأنعمت . ونسألك عز الدنيا والآخرة ، كما سألكه نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : عز الدنيا بالإيمان والمعرفة ، وعز الآخرة باللقاء والمشاهدة . إنك سميع قريب مجيب . واذكرنا إذا أغفلنا عنك بأحسن ماتذكرنا به إذا ذكرناك . وارحمنا إذا عصيناك بأتم ماترحمنا به إذا أطعناك . واغفر لنا ذنوبنا ،

ماتقدم وماتأخر . والطف بنا لطفاً يحجبنا عن غيرك ، ولايحجبنا عنك . إنك بكل شئ عليم ..

***

عاد إلى البيت – للمرة الأولى – قبل أن ينتصف الليل..

جلس فى الصالة يقرأ . الأولاد ناموا فى حجرتهم ، وحجرته مضاءة . رأى أم الأولاد مشغولة برتق الثياب . تركها ، وعاد إلى الصالة ..

عمل ــ بتوصية من أمين عزب ــ شيالاً فى الميناء . حمل أجولة قمح من البواخر إلى السيارات . تنقلها إلى شون الورديان . تقاضى ــ فى عصر كل يوم ــ ثمانية عشر قرشا . فاجأه الولد عبد العال صبى الحاج قنديل بنظرته المتسائلة :

ــ هل تركت مهنتك ؟

زفر فى ضيق :

ــ معلمك أنسانى مهنتى ..

ــ أكلمه لك ، فتعود إلى البلانس ..

رفت على شفتيه ابتسامة مهزومة :

ـــ لا أريد إلاّ أن يتركنى فى حالى ..

تسلم مكافأة اليوم التالى ، مشفوعة بالاستغناء عنه ..

فاجأ الإمام ، ونصف الدائرة حوله ، فى درس المغرب:

ـــ إقض بينى وبين الحاج قنديل ..

أخلى الإمام وجهه للدهشة :

ـــ لماذا ؟

ـــ يرفض إعادتى إلى البلانس ، ويحاربنى فى رزقى..

اتجه الإمام بنظرته الداهشة إلى الحاج قنديل ..

ظل الحاج قنديل ساكناً ..

ارتفع صوت حمادة بك :

ـــ هذا ـــ يا مولانا ـــ مجلس علم ..

فتش الإمام عن الكلمات : هل يرضى جلساءه فى نصف الدائرة ، فيغضب الآخرين ؟..

أعفاه الراكشى من الحرج ، حين مضى ناحية الباب الرئيسى ..

* * *

قال له الشيخ يوسف بدوى :

ـــ الصوفى الحقيقى لا يكره .. والمحبة درجات أولاها رفض الكراهية !

ووضع يده ـــ بود ـــ على كتفه :

ـــ إذا كنت مخلصاً فى توجهك .. فابدأ ..

التمعت عيناه بحيرة :

ـــ كيف ؟..

قال الشيخ :

ـــ صل ، وصم ، وأد الفرائض أولاً ..

استطرد موضحاً :

ـــ توضأ .. وصلّ ركعتين بنية التوبة والإنابة . ثم اقرأ واستمع ، حتى تجد فى نفسك استعداداً للتعلم ..

وتسارعت حبات مسبحته :

ـــ العلوم والمعارف ثمرات التصفية والتطهير .. فإذا تطهرت الأسرار ، ملئت بالعلوم والمعارف والأنوار ..

اقتصرت دنياه ـــ بعد العودة من الحلقة ـــ على الجوامع والمساجد والزوايا والحصر والأبسطة والمنابر والأعمدة الرخامية والقباب والأضرحة والأهلّة والمصاحف والكتب الدينية والسبح والبخور والخيام والسرادقات والحضرة

وحلقات الذكر وترتيل القرآن والإنشاد وسماع المدائح النبوية والتسابيح والتواشيح والأهازيج الصوفية والدعوات والابتهالات والعزائم ودقات الدفوف وإيقاع الطبول وأنغام الربابة وأصوات المنشدين والصمت والانزواء والانفراد والتواجد والشطح والهزات العنيفة ..

كان يصلى العشاء ، ويخلو إلى القرآن والأوراد والأحزاب وكتب الصوفية ، لا يقوم من مجلسه إلا عند طلوع الفجر . وكان يصلى الفجر بوضوء العشاء . وقرأ فى مناقب الصالحين ، وكرامات الأولياء ، وأخبار الفتوح والغزوات ، وشمس المعارف الكبرى فى السحر ، وكتب الأوراد والوعظ والإرشاد ، وسير الهلالية والزناتية وعنترة والظاهر بيبرس وسيف بن ذى يزن ..

أدرك أن المقام صعب المرتقى . أزمع أن يختم كل أسبوع ختمة . قارئ القرآن فى آخر درجة . فدرجات الجنة على عدد آيات القرآن . لزم طريق الاستقامة ، وتستر ستر الإخلاص ، وطهّر نفسه بالعبادة ، وطهّر الروح بدوام الذكر . حرص على مبادئ النهايات : الصلاة ، والصوم ، وبذل ما فى اليد ، وشوق النفس إلى الحج . ترك لله أمره ، يتولاه

، ويحفظه من العصيان . ودعا الله أن يعصمه من الحسد والغل والحرص والطمع والشره ..

صرف قلبه عن المخلوق إلى الخالق . خلف دنيا الناس وراءه . مضى مع المسارعين إلى ظل الله ، أهل المجاهدة والأوراد . ألقى همومه فى مياه البحر ، متلاحقة الأمواج إلى غير انتهاء . سرح فى لا نهائية الأفق . استغرقته لحظات من التبرى والتخلى عن كل الدعاوى والغايات ، وعاد إلى بداية البداية . حفظ أسماء الخلوة : يا ألله ، يا حى ، يا قيوم ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا نهاية النهايات ، يا نور الأنوار ، يا روح الأرواح . حجبت أنوار التقوى ظلمة الغفلة ، وتوقد القلب بنار الذكر، وطار إلى الله اشتياقاً ..

قال له الشيخ :

ــ الحزب بلا وقت مخصص لقراءته . أما الأوراد ، فإنها تقرأ فى أوقات منتظمة بالليل والنهار ..

لازم الشيخ يوسف بدوى ملازمة المريد الصادق لشيخه العارف . يخفض عينيه فى مواجهة نظرات الشيخ . تلتمع ببريق لم يجده فى عينى رجل آخر . إذا لم يتكلم ، ضغطت أسنانه ــ بعفوية ــ على شفته السفلى ، وذقنه مشذبة ، أشبه

بإطار رقيق مختلط السواد والبياض ، وعباءته السوداء الشفافة مسدلة على جلباب من البوبلين الخفيف ، بما يناقض الجبة والكاكولا ، زى المشايخ ..

حفظ الأوراد : ورد الليل ، وورد النهار ، وورد السفر ، وورد البحر ، وورد الجو ، وورد التهجد ، وورد السحر . انتظم فى قراءتها . بها العمل ولاحساب فيها ، ويوم القيامة حساب ولا عمل ..

قرأ فى الوحى والرؤى والملائكة والشياطين والكرامات والمعجزات والمكاشفات والصفات واللوح والقلم ، وحقائق الرسل والأنبياء والموت والقبر والغيبيات والخوارق والحشر والميزان والصراط والحساب والجنة والنار ، وأسرار العوالم الأخرى ، والأرواح الساكنة فى الحيوان والطير والزواحف ، والأحلام وتأويلها ، والطب الشعبى ، وقراءة الطالع ، وبركات العباد والزهاد والورعين والمريدين والعارفين ..

قرأ فى تقاليد الصوفية ومراسمها : الموالد السنوية ، والأحزاب ، والأوراد ، وحلقات الذكر والسماع والإنشاد ، والعهد بين الشيخ والمريد ..

كان قد شاهد الأقل من تلك المراسم ، ولم يتعرف إلى غالبيتها ..

قرأ لابن عربى ، والجيلانى ، والنابلسى ، والشعرانى ، والحلاج ، والبسطامى ، والأشعرى ، والشاذلى ، وأبو العباس . وقرأ الوجيز لابن عطية ، والمصابيح للبغوى ، وإحياء علوم الدين للغزالى ، وختم الأولياء للترمذى ، وقوت القلوب للمالكى ، والرسالة البيانية للقشيرى ، واللمع للطوسى ، وبردة البوصيرى ، وديوان ابن الفارض . وقرأ فى الزهد والتقشف ومخافة الله ومجاهدة النفس . زاد ، فقرأ فى الحب الإلهى والطاعة المجردة عن الرغبة والرهبة . ثم قرأ فى الفناء والجذب والمحو والغيبة والكتاب والبقاء والحلول والتجلى . وقرأ عن الصالحين والمحبين والمطيعين والمشتاقين والمقربين . وحصل على سير وشروح وتفاسير ومعارضات ..

حفظ الذكر : الفناء والبقاء ، الموت والحياة ، التخلص من آثار الرغبة والأنانية ، تثبت الروح فى طهرها وبراعتها ..

قرأ فى المقامات والأحوال والشوق والصبر والخوف والرجاء والقرب والبعد والزهد والأنس والبسط والقبض والمراقبة والهيبة والمشاهدة وسائر الأحوال ، والوقت والوجود والجمع والتفرقة والصحو والذوق والمحو والإثبات والتجلى والمحاضرة ..

عرف مقامات الإيمان بالله وملائكته ورسله ، وباليوم الآخر والغيب وقضاء الله وقدره : التوبة ، والشكر ، والصبر ، والخوف ، والرجاء ، والتوكل ، والتوحيد ، والزهد ، والفقر ، ومحبة الله ، والأذواق الباطنية ، والأنس بالله ، والرضاء بأحكامه ، والشوق إلى يوم اللقاء ..

تعرف إلى معان لم يكن يعرفها ، تصور أنه لا يصح أن يعرفها مسلم : الحب ، الخمر ، الشرب ، السكر ، المدام ، الكأس ، الصد ، الهوى ، الجفا ، الوجد ، العتاب ، الصبابة ، العشق ، التوله ، الوصال ، الهيام ، الندامى ..

زاد على ماقدمه الشيخ إليه . تردد على مكتبة أبو العباس ، وعلى المكتبة الحجازية أول شارع الميدان ، ومكتبة حمامة النن بالموازينى ، وباعة الكتب على رصيف شركة ليبون بالمنشية الصغرى . يستعير الكتاب لليوم التالى

. يظل ساهراً ، يقرأ ، ويقرأ ، ويقرأ . لا يخلو إلى فراشه إلاّ إذا قهره النوم ..

انصرف إلى رياضات العزلة والخلوة والصمت . فى صحن أبو العباس . فى ركن يطل على الدحديرة الخلفية ، يبعد عن زائرى الجامع ، وحتى عن المنشغلين بأداء ركعات السنة . لا يغادر مجلسه إلاّ لأداء الصلاة فى مواقيتها ، أو للتردد على مساجد الحى الأخرى ، أو لبيع شروة يحصل عليه من حمودة هلول ، أو للذهاب إلى البيت بعد إغلاق أبواب الجامع . يفتح النافذة المطلة على زاوية الزواوى ، ويضئ لمبة الصالة . يكتفى بالضوء المنبعث منها . يتربع فوق مخدة صغيرة ، يخلو إلى بحر يغيب أفقه ..

لجأ بالسؤال إلى علماء الشرع والفقهاء وأهل الحديث والتفسير . مجالس الأئمة فى ياقوت العرش والبوصيرى وعلى تمراز . واستأذن فى الجلوس إلى قاضى المحكمة الشرعية بشارع فرنسا . وأنصت إلى اجتهادات مشايخ الطرق فى موالد أولياء الحى . لم يفرق بين جامع وآخر ، ولا بين جامع ومسجد وزاوية ، ولا بين إمام ذائع الإسم ، أو آخر مجهول . يستزيد من العلم ، دون انشغال بالمصدر .

يسقط ذقنه على صدره ، ويغمض عينيه ، وينصت . يترك الأسئلة للمحيطين ، لايسأل إلاّ إذا أوشكت الجلسة على الانفضاض . يغالب حياءه برفع إصبعه . يأذن له الإمام ، فيسأل . لا يطيل ، ولايعلو صوته . يهمس بالسؤال فى كلمات قليلة ، ثم يعطى انتباهه لإجابة الشيخ ..

لاحظ أمين عزب ــ فى انحناءة الطريق إلى الميناء الشرقية ــ ثيابه المتسخة ، وإهمال شعر رأسه . علت الدهشة بصوته :

ــ من أرى .. على الراكشى أم الشيخ حماد ؟..

اعتاد الناس رؤية الشيخ حماد داخل المساجد ، وأمامها ، وفى حلقات الذكر ، وفى الشوارع ، وعلى أبواب الدكاكين . جسمه الضخم ، وشعره المهوش ينسدل على كتفيه ، ويتداخل مع شعر ذقنه ، وفمه المنفرج عن شفتين متدليتين ، وأنفه الذى أجهده زكام دائم ، وخطواته المهرولة . تتوقف ، فيظل فى مكانه ، يرنو إلى الناس والأشياء ، كالمتأمل . ثم يطلق الصيحة بآخر ما عنده : حى !..

كان معظم الوقت غائب الحس . عرفه الناس من أهل الجذب والصحو والكرامات ، وإن لم يكن أحد يعرف عن

حياته شيئاً . من أين أتى ؟ أين يقيم ؟ أين يختفى عندما تطول غيبته ؟ وبمن يلتقى ؟ ومن أين ينفق ــ وهو يرفض مساعدات الناس ــ على نفسه ؟. ولم يكن يتقاضى مقابلاً حين يسبق فى الطريق أم طفل تائه . يكتفى بالقول : يا عدوى .. ويسأل الناس المرأة عن طفلها التائه ، وإن روى دياب أبو الفضل أنه رآه يختلى ببائعة فجل فى ضريح سيدى كظمان . تبينهما دياب فى غبشة الفجر . سبقت صيحة الرجل بانجذابه صيحة دياب بإعلان الفضيحة . تكاثفت الهمسات والتساؤلات والتخمينات ، وإن لم تلتق على تصور محدد . عرف الناس أن له حالات وكرامات ، منجذب إلى قوى يراها ولا يرونها ، فلا أحد يسأله عن تصرفاته وأقواله . يحدث نفسه ، ويعلو صوته بما يصعب تبينه ، ويلوح بيده ، ويبتسم ــ ويكشّر ــ لمن لا يرونه . واشتهر بالكلام على الخاطر ، والإخبار بالمغيبات الماضية والحاضرة المستقبلة . ربما تكلم بكلام من الحكمة . وقد يفاجأ جالساً أو ماراً بشتمة أو بصقة أو ضربة عصا ، قيل إنه يتجه بها إلى من أغضب بعصيانه الله . وكان يعروه فى بعض الأوقات ذهول ، فينصرف عن الناس ، لايستمع إليهم ، ولا يحادثهم . يمضى

فى طريقه ، أو يقف حيث هو ، وتتجه نظراته إلى مالايراه أحد . لم يكن ـــ مع جذبته ـــ يترك من الصلاة فرضاً . يؤديها فى المسجد القريب ، لايتردد على مسجد بالذات ، وربما خلع نعليه على رصيف ، وكبّر بالصلاة ، وإذا تناهت إليه أصوات ذكر أو تواشيح أو ابتهالات ، دارت رقبته ـــ بتلقائية ـــ فى تناسق مع النغم .

دبر على الراكشى الكلمات فى ذهنه . لاكها فى فمه . غمغمت شفتاه بما لم يتبينه أمين عزب ، فهز رأسه ـــ متحيراً ـــ وواصل السير إلى قلب السيالة ..

أحس أن مناهل استزادته تتسع ، فاشتطت به الأشواق ، واقتصرت صداقاته على العارفين والزاهدين والعابدين والمشايخ والمنشدين وسمار الليالى وأهل الطريق . وأكثر من الاستغفار والتسبيح والصلاة على النبى ..

فاجأه الشيخ وهما ينزلان الدرجات الرخامية البيضاء :

ـــ أنت لن تصل إلى ما تريد .. لأن ما تريده بلا غاية ..

وخالط صوته حسم :

ــ مهما تبلغ من منزلة ، فستظل فوقك منازل ودرجات..

وتوقف عن السير . وقال للتساؤل فى ملامحه :

ــ ما لم تنضم إلى إحدى الطرق ، فستظل من أهل الظاهر والرسوم !

أضاف لحيائه المطرق :

ــ الحرص على العلم والتعلم ، هو البداية فى الطريق..

ولجأ إلى تعبيرات يديه موضحاً :

ــ لابد فى البداية ، أن يتأدب المريد على شيخ يثق فى علمه ..

زاد إصراره على أن يكون من الشاذلية ، لما قرأ أنهم يختصون بثلاثة أشياء ، لم تكن لأحد قبلهم ولا بعدهم : الأول أنهم مختارون من اللوح المحفوظ . الثانى أن المجذوب منهم يعود إلى الصحو . الثالث أن القطب منهم دائماً أبداً إلى يوم القيامة ..

خلا إلى حياة قطب العارفين . كان يعرف الإسم والصفات المطلقة . تغيب السيرة التى ولدت الطريقة

والتلاميذ والمريدين والأتباع . انفتحت أمامه دنيا واسعة ، تفيض بلطائف الحكمة ، وحقائق المحبة ، وأنوار العلم ..

همس لنفسه ، وهو يميل من شارع الحجارى فى طريقه إلى البيت : هل يصبح ــ ذات يوم ــ من الأقطاب ؟.. يؤدى ورده بمفرده ، يتخطى اجتهادات أهل النجدة ، وأهل الغيب . يبدّل خلقاً بعد خلق ، ويصفى تصفية بعد تصفية ؟.. يعلم ما لا يعلمه إلاّ الصفوة المختارون ؟.. تشرق عليه أنوار الأرواح السماوية العرشية ؟.. يعرف حقائق الأسرار ، وكيفية الصعود والنزول والاستواء ، وسر الاستمداد والتدبير والتسخير . يظهره الله إلى الوجود ، يصرفه إلى الكون ، ينطقه بالمغيبات ، يخرق له العوائد ، يقلب له الأعيان ، يظهر على يديه العجائب والمكاشفات . يمشى على الماء والهواء ، يطوى الأرض ، يركب السماء ، يكلم الملائكة والأرواح المهيمة فى جلال الله تعالى ، والجماد والحيوان الذى لاينطق ؟..

هون الأمر بأن الأقطاب كانوا مريدين صغاراً ، ثم تدرجوا . فهل يتاح له التدرج والترقى ، فيصبح من الأبدال

، والنجباء ، والنقباء ، والأبرار ، والأوتاد ، ثم يصبح قطباً ، له فضائله ومكاشفاته ؟..

فى قهوة مخيمــخ

قال الجد السخاوى بنفس مكروش :

ـــ أنا قادم من القضاء ..

همس قاسم الغريانى لحمودة هلول :

ـــ يقصد مساكن السواحل .. اسمها أيام عرابى !..

اختار الجد السخاوى كرسياً بجانب طاولة ، تفصل بينه وبين حمودة هلول . الجدران مغطاة بالخشب المكفت ، تزينه قطع مرايا هائلة . والكراسى خشبية ، قاعداتها ومساندها العلوية جدائل مصنوعة من الخوص . وثمة ـــ على الجدران ـــ صورة لخالد بن الوليد يطعن بسيفه ، من فوق جواده ، مسيلمة الكذاب ، الملقى تحت قدميه ..

كانت مساحة الظل قد اتسعت ، فملأت ميدان المساجد . يشغى بالناس ، والباب الجانبى لأبو العباس فتح لصلاة المغرب ، والمتصوفة يسندون أجسامهم وأعلامهم على جدران الجامع ، استعداداً لحلقات الذكر ..

لمح الجد السخاوى شهاباً ساقطاً فى نهاية الأفق ، عند نهاية السلسلة ..

قال بتلقائية :

ــ سهم الله فى عدو الدين !..

كان يرتدى جلابية من الزفير . وعلى رأسه طاقية بيضاء. ودس قدميه فى قبقاب خشبى ، يصدر ــ إذا سار ــ صوتاً ذى إيقاع ..

ضحك حمودة هلول لملاحظة أبداها قاسم الغريانى ، وأكدها باقى الرجال . الذباب لايقترب من الجد السخاوى ، لايقف حتى على ثيابه ، كأنه يعرف مكانته بين الصيادين ..

قال الجد السخاوى :

ــ المظاهرات بطول الكورنيش ترفض قرار مجلس الأمن بتقسيم فلسطين .. مزق المتظاهرون علم أمريكا ، وداسوه بالأقدام ..

قال قاسم الغريانى :

ــ معلوماتى فى السياسة مثل معلومات حمودة هلول فى الهنك ..

وطوح بقطعة حبل فى الهواء :

ـــ مع ذلك فإنى أسأل : لماذا لانقبل .. ثم نساوم ؟

ثنى إليه الجد السخاوى ملامح متسائلة :

ـــ نساوم على أرضنا ؟

قال الغريانى :

ـــ أفضل من البكاء ـــ فيما بعد ـــ على ماخسرناه ..

قال حمودة هلول :

ـــ مع أن الغريانى اسكومندو الجد السخاوى فإنهما لايتفقان إلاّ فى حب البحر !..

قال عبد الوهاب افندى مرزوق الموظف بمكتب صحة الجمرك ، بنبرة عليمة :

ـــ هذا قرار تقف وراءه الدول الكبرى ..

رغم تقدم عمره ، فقد ظل شعره أسود كثيفاً . دهنه بالفازلين ، ومشّطه إلى الخلف . يقص ذقنه ، لايطلقها ، ولايحلقها بالموسى . وكانت جبهته تبرق دائماً ـــ حتى فى الشتاء ـــ بقطرات عرق . وكان يرتدى بدلة من الكتان البنى ، وحذاء أبيض على بنى ..

قال محمود عباس الخوالقة لمحيى قبطان :

ـــ هل قررت إطلاق لحيتك ؟

قال محيى قبطان :

ــ زوجتى نفسة .. لاأستطيع أن أدخل عليها وأنا حالق ذقنى أو رأسى .. ربما تنشهر أو يتكبس لبنها ..

كان محمود عباس الخوالقة قد وصل إلى الثالثة الابتدائية ، ثم عمل مع أبيه فى البلانسات ، وفى الحلقة . الحاج قنديل شدد على أبنائه ، فلا يترددون على الحلقة أو القهاوى . تخرجوا من الكليات ، والتحقوا بوظائف فى الحكومة ، وتزوجت الإبنة الوحيدة . لايعرفون حتى الصيادين الذين يعملون على بلانسات الحاج قنديل ، ولاالسماكين الذين يتعاملون معه . لم يكن يشغل المعلم عباس الخوالقة ، رؤية محمود ومصطفى فى القهوة . ولم يكن يضع على مائدته أسماكاً يسهل صيدها ، طُعْمها البسارية والجمبرى الميت وقطع الخبز المبلول . ثعابين البحر والكابوريا أطباق دائمة ، ولحم الترسة طبق رئيسى فى غداء كل جمعة وأحد . ربما أوصى بشراء لحم قرش من البحر الأحمر . الأسماك المفترسة والمؤذية تؤثر فى قلب من يأكلها . يواجه الخوف والمجهول ، لايميل فى أول انحناءة . عاونه محمود ومصطفى فى الحلقة . لم يركبا البحر لصيد ،

وإن أجادا السباحة والدخول بالفلوكة فى عز النوة . عرف عنه أنه لايختار جلساءه . يرحب بالحاج قنديل والحاج محمد صبرة وحمادة بك وعبد الرحمن الصاوى ، ويدعو خميس شعبان ومحيى قبطان وقاسم الغريانى وبقية الصيادين والسماكين فى الحلقة . البلانس للصيد ، والحلقة للبيع ، والقهوة لقضاء الوقت والمودة والمؤانسة . وإذا جلس فى القهوة فإنه ــ وحده ــ يدفع حساب كل الجالسين معه ، حتى حمادة بك كان يضغط على يده إن امتدت إلى جيبه ..

وقف الجالسون لجنازة فى طريقها من الحجارى إلى مقابر العامود . همس الغريانى لصوات امرأة :

ــ صواتها جميل .. ليتها تصوّت فى بيتنا !

قال الجد السخاوى :

ــ من كان يعلم أن الكورنيش سيحيط بالإسكندرية ؟

قال عبد الوهاب مرزوق :

ــ خلقت الاسكندرية بالكورنيش خلقاً جديداً ..

قال حمودة هلول :

ــ لو أنى كنت أعلم بالكورنيش ، ربما كنت أبيع كل ماعندى لأشترى أرضاً على البحر ..

قال محمود عباس الخوالقة :

ــ أبى سمكة ماؤها السيالة ..

لما عرض على أبيه شراء بيت فى طريق الكورنيش ، رفض . عرض هدم البيت ، وإقامة بيت جديد . رفض عباس الخوالقة . هاجسه أن هد البيت سيؤدى إلى انهيار البيوت القديمة المجاورة ، المتلاصقة ..

قال قاسم الغرياني :

ــ هل أصبح الستر عملة جديدة ؟

قال عبد الوهاب مرزوق :

ــ انتهت الحرب ، واستقرت الأمور .. مع ذلك فما تزال غالبية بيوت الشاطئ ترفع لافتة شقق للإيجار ..

قال حمودة هلول :

ــ لماذا لايحاول المقتدرون ــ مثل حمادة بك ــ أن يفيدوا من هذه الفرصة ؟..

قال صابر الشبلنجى لحسان عبد الدايم :

ــ لماذا لاتستأجر شقة على الشاطئ .. بدلاً من جحر حارة قراقيش ؟!

قال حسان وهو يدفع بيديه خطراً مجهولاً :

ــ وأين أذهب من الجد السخاوى ؟

كان الجد السخاوى دائم التحدث ــ والسخط ــ عن بدعة انتقال أبناء الأنفوشى ورأس التين إلى منطقة الرمل ، والعمارات الجديدة فى طريق الكورنيش . أصاب الناس خبل ، بعد إنشائه فى ١٩٣٤ . نسوا أصولهم ، ومهنتهم ، وأولياء الله الذين يتبركون بجيرتهم ، وانطلقوا إلى المناطق والعمارات الجديدة . لم يعودوا يعرفون من الاسكندرية سوى الرمل وطالع ..

قال الغريانى :

ــ حسان يدفع ثمن تكاسله عن الحصول على شقة أيام الحرب ..

وأردف فى نبرة متصعبة :

ــ كانت الشقق الخالية على قفا من يشيل ..

قدم الجرسون هارون شاياً لخميس شعبان ، فرفضه . قال :

ــ هات كوب كزبرة مغلية ..

قال هارون :

ــ قد لاأجد كزبرة .. تأخذ كموناً ؟..

قال خميس شعبان :

ـــ لا.. أحس بانتفاخ فى البطن .. الكزبرة أفيد ..

قال صابر الشبلنجى :

ـــ مسكين سيد الفران .. تزوره الكوابيس كل ليلة .. نصحه الشيخ جابر برغوت بتعليق جورب بشكل تقاطعى ناحية قدميه من السرير ، بعد أن يشبكه بدبوس ..

استطرد متحسراً :

ـــ المشكلة أن سيد لم يرتد جورباً فى حياته .. ولاينام

ـــ مثل العبد لله ـــ على سرير !

ألقى محمود عباس الخوالقة ببقايا السيجارة فى الطريق وهو يقول :

ـــ دستور !..

قال للدهشة فى وجه حسان عبد الدايم :

ـــ ربما أصابت واحداً من اخواننا .. علىّ أن أعتذر له..

انتفضوا لصيحة مفاجئة من خليل افندى زيتون . ثنى إليه قاسم الغريانى ملامح مبتسمة :

ــ لاتحزن ياخليل افندى .. عثرت لك على عروس مناسبة ..

كان خليل زيتون من أسرة موظفين ، يغلب على أفرادها الانطواء . تزاوج تردده على البلقطرية ومساجد الحى . اكتفى من تدخين الحشيش ــ فى البداية ــ بالقطعة . لايجاوز الدخان الفم إلى الحلق ، ثم يطرده ، ويمضغ ليمونة كاملة . إذا طالت الجلسة ، لايتأثر ، ولايغيب ذهنه . ثم جاوز تدخين الحشيش إلى مضغه . وقال لجلسائه فى لحظة صفاء : لو أن جسمى عُصِر ، فسينتهى إلى قطعة حشيش !. وقال : الحشيش هو أفضل وسيلة لتحقيق المساواة بين البشر !. وفاجأ رواد قهوة مخيمخ ، لما أقبل عليهم ــ ذات مساء ــ يرتدى طربوشاً بغير زر . قال للنظرات المستغربة : لم أجد لزر الطربوش فائدة ! .. اعتاد الناس رؤيته ــ فيما بعد ــ فى شوارع بحرى . اعتادوا صيحاته ونداءاته واستغاثاته ، وجلوسه ــ منفرداً ــ على القهوة ، يتحدث مع نفسه . يهمس صوته ويعلو ويغضب ويتشاجر ويزعق ، لاينشغل به الرجال ، ويمنعون الأولاد من أذيته ، فهو بركة ..

قال عبد الوهاب مرزوق :

ـــ المجانين وحدهم هم الذين كانوا يشترون بيوتاً تطل على البحر . كان الشاطئ ـــ قبل إنشاء الكورنيش ـــ مجرد رمال وصخور ومياه لايردها سور ..

قال الجد السخاوى :

ـــ عندما بنى صدقى الكورنيش ، لم يكن فى الاسكندرية سوى الأنفوشى والشاطبى .. ثم تضاعفت الشواطئ إلى المنتزة ..

وعلا صوته بلهجة متباهية :

ـــ هذا الشاطئ هو أصل الاسكندرية !..

قال مختار زعبلّة :

ـــ أريد أن أركب البحر ..

قال قاسم الغريانى :

ـــ إركب امرأة أحسن !..

أغمض عينيه ، وأردف :

ـــ قبل أن أموت .. سأوصى أن أدفن فوق امرأة !..

قال محمود عباس الخوالقة :

ـــ كنت ظهر اليوم فى سوق الدقاقين ..

قال حسان عبد الدايم :

ـــ خيراً ..

قال محمود :

ـــ بحثت عن وصفة لعلاج الكحة التى طالت مع أبى ..

قال الجد السخاوى لخميس شعبان :

ـــ إذا أكثرت من أكل الخضروات . فلن تكون بحاجة إلى طبيب ..

قال محيى قبطان :

ـــ خميس فى حاجة إلى دواء ينقذه من الخوف !..

عرف عنه الرجال تلفته لأقل صوت . كأنه يتوقع قادما ، أو يخشى المجهول : كلاكس سيارة ، سقوط مجداف ، ارتطام باب ، وقع أقدام ، نداء ، تعالى أذان من مسجد قريب . ينتفض كالمنتبه ، أو ينصت باهتمام . ربما مال ـــ بعفوية ـــ كأنه يفر من المكان . ابتدره على الراكشى ـــ يوماً ـــ بالسؤال : هل تتوقع أحداً ؟.. غالب انفعاله : لاأحد !..

لحظت المرأة النظرات الموجهة إليها ، وإن تظاهرت بأنها تنظر إلى الناحية الأخرى من الطريق ..

هتف قاسم الغريانى وهو يصفق بيديه :

ـــ أحب السمك الرعاش !..

وأسند ظهره إلى الكرسى :

ــ إنها امرأة مثل الترسة .. يكفى أن تقلبها على ظهرها ، فيسهل صيدها !..

قال الجد السخاوى :

ــ لولا بركات أولياء الله ، لاحترق هذا الحى من فساده..!

ــ لماذا لاتتزوج ؟..

عرف الغريانى من نظرة حمودة هلول المتسائلة ، أنه يقصده بالكلام . قال :

ــ ولماذا أقيّد نفسى ببيت وزوجة وأولاد ؟.. لماذا أحمل نفسى مسئولية لاأقوى عليها ؟..

كان فى حوالى الثامنة والعشرين . طويل القامة . أميز مافى وجهه عينان لوزيتان ، واسعتان ، شديدتا الالتماع ، وحاجبان كثيفان . تدلى شعره على عنقه وقفاه ، وشفته السفلى ممتلئة . وله شارب نحيل يميل إلى الصفرة . يرتدى سروالاً طويلاً واسعاً ، فوقه صديرى ، وفى قدميه حذاء من الكاوتش . لم يتزوج ، وإن عرف عنه ميله إلى النساء . يعرّى المرأة الواقفة ــ أو المارة ــ أمامه من ثيابها . يتخيل

التفصيلات الدقيقة ، يحكى على القهوة تخيلاته ، كأنه رآها بعينيه . لايشغله إن كانت المرأة زوجاً أو أختاً لأحد أصدقائه . جعلت النساء للمتعة فى كل أشكالها ..

رماه دياب أبو الفضل بنظرة ضيق :

ــ لو أنك على الأورمة .. لاكتفيت بقطع رأسك !

قبل طلوع الفجر ، يغادر حمام الأنفوشى . يقف أمام " أورمة " فى الحلقة . ينظف شروات السمك الصغيرة ، إلى ماقبل الظهر . يتوالى فتحه لبطن السمكة ، يخرج أحشاءها ، يغسلها بالماء المالح ، ينظف القشور من الجسم ، يقذف بها فى الطبق النحاس المجاور . تنتهى الشروة ، أقة أو أقتين ، يقذف بها فى القرطاس ، ويضع على الأورمة شروة أخرى . يغادر الحلقة . يوزع وقته بين قهوة الزردونى وقهوة مخيمخ ، ومشاهدة مباريات الكرة فى الساحة الترابية ، الملاصقة للحلقة . حتى الغداء يتناوله فى مطعم النبلاء . ربما تسكع فى الشوارع والحوارى بلا هدف . يلقى السلام على من يعرفه ، أو يأخذ منه ويعطى . يشارك فى الموالد وحلقات الذكر ، وإن اكتفى بأداء صلاة الجمعة فى سيدى نصر الدين .

قال محيى قبطان :

ــ الغريانى مثل فأر المركب .. عامت يقرقش .. غرقت ينط على البر ..

قال الغريانى :

ــ أنا لاأريد لأحد أن يشاركنى حياتى ..

قال حمودة هلول :

ــ لكنك تريد من يخدمك ..

قال الغريانى :

ــ هل أعجز عن تدبير اللقمة وغسل الهدمتين ؟..

وأشاح بيده ، فبدا أصبعه الخنصر مختفياً . قضمته ترسة بكفيها :

ــ لاتنس أن معظم حياتى فى البحر !

قال عبد الوهاب مرزوق :

ــ ماأجمل أن تعود لتجد امرأة فى انتظارك ..

شوح الغريانى بيده :

ــ لايهم أن تكون هذه المرأة زوجتى !..

حين عرض دياب أبو الفضل علي قاسم الغريانى أن يقاسمه شقته ذات الحجرتين والصالة ، اعتذر بأنه ألف الحياة

بمفرده . لايستطيع أن يحيا مع شخص آخر ـــ ولو كان صديقاً غالياً ـــ تحت سقف واحد . وكان يتجه ـــ أحياناً ـــ إلى طريق الكورنيش ، يتمنى رؤية امرأة وحيدة ، تشاركه المغامرة ..

مع أن المعلمة أنصاف كانت قد جاوزت الشباب ، ولم تكن تعنى ـــ فى ترددها على بحرى ـــ بمظهرها ، فإن ملامح وجهها كانت تشى بجمال قديم . تدق الأرض بكعبيها ، فيتعالى رنين الجلاجل والخلاخيل . قيل إنها لاتتردد على بيتها بالأنفوشى ـــ قبالة الحلقة ـــ منذ استقرت فى كوم بكير ـــ إلاّ لضرورة . حتى آخر أزواجها عبد العال حلوفة ، غاب عن بحرى ، واقتصر على المدافعة عن نساء المعلمة ..

قال حسان عبد الدايم :

ـــ بالمناسبة .. المعلم التميمى صاحب اسطبل السيالة .. شاهدته أمس فى بار بكوم بكير ..

قال الجد السخاوى :

ـــ وأنت .. هل كنت تصلى هناك ؟!

قال حسان :

ـ كنت فى طريقى إلى كوم الناضورة ..

واستطرد مؤكداً بتعبيرات يديه :

ـ الحمد لله .. لاشأن لى بكوم بكير .. وشربت الخمر فى غلطة وتبت ..

جره الغريانى لشرب الخمر فى بار البوستة . أحزنه أنه لن يستطيع الصلاة أربعين يوماً . هكذا قال له أمين عزب حين صارحه بما فعله . روى أمين عزب حديثاً عن الرسول ، يؤكد المعنى . أثر الخمر يظل فى جوف المرء وعروقه وأعضائه أربعين يوماً كاملة ..

سرحـــت أخيلة الرجال فى الحى القريب : قوادين ، وبرمجية ، ونساء صبغن الوجوه بالبودرة الملونة والأقلام وأحمر الشفاه ، وأسدلن الشعور ، وارتدين قمصان النوم الشفافة ، والصنادل ذات الكعوب العالية ، تطل منها أصابع مطلية الأظافر ..

قال قاسم الغريانى :

ـ جعل التميمى من الملكة نازلى مثله الأعلى .. فهو يحرص على التلذذ بالحياة إلى آخر قطرة ..

قال مختار زعبلة لعبد الوهاب مرزوق :

ــ معى كابوريا ..

قال عبد الوهاب مرزوق :

ــ لاأحبها ..

قال مختار :

ــ إنها كابوريا حمراء ، وليست زرقاء .. طعمها أشهى ..

علا صوت الجد السخاوى :

ــ وهل للزرقاء طعم ؟.. فائدتها الوحيدة أنها تأكل الأسماك ، وتقضى على كل ماتصادفه !

قال حمودة هلول :

ــ فى السنة الماضية لدغتنى واحدة .. ومع محاولات الحاج محمد صبرة ، فلم أنم ثلاثة أيام بطولها ..

فاجأ الجد السخاوى مختار زعبلّة :

ــ هل أنت صياد بالفعل ؟..

دارى مختار ابتسامة مشفقة :

ــ ماذا ترى ؟..

قال الجد السخاوى :

ــ ولاكل من ركب الحصان ..

ثم وهو يدنى الكابوريا من عينيه :

ـــ إنها تسمّ البدن إذا دخلته ..

وقذف بها إلى أرض الطريق :

ـــ إكتف بالإسفنج .. فهو القطن الطويل التيلة عند الصياد ..

تنهد مختار زعبلة :

ـــ وماذا أعمل لظهرى الذى أقعدنى ؟..

حدق حمودة هلول فى القادم :

ـــ الحاج قنديل يطلبنا فى رحلة جديدة .

أولى مراتب السالكين

يـــارب صـــــل علـــى الحبيب محمـــــد
خيـــر الوجـــود المصطفى نـــور الهـــــدى

❋ ❋ ❋

الله الله نكبـــره الله الله ونذكـــــره
الله الله يجمعنـــا والنور تبين مشاعـــره
النور تبين بشائره والقلب طوته نظائـــره

❋ ❋ ❋

بـــدأت بســم اللـــه أدعـــوه ربيـــا
إلى كشف أســرار المــوالى الخوافيـــا
وصليت دومـــاً علــى الحبيب محمـــد
صــــلاة الحب للحبيـــب الهاديـــا
ســألتــك ياألله يامــن بـــك اهتـــدى
قلبى وروحــــى وفـــؤادى وعقليـــا
ألّف قلـــوب العالميـــن لقلبيـــا
وأمدنــــى يـــاذا الجــلال بنفحـــة
تجعـــل القلـــب والفــؤاد صافيـــا

قال الشيخ يوسف بدوى :

ــ لاتركب البحر على الشاطئ !

ثم وهو ينظر إلى مالم يتبينه على الراكشى :

ــ الذكر ــ كما قال أولياؤنا ــ أكبر من الجنة . الذكر نصيب الله ، والجنة نصيب العبد

وقال الشيخ :

ــ إن الجنة تبنى بالذكر ، فإذا حبس الذكر ، كف البناء..

يبدأ مجلس الذكر بالمستفتح . تنتظم على توجيهات الشيخ حركة الذاكرين بالإنشاد ، والإخلاص فيما هم مقدمون عليه . بستغرق فى الذكر ، فيخرج النور من فمه . ينداح فى المكان ، تشرق به وجوه المريدين ..

اشترى للطريقة ــ على نفقته ــ دفاً ، تضبط بإيقاعاته حركات السير فى مواكبها . حدد لهم طريقة الاهتزاز أثناء الذكر ، والجهة التى ينبغى أن يميلوا فيها ، عند نطق كل كلمة . يمد الكلمات ، يمطّها ، ينغّمها ..

قال الشيخ :

ـــ التوبة أول مراتب السالكين لطريق الصوفية..

وصمت حتى استرد أنفاسه :

ـــ التوبة هى أول مايجب أن نفعله فى الطريق الصوفى . إنها ـــ كما يقول إمامنا الغزالى ـــ مبدأ طريق السالكين ، وأول أقدام المريدين ..

قال على الراكشى :

ـــ فأنا إذن بدأت السير فى الطريق ..

قال الشيخ :

ـــ لاأستطيع أن أهب إشارة الاستمرار إلاّ لمن يستحقها . واصل تعلمك أولاً ..

لمحه يتثاءب وهو قائم يصلّى . طلب منه أن يستعيذ من الشيطان . نفخ فى أنفه ، حتى يتثاءب وهو فى الصلاة . كان يجب أن يتحرز ، فيضع يده على فمه ، حتى لايدخل الشيطان جوفه ..

تاب إلى الله ، واجتهد فى التمثل بالشيخ . اشتغل بأنواع المجاهدات ، من صوم وقيام الليل وقراءة القرآن وكثرة التسبيح . تعلم كيف يدخل الحضرة بخشوع وحب وطهارة كاملة . يغادر حمام الأنفوشى ، وقد تطهر جسده . يحاول ـــ

فى الطريق إلى أبو العباس ــ أن يطهر داخله أيضاً . يسقط ماعدا ذكر الله ، والانشغال بحبه ، والشوق لذكره . عرف أسماء : الأستاذ ، وإمام الوقت ، وشيخ العهد ، والنقيب ، والبدل ، والوتد . لكل مقامه واختصاصه . غفر الله لهم أجمعين . وقرأ فى الكبرياء ، والعزة ، والقوة ، والعظمة ، والإجلال ، والاتصاف بالقدرة التامة ، والعلم المحيط ، وسائر أوصاف الكمال . تعرف إلى عالم الأسرار والأنوار والرموز والإيحاءات والدلالات والمشكاة والزيتونة والظاهر والباطن والزيت الذى يضئ ولم يمسه نار . تمنى أن يطيب قلبه بنور التوحيد والمعرفة والإيمان . يطهّره الله من الأوساخ . يحفظه ويحرسه ، ويملأه محبة وخشية . يقفل عليه قفل القدرة . يصل إلى الكرامة العظمى : المعرفة ، والاستقامة ، ورفع الحجاب ، وفتح الباب ..

قال يوسف بدوى :

ــ قال شيخنا الشاذلى : من لم يتغلغل فى علمنا هذا ، مات مصراً على الكبائر ، وهو لايشعر ..

أقبل على التصوف ، والامتثال لأحواله ومواجيده . لم تعد الألفاظ عنده بلا معنى ، أو بمعانيها الظاهرة . صار لها

فى نفسه مدلولات أعمق : الذوق والوجد والقبض والبسط والهيبة والأنس والغيبة والحضور والسكر والمحو والفناء والبقاء ، وغيرها من الكلمات التى ينطقها الناس . يشغلهم معانيها الظاهرة ، دون أن يجاوزوا ذلك إلى عمق المعنى ، ودلالاته الخفية . لم يكن يستقر على حال ، فهو بين البسط والقبض ، والسرور والاكتئاب ، والميل إلى الكلام والعزوف عنه ، والإقبال على الناس والابتعاد عنهم ..

قال له الشيخ ، وهما يغادران أبو العباس عقب صلاة العشاء :

ــ أنت الآن متوسط سالك .. ومقامك يعنى ركوب الأهوال فى طلب المراد ، ومراعاة الصدق فى الأحوال ، واستعمال الأدب فى المقامات ..

نصحه بأن يتلو ــ كل مساء ــ قل هو الله أحد ، إحدى عشرة مرة . وقال للتساؤل فى عينيه :

ــ من فعل ذلك ، بنى الله له قصرين فى الجنة ..

أردف فى تأكيد :

ــ من قرأها ثلاثين مرة ، بنى الله له ثلاثة قصور فى الجنة ..

دعاه إلى أن يصقل مرآة قلبه ، يصفّيها من الخبائث الطبيعية . يمنع تراكم الصدأ داخل القلب والعقل ، يحسن التلقى والأداء ، فلا يقول حتى يعلم ، ولايرد مالم يعلم ..

حذره من أن يقصر همته على الأفعال الظاهرة ، دون أن يرى ماهو عليه من هذه الأفعال ، لايعرف الأصول ولاالمقامات ولا العلوم الوهبية اللدنية ، ولاالأسرار ولاالكشوف . لو أنه اكتفى بذلك ، فسيظل فى مرتبة العباد . مرتبة جليلة لها قدرها ، لكنها دون مايأمله منه ، ويتمناه له..

***

تأخر عن المريدين ــ ليلة ــ وقال :

ــ لقد اخترت شيخى ..

قال يوسف بدوى :

ــ من ؟..

وهو يومئ ناحيته :

ــ مولاى ..

قال الشيخ فى لهجة باترة :

ــ إذا أخذت العهد عليك ، فأنت ترتبط بى إلى الأبد ..

هز رأسه :

ـــ أعرف !

قال الشيخ فى لهجته الباترة :

ـــ لاتخالفنى ، ولاتعترض على . وتقدمنى فى كل الأمور على غيرى من المشايخ ، ولاتتردد على ولى من أهل العصر ، ولاصالح ، إلاّ بإذنى ، ولاتحضر مجلس غيرى ، ولاتسمع من سواى ..

وهو يخفض نظره:

ـــ أعرف !.. أعرف !..

خالط صوت الشيخ حدّة :

ـــ أنت معى على صورة الميت . لاحركة ولاكلام . لاتتحدث بين يدى إلاّ بإذنى ، ولاتعمل شيئا إلاّ بإذنى ، من زواج أو سفر أو خروج أو دخول أو عزلة أو مخالطة أو اشتغال بعلم أو قرآن أو ذكر أو غير ذلك ..

ـــ تعلمته كله !..

قال الشيخ فى استنكار :

ـــ كيف تفهم دقائق الأسرار ، وأنت لم تتب من هفواتك.؟

احتضن الصمت والمسكنة . أبوالعباس المرسى خلف من المعجزات ما جعله سلطان الاسكندرية . هل يحقق فى نهاية الطريق ، مايجعله شيخاً له استقلاله وكراماته ومكاشفاته ومريدوه ؟..

عنترة يستـــــرد جـــــواده

- ١ -

رأيناه ــ للمرة الأولى ــ يسير فى شوارع السيالة . يختلف عن المارة ، فى سحنته المنمشة ، وعينيه الزرقاوين ، وقامته الطويلة ، وشعره الأصفر المنسدل على قفاه ، وخطواته المتمهلة ، ونظرته المتأملة لكل ماحوله ..

كان الوقت ظهراً ، والشمس تريق أشعتها الساخنة على أرض الطريق ..

صعد إلى رصيف قهوة الزردونى . اختار أقرب ترابيزة ، وجلس . لم يلق السلام ، ولاعنى بنظراتنا المتطلعة ، أو المتسائلة ، أو المستريبة . نادى على الجرسون ياقوت ، وطلب شاياً ..

انشغلنا بلعب الطاولة والكوتشينة والدومينو ، فلم ندر كيف بدأ العراك بينه وبين ياقوت . لصق الولد بالجدار ، وانهال عليه بضربات قاسية ، موجعة ، حتى تهاوى تحت قدميه . خلّص ساقيه من الجسد المتكوم ، ومضى ناحية شارع السيالة ..

فاجأنا ماحدث ، فعجزنا عن التصرف ..

– ٢ –

جاء إلى القهوة ظهر اليوم التالى ..

جلس على ترابيزة خالية ، ونادى على ياقوت ..

ترك المعلم أحمد الزردونى مكانه :

ــ انصرف من هنا ..

تساءل فى صوت كالهمس :

ــ لماذا ؟

وهو يزغده فى كتفه :

ــ القهوة ليست للفتوات ..

لم يتحرك فى جلسته :

ــ لست فتوة ..

ثم وهو يهز رأسه :

ــ ولن أنصرف !..

نادى المعلم على عماله بعينيه . فز الرجل وبيده الكرسى . تناثرت ضرباته على رءوس المعلم والعمال ، وفى أجسامهم . سكتت الصرخات ، أو تحولت إلى أنات

متقطعة ، فألقى ماتبقى من الكرسى ، ومضى ــ دون تلفت ــ ناحية شارع السيالة ..

- ٣ -

كأن الأمس لم يكن ..

قدم ــ هذه المرة ــ من شارع العوامرى ، المفضى إلى الميناء الشرقية . تجاهل آثار العراك ، واختار كرسياً سليماً . أسنده إلى جدار القهوة ، وجلس ..

لم نتوقع مجيئه . نقل المعلم الزردونى وعمال القهوة الثلاثة ، إلى مستشفى رأس التين . ووصل البوليس بعد أن اختفى الرجل فى انحناءة الطريق ..

كنا قد أتينا بمفاتيح القهوة من بيت الزردونى . أشعلنا المنقد ، ورصصنا الكراسى ، وأعدنا تشغيل القهوة قدر استطاعتنا ..

القهوة لها ثلاثة أبواب ، وإن أغلق بابان ، أحدهما يطل على شارع العوامرى ، وفتح أحد البابين المطلين على شارع

السيالة . تقع أسفل بيت قديم من طابقين . أكلت ملوحة البحر القريب واجهته ، فبدت الثقوب فى الأحجار البيضاء ، وأطراف السقوف الخشبية ، الفاصلة بين الطوابق ..

اخترنا الجلوس فيها ، لأنها وسط بيوت الصيادين ، وقريبة من شاطئ الأنفوشى ، ومن مرسى البلانسات ، والمراكب الصغيرة فى الميناء الشرقية ، وحلقة السمك ، وساحة نشر الغزل ، وورش المراكب ، وميدان المساجد ، باتساعه المفضى إلى أبو العباس والبوصيرى وشارع الميدان . وأمامها مسجد المسيرى الصغير ، يفتح أبوابه طيلة اليوم ، فيسهل أداء الصلوات ..

نقضى فى القهوة معظم أوقاتنا . لانغادرها إلاّ إلى بيوتنا ، أو إلى البحر . ندخل الجوامع فى صلاة الجمعة ، أو لأداء الأوقات ، إذا تناهى الأذان من مسجد المسيرى . ربماترددنا على حمام الأنفوشى .. لكن القهوة هى المكان الذى نتحاسب فيه ، ندفع عربون شروة اليوم التالى ، نتفق على السفر فى البلانسات ، نتناقش فى الظروف والأحوال ، نلعب الطاولة والدومينو والكوتشينة . إذا غاب أحدنا ، فلأنه فى البحر ونحن نعلم ، أو لأنه مريض ويجب السؤال عنه

. اعتدنا قهوتها وشايها وقرفتها وزنجبيلها ونداءات ياقوت ، وصوت الراديو منذ يبدأ إرساله إلى السلام الملكى ، وقعدة المعلم أحمد الزردونى بالقرب من الباب . حتى الكراسى التى بزت مساميرها ، أو تهالكت ، نعرفها فنتجنب الجلوس عليها . اعتدنا مافيها ، وماحولها . لم يعد يشغلنا إلاّ النقاش والفصال وإطلاق صيحة التباهى عند الفوز فى أدوار اللعب

انتترنا من أماكننا ، وتقدمنا نحوه ..

لم يبد أنه فوجئ بتصرفنا . رفع كرسيه يتقى ضرباتنا ، ويوالى ضرباته كيفما اتفق . انبثق الدم والتأوهات والصراخ والزياط والفوضى . خلا المكان فى دقائق ، إلاّ من جلسته المستندة إلى الجدار ..

- ٤ -

قال مختار زعبلّة ، إنه شاهد الرجل مرات كثيرة فى الميناء ، يخلص أوراقاً باستيراد بضائع من الخارج . وأكد قاسم الغريانى أنه لم يلتق بالرجل من قبل ، وإن بدت ملامحه مألوفة . وتناولت قعدات البيوت أصله وفصله . وأكد البعض فى حسم ، أن الرجل ليس من الاسكندرية أصلاً ، وأنه جاء ضمن بحارة سفينة أجنبية ، فاستبدل زيّه ، وظل فى المدينة ..

- ٥ -

تذكرناه ..

كان قد مضى زمن طويل على لجوء الشيخ أمين عزب إلى زاوية خطاب . آخر معاركه خاضها ضد بحارة زرق العيون . طاردهم فى شارع المسافرخانة ، بشومته التى لم تكن تفارقه . أغلقت أبواب الدكاكين والبيوت ، وماتت حركة الطريق ، فيما عدا صرخات البحارة ، والصيحات المعجبة من النوافذ ، وضربات الشومة ترتطم بالأجسام المتأوهة ..

كان قد لزم الزاوية ، لايغادرها منذ صلاة الظهر ، إلى صلاة العشاء . يتلو آيات القرآن ، ويؤذن للصلاة فى مواعيدها ، وربما خطب المصلين فى صلاة الجمعة ..

لم يكن فتوة ، ولاخالط الفتوات من قبل . سمع عن حكايات حميدو فارس والسكران وأبو خطوة . المعارك الدامية فى أحياء الاسكندرية . سطوة الفتوات والأبوحمدات على التجار وأصحاب الدكاكين ، إتاواتهم من مواكب الزفاف فى ميدان المساجد ، سرقاتهم من معسكرات الإنجليز فى رأس التين ..

بدا أبوه متأثراً ، وهو يقول فى عودته ـــ ذات مساء ـــ إلى البيت :

ـــ مات أبو خطوة ..

أضاف دون أن يبين عن هوية الرجل :

ـــ كان يفاصل على شروة سمك لبيته ، فى الحلقة .. أحس بالتعب ، ومات قبل أن يلحقه الطبيب ..

روى له أبوه ـــ فيما بعد ـــ عن حميدو والسكران وأبو خطوة وأبو احمدات الاسكندرية وفتواتها . أعلن إعجابه ، وترك لخياله صورة معاركهم ..

لما خاض أولى معاركه ، فاجأه عبد الرحمن الصاوى بالقول :

ــ ذكرتنا بحميدو فارس !..

عرف أن طرده للغرباء عن الحى هو من أفعال الفتونة ، وإن لم يصادق الفتوات ، ولاالأبوحمدات ، ولاشاهد أفعالهم فى حياته ..

فاجأنا ــ عقب وفاة أبيه ــ بترك الدراسة . خلع البنطلون والقميص ، وارتدى الجلابية . وقف على طاولات أبيه فى حلقة السمك . أعانه معلمو الحلقة على فهم ماغاب عنه من أصول البيع والشراء . زاد الطبالى لباعة الشروات والسريحة . عرف الجلوس فى القهاوى والدكاكين ، والتردد ــ مع الصيادين ــ على حمام الأنفوشى ، والمشاركة فى الموالد ، وفى حلقات الذكر ، أمام أبو العباس والبوصيرى . تجاهل المصمصة ، ونظرات الإشفاق لصغر سنه ..

فاجأته خناقة فى مولد أبو العباس . تلقف كرسياً يتجه نحوه . طاح فى الوجوه المنتوية الشر ، الغريبة عن بحرى . طاردهم من الدحديرة الخلفية للجامع ، إلى الموازينى . توقف عن المطاردة فى أول شارع الميدان ..

ضرب ــ ذات أصيل ــ ثلاثة شبان من خارج بحرى . ضايقوا فاطمة بنت الحاج توفيق الشمرلى . لاحقوها حتى قهوة مخيمخ . قام من مجلسه ، وتصدى لهم . تنبه الناس ــ من يومها ــ إلى قوته . جعلوه حلقة فى سلسلة الفتوات ، الذين تصور الجميع أنه انتهى زمانهم ..

قيل إن الشيخ عرفة الأنصارى ظهر له فى رؤيا منامية . حذره من مغبة الاعتماد على قوته . طالبه بأن يلزم جانب الله ، فيترك الحلقة ــ آخر النهار ــ إلى زاوية خطاب . يغادرها إلى البيت ..

لم يعد يتردد على قهاوى الحى ، أو يشارك فى مسابقات الحناطير والبنز ، أو يتردد على الحمّام ، أو حتى يشارك فى موالد الأولياء . يبيع الشروة ، فيترك الحلقة إلى البيت ، قبالة مطحن شيمى بك . يتناول طعامه ، ويتوضأ ، ويستريح إلى ماقبل العصر . يتجه إلى زاوية خطاب ، يلزمها إلى صلاة العشاء . ثم اعتزل الناس . انقطع إلى الله . يغادر الزاوية إلى البيت ، عقب صلاة العشاء ، أو لزيارة أبنائه ساعات من النهار . يقوم بمهام الخادم والمؤذن والإمام

، ويتولى ــ بنفسه ــ فتح الزاوية ، لأداء الصلاة ، وإغلاقها..

أطلق لحيته ، فبدت بلونها الكستنائى ، إضافة إلى العينين البنيتين ، والبشرة البيضاء المشربة بحمرة ، والقامة الطويلة فى اعتدال . جسّد مارتسم فى تصورات الناس عن الشاذلى وأبو العباس والبوصيرى ونصر الدين وكظمان وعلى تمراز والأولياء الإثنى عشر ، وغيرهم من أولياء الله الصالحين . ثم زادت مهابته بالعباءة الجوخ ، يحرص على ارتدائها فى الطريق ، وفى الزاوية ، وفى استقباله للمترددين على بيته ..

– ٦ –

طوى صفحة القرآن على أصبعه ، وقال :

ــ عرفت كل ماحدث ..

ثم فى تقريرية هادئة :

ــ لكى يعود الحى إلى سابق عهده ، فلابد من طرد الرجل ..

قلنا :

ـــ حاولنا .. لكنه يتقن من أساليب العراك مالانعرفه ..

وهو يهم بالعودة إلى قراءة القرآن :

دعوه لى !..

– ٧ –

ترك زاوية خطاب بعد صلاة الفجر ..

سار فى المسافرخانة إلى نهايته . مال إلى شارع الكنانى ، ومنه إلى شارع أبو العباس ، حتى الميدان الفسيح.

أخرج من الصديرى ـــ فى بداية السيالة ـــ مطواة ملتمعة النصل ، وسبق الجميع فى الجلوس على ترابيزة ملاصقة لجدار القهوة ..

لما تلاشت الظلال الرمادية ، وارتفع الضحى ، كان الشارع قد امتلأ عن آخره بالعشرات من أبناء الأنفوشى والسيالة ورأس التين ، تساندوا على أبواب البيوت والدكاكين المغلقة ، وأطلت العيون من خلف النوافذ المواربة ، واقترب البعض مستتراً بعربات اليد الفارغة ..

ظهر الرجل فى الحارة الضيقة ، الملاصقة لمسجد المسيرى . حل صمت سادر ، غريب ، يعمقه نبش قطة فى قمامة الطريق ..

فز الشيخ أمين عزب لاقتراب الرجل . أسند ظهره إلى الحائط ، واستل سكينه ..

زوى الرجل عينيه فى دهشة حقيقية :

ـــ لماذا ؟..

قال أمين عزب وهو يحرك السكين أمام عينى الرجل :

ـــ لامكان لك هنا ..

دون أن يجاوز هدوءه :

ـــ إنى أدفع ثمن المشروب ..

علا صوته ، فبدا كالصراخ :

ـــ ولو !.. انصرف حالاً !..

بحركة مفاجئة ، لوى ذراعه ، وضغط بقبضته على عنقه . صرخ الشيخ بآخر ماعنده ، وقذف بنفسه إلى الأرض ، يحاول التملص .. لكن الرجل لحقه ، وبرك عليه . ظل فوقه بقامته العملاقة . لم يتركه إلاّ بعد أن هدأت ارتعاشات يديه وقدميه ، فتصورنا أنه مات ..

- ٨ -

عاد إلى موضعه فى زاوية خطاب ، يقرأ القرآن ، وينصت إلى شكاوى الناس وأسئلتهم ، وإن لم يعد يستطيع أداء الأذان ، أو القيام لإمامة المصلين . مد ساقه التى لفها الجبس ، أمامه . وكانت آثار المشاجرة واضحة فى وجهه..

- ٩ -

تابعناه وهو يترك موضعه فى زاوية خطاب . يمضى فى المسافرخانة إلى نهايته . ثم يتجه من الحجارى إلى شاطئ الأنفوشى . يخلّف الكبائن ، وورش المراكب ، ودار السينما . يميل إلى الساحة الحجرية المطلة على البحر . يفتح حقيبة من القماش ، متوسطة الحجم . يفرد خناجر وبلط وسكاكين وجنازير وسلاسل ، وأشياء أخرى يتلاعب بها ، ويقذفها فى الهواء ، ويستعيدها ، ويصوبها إلى نصب خشبى ، غرسه فى وسط الساحة ..

إذا حل به التعب ، أسند ظهره إلى صخرة هائلة فى طرف المكان ، وانشغل بمطالعة كتب ، بها رسوم وصور وخرائط . ثم يعاود أداء تمريناته القاسية !..

راعينا مشاعره ، فلم نسأله إن كان هجر ملازمة الزاوية ، وأنه سيعود إلى الفتونة ..

– ١٠ –

أنهى ــ ذات عصر ــ تدريباته فى الساحة الصخرية . لم يدس الأدوات ــ ككل يوم ــ فى الحقيبة القماش . لف الجنزير حول وسطه ، ووزع الخناجر والسكاكين على جيوب الصديرى ..

لم يستكمل مشوار العودة اليومى فى طريق الكورنيش . مال إلى داخل السيالة ، ونحن نتبعه ..

بدا رصيف القهوة خالياً ، إلاّ من الرجل . كان يرتشف ــ فى استرخاء ــ كوب الشاى ..

السائر إلى الله

السائر إلى اللـــــــــه

قال أبو العباس : العارف لادنيا له ، لأن دنياه لآخرته ، وآخرته لربه . وقال : الزاهد جاء من الدنيا إلى الآخرة ، والعارف جاء من الآخرة إلى الدنيا . وقال : الزاهد غريب فى الدنيا ، لأن الآخرة وطنه ، والعارف غريب فى الآخرة ، فإنه عند الله . وقال : معرفة الولى أصعب من معرفة الله ، فإن الله معروف بكماله وجماله . ومتى تعرف مخلوقاً مثلك يأكل كما تأكل ، ويشرب كما تشرب . وإذا أراد الله أن يعرّفك بولى من أولئائه ، طوى عنك وجود بشريته ، وأشهدك وجود خصوصيته . وقال : الولى يكون مشحوناً بالمعارف والعلوم والحقائق ، حتى إذا أعطى العبارة ، كان ذلك كالإذن من الله فى الكلام ، كلام المأذون له يخرج من فمه ، وعليه كسوة وطلاوة ، وكلام الذى لم يؤذن له يخرج مكسوف الأنوار ، حتى أن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة ، فتتقبّل من أحدهما ، وترد على الآخر .

غالب تردده وهو يقترب من الباب الحديدى الضخم . فتحت ضلفة واحدة على دنيا تشغى بالجلابيب والعمائم والأنوار المبهرة والخافتة والمذاكرة والمناقشات وروائح الطعام ..

سأل أقرب الواقفين :

ـــــ أين أجد الطالب زكى تعلب ؟..

قال الطالب وهو يتأمل سيالته :

ـــــ من أية مدينة ؟..

أظهر الحيرة :

ـــــ لاأعرف .. لكنه فى السنة الثانية ..

أشار الطالب إلى حجرة صغيرة على يمين المدخل :

ـــــ إسأل عم ابراهيم القسط حارس المبنى .. إنه يعرف كل الطلبة ..

جلسا إلى دروس الشيخ يوسف بدوى . عرف سحنته ، ألفها . توالت الدروس كل خميس ، بعد صلاة العشاء . تتجه الأسئلة إلى الشيخ . يرد بكلمات مقتضبة ، أو بما يملأ مساحة الجلسة . ثم يدعوهم لتلاوة آيات القرآن ، أو الأوراد . تلتصق الأكتاف ، وإن انشغل الجميع بالمتابعة ، فلا يجاوزوا ألفة السِّحن ، إلى التحدث والمعاشرة ..

لما قدم إلى الشيخ آخر مانصحه بقراءته من كتب ، قال الشيخ فى ود :

ـــــ كتب الزاوية قليلة .. فالجأ إلى أخيك زكى تعلب..

نظر إلى حيث أشار الشيخ . شاب فى حوالى العشرين . نحيل القامة ، يرتدى جبة حال لونها ، فبدت بلا لون .

استغنى عن العمامة ، فظهر الصلع فى مقدمة رأسه . يشوب عينيه آثار رمد قديم ، ويعانى تعثراً فى خطواته . شفته السفلى المتدلية من أوسطها ، كأنها بزبوز إبريق . غادرا الجامع ـــ عقب الصلاة ـــ معاً . رحب زكى تعلب بإعارته ماعنده من الكتب ، وماعند زملائه فى المعهد الدينى . قال :

ـــ أنتظرك فى أى وقت بعد العشاء ..

هز الحارس رأسه بما يعنى عدم معرفة الاسم . أشار ، فصعد السلالم العريضة ، ذات الدرابزين الحديدى ، إلى غرف متلاصقة ، تجاورت فيها الأَسِرَّة . فى نهايتها ردهة واسعة ، تحلقت فيها مجموعات حول أدوار الشاى والمذاكرة والمناقشات ..

لحق تردده فى السؤال ، صوت من آخر الردهة :

ـــ أهلا !..

الحجرة متوسطة . على اليمين سرير حديدى صغير ، فوقه مرتبة بلا غطاء ، ومخدة ، يتوسطها آثار عرق . وعلى اليسار مرتبة ، احتلت الزاوية ، تناثر فوقها كتب ، وقطع من الخبز الجاف . بجوارها " سبت " مغطى بقطعة

قماش ملونة . خمن الراكشى أن به خبزاً أو " قرص " .
فى المنتصف ترابيزة خشبية متآكلة ، عليها كتب وبرطمانات
طعام وكيس ورقى ملفوف . وعلق ملابسه على الحائط :
جبة وكاكولا وقفطاناً وحزاماً عريضاً . ولصق الجدار
المجاور للباب ، كرسيان من الخيرزان ..

قال زكى تعلب :

ـــ تشرب شاياً ؟..

ـــ سكر خفيف ..

أشعل وابور الجاز ، ووضع عليه البراد . لَقَّمَهُ ثلاثة
أكواب ماء ، وملعقتين من الشاى ..

قال الراكشى :

ـــ نحن اثنان فقط ..

قال زكى تعلب :

ـــ والفاقد ؟..

* * *

قاده زكى تعلب إلى الحياة داخل المعهد : البوابة
الضخمة ـــ طالما مر من أمامها ـــ تخفى عالماً فسيحاً
من المشايخ الصغار ، وتلاوة القرآن ، والدروس فى علوم

الصرف والنحو والمعانى والتوحيد والتفسير والحديث والفقه ، ورواتب الطعام اليومية : الفول النابت بعد صلاة الفجر ، الفتة باللحم فى الغداء . ربما أضيف إليها أنواع أخرى من الخضر والفاكهة ، وأكواب الشاى ، وفناجين القهوة ، وأطباق الحلوى ، والنقل ..

قال زكى تعلب لنظراته المتسائلة :

ــــ المعهد يحيا على إيراد العقارات الموقوفة من تجار وأثرياء ..

تسبح فى المكان أصوات قرقعة الأوانى فى المطابخ ، واندلاق الماء من الحنفيات ، والنداءات ، والقراءات ، والدردشات الصاخبة ، والهامسة ، حتى يؤذن للفجر . يبتسم لتزاحم الطلبة على باب دورة المياه ..

تعددت زياراته للمعهد ، ولقاءاته بزكى تعلب . ينصت إلى تلاوة الطلبة لسور القرآن ، فرادى فى ليالى الأسبوع ، ويشاركهم قراءاتها فى ليلة الجمعة . عرفه زكى تعلب بآخرين ، صاروا ــــ فيما بعد ــــ أصدقاءه . أذهله أنهم لم يكونوا جميعاً من المؤمنين بما يدرسون . لاحظ زكى تعلب

حيرته فيما يثيره الطلبة من قضايا الدين والسياسة ، ومن السخط والرفض . قال فى لهجة مشفقة :

ـــ أنت الآن فى مرحلة التزود والمعرفة .. فاكتف بالإنصات والاستيعاب ..

وقال له بما ذكره بالشيخ يوسف بدوى :

ـــ الترقى فى العلوم والمعارف لانهاية له ..

واحتضنه بنظرة دافئة :

ـــ ربما استغنى المرء عن هذا العلم أو ذاك . أما التصوف ، فهو العلم الذى لايستغنى عنه أحد أبداً ..

ثم فى صوت مبطن بالود :

ـــ العلوم ناقصة أو ساقطة ، مالم يكملها التصوف ويحسنها ..

وقال له وهو يدفع إليه بمجلد هائل الحجم :

ـــ لاتصوف إلاّ بفقه .. فلن تعرف أحكام الله سبحانه إلاّ منه ..

استطرد موضحاً :

ـــــ هذه هى الحكم العطائية . قال عنها شيخنا مولاى ابن عربى رضى الله عنه : إنها كادت أن تكون وحياً .. ولو كانت الصلاة تجوز بغير القرآن ، لجازت بكلامها !..

قال على الراكشى :

ـــــ قرأتها .. استعرتها من المكتبة الحجازية ..

قال زكى تعلب :

ـــــ إنها تحتاج إلى ماهو أكثر من قراءة الاستعارة . اقرأ كل يوم بضع فقرات .. وتأمل المعانى ..

لاحظ زكى تعلب تأمله المشفق للحجرة . قال :

ـــــ إنى أفيد من حفظ القرآن بتلاوته فى البيوت ..

رفت على شفتيه ابتسامة :

ـــــ وهل تجيد الأداء ؟

ركب الاعتذار صوته :

ـــــ أقلد ماستطعت مصطفى اسماعيل أو الشعشاعى ..

أردف بالنبرة المعتذرة :

ـــــ هذه مهنة مؤقتة . أمامى ـــــ بعد التخرج ـــــ إمامة المساجد أو التدريس أو القضاء الشرعى ..

حدثه زكى تعلب عن بلدته الدلنجات ، التابعة لمديرية البحيرة . تلقى تعليمه الأولىّ فى دمنهور . ثم انتقل إلى المعهد الدينى بالورديان والمسافرخانة . اعتمد على نفسه منذ استقر فى الاسكندرية . لايتردد على الدلنجات إلاّ يوماً أو يومين ، فى الإجازة الصيفية ، وفى الأعياد ..

مع أنه أكبر من تعلب بسنوات كثيرة ، فإنه كان يتعامل معه كأستاذ ، يفيد من قراءاته وملاحظاته وتوجيهاته . يكتفى بتوجيه الأسئلة ، ويعطى انتباهه لكل عبارة ..

انقطع للتهجد ، وذكر الله ، وإقامة الصلاة ، وقراءة الأوراد ، وتلاوة القرآن ، والاطلاع على مايقدمه له الشيخ يوسف بدوى ـــ ثم زكى تعلب ، فيما بعد ـــ من كتب التصوف والعلوم الدينية ، والتأمل فى ملكوت الله . اختار المجاهدة ، وياضة النفس ، ومراقبتها ، ومخالفتها ، سعياً للخلاص والنجاة والوصول . عانى قلة الزاد ، وطول السفر ، وشدّة الأهوال ، وعظم العقوبات . ربما مضى عليه الليل وهو يقرأ الورد الذى اختاره . لاتدخل عليه زوجته ولا الأولاد . ينعزل تماماً عن كل ماحوله . يتنبه لأهازيج السحر : تسابيح المنشدين والمؤذنين قبل أذان الفجر . يذهب للصلاة

بوضوء العشاء . تعلم آداب الذكر ، مايسبقه ويصحبه ويلحقه . التوبة ، والتطهر ، والصلاة ، وطريقة الجلوس ، والجو المحيط ، وحالة القلب والخاطر ، واختيار صيغة الذكر ، والتهيؤ لاستقبال الوارد ، مع العزوف عنه ، وشرب الماء البارد ، وطريقة الاهتزاز أثناء الذكر ، والناحية التى يتجه إليها برأسه ، وأعلى جسمه ، عند نطق كل كلمة . اعتاد مشاهد الصعق والوجد والبكاء والنحيب وإلقاء العمائم ونزع الثياب والزحام ..

سأل زكى تعلب :

ـــ لماذا تتعدد الطرق الصوفية ؟..

قال تعلب :

ـــ كلهم من رسول الله ملتمس ..

خالط نبرته تشكك :

ـــ ولماذا لانكتفى بالسنة ؟..

استطرد فى نبرته المتشككة :

ـــ تفرع الطرق يطرح الخلاف ..

قال زكى تعلب :

ـــ اقرأ أولاً .. ثم اظهر اختيارك ..

وسأل ، ليلة :

ـــ هل يغنى الورد عن قراءة القرآن ؟..

قال زكى تعلب :

ـــ هذه اجتهادات الغلاة ..

ثم بلهجة باترة :

ـــ لسنا منهم !..

وفاجأه الشيخ يوسف بدوى ـــ ذات مساء ـــ بالقول:

ـــ أنت الآن على عتبة مقام المريد .. وهو مقام المجاهدات والمكابدات ، وتحمل المشاق ، وتجرع المرارات ، ومجانبة الحظوظ ..

سار فى طريقه . تدفعه ، وتحدو به ، الأشواق والمجاهدات ..

أزمع أن يطهِّر نفسه من حب الدنيا ، ومن الإقبال على الخلق . قطع المعاملة مع العباد . سلك طرق العبادة والزهد..

لازم الخلوة ، وداوم الصلاة والذكر والصوم والعبادة . لون طاعته لله . إذا ملَّ من الصلاة ، انتقل إلى الذكر . وإذا

مل من الذكر ، قرأ السير والأحزاب والأوراد . ألف رياضات النسك والصلاة والصوم والسهر والمفاتحة والمواجهة والمجالسة والمحادثة والمشاهدة والمطالعة والمحبة والشوق والأنس والرجاء والتوكل والقرب وموارد القلوب . وتفيض التجليات . تأتى وتذهب . تشف الروح ، وتتخفف من قيود البدن . تموت الشهوات . تتصل الروح بالملأ الأعلى ، تتكشف لها الأنوار الربانية . يسمع ــــ حيث يذهب ويجئ ــــ أكثر من ثلاثة عشر ألف نبى ورسول . يعانون ويقاسون التجربة . يتحدثون عن الوحى والتنزيل . تتناغم أصواتهم مع أصوات الألوف من أولياء الله والصالحين والتابعين ، وأصوات الملايين من طالبى البرء والشفاعة والستر ..

قال الشيخ يوسف بدوى :

ــــ هذا علم لايؤخذ من الأوراق .. إنما يؤخذ من أهل الأذواق ..

قال على الراكشى :

ــــ أنت الذى دفعتنى إلى القراءة ..

قال الشيخ كأنه لم يسمعه :

ـــــ أَتْمَمْتَ الجانب النظرى للبداية ، ويبقى عليك استكمال الدائرة !..

استطرد موضحاً :

ـــــ آن أوان الانتقال من عمل الظاهر إلى عمل الباطن ..

وقال له ، ذات مساء سبق فيه الآخرين إلى شقة الشيخ:

ـــــ المريد لايصل إلى شئ من مبتغاه ، دون شيخ !..

المريد ! ..

هل أوشك على تخطى العتبة إلى دنيا الفيوضات الربانية ؟..

وقال يوسف بدوى :

ـــــ لابد للإنسان من شيخ يرشده .. ومن لاشيخ له ، فالشيطان شيخه !..

كان إذا جلس إلى الشيخ يوسف بدوى ، طوى علمه ورؤية نفسه . هو عار يطلب الكساء من فم الشيخ ونصائحه . يمتثل للأوامر ، ويجتنب النواهى ، ويجتهد فى الابتعاد عن المعاصى . لايفعل ماتوبخه عليه نفسه حين يأتى الليل ، أو

يقبل الصباح . يحرص أن يكون غده أفضل من اليوم الفائت ، وعلى المحبة التى تدفع إلى النوافل والمستحبات ..

وقال له الشيخ ، وهما يغادران أبو العباس :

ــــ أنت فى حاجة إلى واصل موصّل ..

قال فى حيرته :

ــــ كيف ؟..

قال الشيخ :

ــــ ــــ التوبة أولاً .. وهى لاتكون إلاّ على يد شيخك ..

فى محاولة للنفاذ من الحيرة :

ــــ إختر لى شيخاً ..

قال الشيخ :

ــــ أنت الذى تختار ..

فى نبرة متوسلة :

ــــ فلتكن شيخى !..

قال الشيخ :

ــــ اعرف أولاً ماينبغى معرفته من الإجراءات التى يجب أن ترقى عن طريقها ..

ثم بلهجة تقطر محبة :

ــــ كلما كانت البداية أحكم ، كانت النهاية أتم !..

وهز أصبعه فى الهواء :

ــــ حذار من فساد الابتداء !..

***

متى يأذن الله ، فيصبح من أهل الحجاب ، أهل الدليل والبرهان ؟ يخلص قلبه لله ، فيضئ طريقه بأنوار المعارف . يهبه علومه وأسراره . ينكشف الغطاء ، ويفتح الباب ، ويرفع الحجاب ، ويكشف نور الشريعة ظلمة البطالة والتقصير ، ويظهر نور المجاهدة ، وتشرق شموس العرفان ، وتنادى هواتف الحقيقة ، وتتألق جواهر العلم المكتوب ، ويتسع ضيّق الأكوان ، وتحصل أنوار المواجهة ، وتصير الروح سراً من أسرار الله ، ويقبل القلب على معرفة مولاه .. تطوى له الآفاق . يصبح من أهل الخطوة ، يطير فى الهواء ، يمشى على الماء ، مثل الشاذلى وأبو العباس . المراحل ــــ إن أحسن ارتقاءها ــــ تنتهى به إلى حيث يريد . يخلص فى المقامات والأحوال ، فيصبح فى مقدوره إتيان الخوارق والكرامات . يكشف عالم الغيب المحجب ،

ومافى القلوب ، ويستشرف الآتى وتوقعات المستقبل . يدرك أسرار السمك والطير والحيوان والحشرات والنبات . يتحدث إليها ، ويطوعها فى أشكال مختلفة . يتصرف فى الكون بالهمة . يدخل على الحاج قنديل فى الحلقة ، أو فى جلسة العصر أمام دكان محمد صبرة ، أو فى درس إمام أبو العباس . يملى عليه شروطه ، فلا يقوى على الاحتجاج أو الرفض . يتلو أدعية ، فيحيل الظالم جماداً فى مكانه . يحيل التراب ذهباً . يتزوج الحور العين . يقطف ثمار الجنة وهو على الأرض ..

ابتسم لرؤية الحاج قنديل وقدماه تتأرجحان فوق الصراط ، قبل أن يهوى إلى جهنم ، وجز أسنانه لتأوهات الرجل ، وهو يحاول اتقاء لسعات الكرابيج المشتعلة فى أيدى الجان . وقال الحاج فى تذلل : إن لم تعف عنى ، فالخلود فى النار مصيرى . وركب حصاناً فى جلوة المولد يفوق جماله حصان التميمى ، يحيط به المريدون والأتباع وأهل الطريقة ، يحملون الأعلام ، ويدقون البازات ، ويبتلعون النار ، ويغرسون الأسياخ فى الخدود ، وأعان الصيادين على ركوب البحر فى عز العاصفة ، وأحنى الشيخ طه مسعود

رأسه ـــ تأدباً ـــ فى مجلسه ، وأذنت له رئيسة الديوان بالحضور فى مجلسها ، جنباً إلى جنب ، مع الرفاعى والبدوى والشافعى والجيلى . وانخرط صيادو الحلقة فى حضرة ، يتهدجون بالدعوة له ، والشفاعة ، والمدد ، وتضوع البخور ، وتعالت الزغاريد ، وترنمت الأصوات بحب النبى ، وباحت الطلاسم بألغازها ، وتألقت الفيوضات بما يصعب تخيّله ..

الحال يسبق المقـــام

أنكر ابن عطاء الله السكندرى ـــ فى مقتبل شبابه ـــ على التصوف ورجاله ، وذهب إلى أبو العباس المرسى لينظر ماذا يقول . وجده يتكلم فى الأنفاس ودرجات السالكين إلى الله ، ومدى معرفتهم به ـــ سبحانه ـــ وقربهم وتقربهم إليه ، فمازال يتحدث ويتحدث عن الإسلام والإيمان والإحسان ، ومقامات الشريعة والحقيقة والتحقق . قال ابن عطاء الله : .. إلى أن بهر عقلى وسلب لبى ، فعلمت أن الرجل يغترف من فيض بحر إلهى ومدد ربانى ، فأذهب الله ماكان عندى من إنكار واعتراض . ولزم ابن عطاء الله ـــ فيما بعد ـــ أبو العباس ، وصار من مريديه ..

جلس قبالة الشيخ . أسند ركبتيه إلى الأرض . قرأ الشيخ الفاتحة ثلاث مرات . قرأها بعده . قرأ الشيخ : " إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم . فمن نكث فإنما ينكث على نفسه " ..

وقال الشيخ :

ـــ استغفر الله ..

قال على الراكشى :

ـــــ أستغفر الله العظيم ، الذى لاإله إلاّ هو الحى القيوم ، وأتوب إليه . تبت إلى الله ، ورجعت إلى الله ، ونهيت نفسى عما نهى الله ، ورضيتك شيخاً لى ، ومرشداً لطريقة الشاذلى ..

قال الشيخ يوسف بدوى :

ـــــ أنت الآن تقف على باب الأبواب ..

وتأمل مالايراه سواه ، فى الفراغ أمامه :

ـــــ التوبة هى أول مايدخل به العبد حضرات القرب من جناب الرب !..

التوبة هى الإعتراف ، والندم ، والإقلاع ، والتقوى ، والاستقامة ، والزهد ، والورع ، والخوف ، والرجاء ، والرضا ، والتسليم ، والإخلاص ، والصدق ، والطمأنينة ، والمراقبة ، والمشاهدة ، والمعرفة ..

قال الشيخ :

ـــــ أقمتك مريداً بهذه الطريقة العلية .. وعلى هذا العهد المبارك ..

أضاف فى ترفق :

ـــــ قم مريداً فى هذه الطريقة !..

***

قال الشيخ يوسف بدوى :

ـــ قبلتك لأوصلك إلى طريق الله بقدر ماتعرف ، وإنى لن أبخل عليك بقدر ماعرفته . وقال : من شروط التلمذة أن يختار المريد الفقر على الغنى ، والذل على العز ، والله على غير الله . وقال : لاشجرة بدون غارس . قد تورق ، لكنها لاتثمر . وقال : اسلك الطريق على هدى ماتلقاه عنى من إشارات وإرشادات . وقال : المريد يجب أن يكون بين يدى شيخه كالميت بين يدى غاسله ، يقلبه كيف شاء ..

لاحظ ارتجاف عينيه . خالط صوته إشفاق :

ـــ لاأريد لعلمك أن يقتصر على الشريعة ، فتصبح من العامة ، ولاأحب لنفسى أن أصبح من علماء الرسوم ..

وقال فى صوته المشفق :

ـــ أملى أن تصل إلى المقام الذى أتمنى من الله أن أصله يوماً ..

قال على الراكشى :

ـــ ماهو ؟

قال يوسف بدوى :

ـــــ مقام المحبة .. هو أعظم المقامات .. ليس بعده مقام آخر ..

حذره من ضعف النفس . يشاهد اللوامع بالحواس الظاهرة . تتراءى له أنوار كأنوار الشمس والقمر والشهب ، فتضئ ماحوله . تبهر أهل البدايات ، فيسيئون الرؤية والفهم والتصور . تجتذبهم ، فيتبدى السراب واحة يتصور فيها الضال غاية تعبه ..

ألزم نفسه حسن الاعتقاد فى الشيخ ، الإيمان بصدق ولايته . أوقد فى قلبه مصابيح الهوى . أجاد تربيته ، والإشارة إليه بمستلزمات السلوك ، ومقتضيات الوصول إلى قرب الخالق . آن الأوان كى يجاوز العبادة الظاهرة من صلاة وصوم وطهارة ، إلى العبادة الخفية : الخوف والرجاء والزهد والصبر والورع والرضا والتسليم ..

أوصاه الشيخ بألاّ يجادل . الجدل يفضى إلى المماراة ، وتغليظ القلب ، والانتصار للنفس على حساب الحق . يصرفه عن مغالبة الشهوات ، والسمو إلى عالم الصفاء . يشوش عليه ، فلا يدخل العالم الذى ينتظره ، عالم الصادقين ، القانتين ، الخاشعين ، السائحين ، الموقنين ، المخلصين ،

المحسنين ، الخائفين ، العابدين ، المتوكلين ، المتقين ، الأبرار ، المقربين ، المصطفين ، الأخيار ..

وقال له الشيخ :

ـــــ حفظ العهد يعنى ألاّ تفقد حيث ماأُمرت ، ولاتوجد حيث مانهيت !..

أقبل القلب على بهجة الأسرار . لمعات نورانية ، تضئ فى سماء حياته ، ثم ماتلبث أن تزول ، وتنطفئ ، كأنها لم تكن . تعود ثانية كما كانت . بلا مقدمات ، ولامحاولة منه لاجتلابها . سماها الشيخ يوسف بدوى طرائق الأحوال . لم يفهم المعنى على نحو محدد ، وإن اعتاد التماعها بين لحظات وأخرى ..

قال الشيخ :

ـــــ لابد أن تمر بطريق طويل قبل أن تصبح سالكاً . لابد من صحوة وقيادة مرشد كى تصل إلى نهاية الطريق ..

قضى أيامه فى تأمل وصلاة ، وتلاوة سور القرآن الكريم . يادوب يبيع شروة . يأخذها من محمد كسبة . يمضى بعدها إلى أبو العباس ، أو إلى البيت . الصلاة ، والصوم ، والتسابيح ، والقراءات ، قبل كل صلاة وبعدها .

مايستحب من الذكر والدعاء ، أوراد الليل والنهار ، محاسبة النفس ، تعلم المقامات ، والغفلة ، وعلوم الباطن ..

أيقن أنه يحاول الدخول إلى الحضرة الإلهية من باب القرب . اعتاد تناوب المشاعر فى داخله مابين الحزن والوجد والفرح والشوق والرضا والندم . يتبدل من حالة إلى أخرى ، بتبدل المقام وزواله ، باستمراره ودوامه ..

صارح الشيخ بما فى نفسه ، فطمأنه :

ـــ المريد يترقى من مقام إلى آخر ، حتى ينتهى إلى التوحيد والمعرفة .. وهى غاية السعادة ..

ثم وهو يتأهب للصلاة :

ـــ المقامات درجات فى الصعود إلى الغاية العليا ..

حدثه فى حل الرموز ، فهو لن يصل إلى منازل القربى ، حتى يجاوز ست عقبات : يفطم الجوارح عن المخالفات الشرعية . يفطم النفس عن المألوفات العادية ، وعن الكدورات الطبيعية . يفطم القلب عن الرعونات البشرية . يفطم الروح عن البخورات الحسية . يفطم العقل عن الخيالات ..

وقال يوسف بدوى :

ـــ المقامات أمامك كثيرة .. فأنت تبدأ بالتوبة ، ثم الخوف ، فالرجاء ، فالصالحين ، فالمريدين ، فالمطيعين ، فالمحبين ، فالمشتاقين ، فالأولياء ، فالمقربين ..

وقال :

ـــ اخرج معى .. ولاخوف عليك !..

بدأ تمارين غيبية ، كتلك التى يمارسها الدراويش ، للوصول إلى حالة الإشراق ، والحصول على الكرامات التى تمنحه قوى خارقة ..

* * *

قال له الشيخ يوسف بدوى :

ـــ مادمت قد صدقت بهذا العلم ، فأنت من الخاصة . فإذا فهمته ، فأنت من خاصة الخاصة . أما إذا عبرت عنه ، وتكلمت فيه ، فأنت النجم الذى لايدرك ، والبحر الذى لاينزف ..

هل آن أوان ذلك ؟..

هل يصبح حرّ نفسه ، ويتخلص من تسلط الحاج قنديل ، ومن الأيام الصعبة ؟!..

الإمام يفض الحفـــــــل

بدا الرجل ـــ بقامته القصيرة ، وخطواته المهرولة ـــ فى غير الصورة التى ألفوه فيها داخل المرسى أبو العباس . يدس قدميه تحت فخذيه ، فينتهى جسده عند الركبتين . المصلون أمامه ـــ فى نصف دائرة ـــ ينصتون إلى دروس المغرب ، يسألون ، يناقشون ، يستوضحون ماغمض من الشريعة والفقه : الطهارة والزكاة والسنة والفرض وأحكام الطلاق والسهو عن الصلاة والصوم فى غير رمضان ..

لم يفطن المعلم عباس الخوالقة إلى اتجاهه ناحية السرادق ، المزدان بالأنوار والرايات ، فى نهاية شارع السيالة ، إلاّ حين علا صوت محمود عباس الخوالقة :

ـــ نورت المكان .. تفضل يامولانا !

عرفه من ظهره : العمامة التى طوقت الرأس ، يتهدل من تحتها شعره ، اختلط فيه السواد بالبياض ، والجبة الرمادية لا يكاد يغيرها ..

كأنما الرجل يحيا فى الجامع . عرف عنه عزوفه عن الزحام والمجالس . لايغادر بيته إلاّ للجامع . لايجول فى الميدان ، أو فى الشوارع والحوارى المحيطة . لايجالس الناس ، أو يتردد على البيوت ، أو ينزل الأسواق . صلته بالمصلّين سماعهم له فى صلاة الجمعة ، وتمام الصفوف فى الصلوات الخمس ، والدروس التى تعقب صلاة المغرب . يثقون أن له بيتاً وأسرة ، وأنه يغادر الجامع ويأتى إليه ، فلا يلحظ حتى دائمو التردد على الجامع ، حتى أصحاب الدكاكين القريبة ، متىيذهب ويجئ ، وإن روى الحاج محمد صبرة أن الشيخ طه مسعود إذا خلا إلى أصدقاء ، صار من ألين الناس جانباً ، وأشدهم مودة ، وإقبالاً على الآخرين . كأنه إنسان آخر غير الذى يخشى الناس صرامة مجلسه . وكان حافظاً للنكات نفس حفظه للآيات والأحاديث والفتاوى والأحكام ..

قيل إنه كان يتشدد فى محاسبة عبد النبى شعرة ، خادم الضريح ، على إيرادات النذور . يحصل عليها كلها لنفسه . يحصل كذلك على مايأتى به زوار الضريح من المدن والقرى المجاورة من شموع وأغنام وعجول . مع ذلك ، فإنه

لم يكن يرى فى الموالد مايفيد . رأيه أنها أسواق للبدع وإلهاء الناس عن أمور دينهم . وعاب على الذاكرين رفع أصواتهم فى حلقات الذكر أمام الجامع ..

الرجل ليس من أبناء بحرى ، ولامن أبناء الإسكندرية . قيل إنه من مواليد إيتاى البارود . غادر مدينته للتعلم فى المعهد الدينى الثانوى بالإسكندرية ، فاستوطن المدينة . حتى بعد أن حصل على العالمية من الأزهر . وَسّط حمادة بك ، فألحقته وزارة الأوقاف بوظيفة إمام فى مسجد طاهر بك بشارع الحجارى . ثم عمل مدرساً بالمعهد الدينى ، قبل أن تتيح له وساطة حمادة بك وظيفة الإمام بالمرسى أبو العباس..

لايزور ولايزار . شقته الواسعة ، فى البيت المطل على شارع سوق السمك القديم ، لم يتعرف أحد إلى أهلها ، ولاماذا تحوى . حتى الزبال وباعة الخبز واللبن ومحصل الكهرباء ، يستقبلهم الشيخ بنفسه من وراء الباب الموارب ، وإن روى البعض أنه شاهد أكبر أبناء الشيخ ـــ طالب فى التوجيهية ـــ يصحب أمه فى عربة حانطور ، مضت بهما

إلى بيت قديم فى نهاية السيالة ، قبالة بيت المعلم عباس الخوالقة . وعادت العربة قبل أن يحل الظلام ..

أكدت رواية ثانية ، أن أشقاء الزوجة هم سكان البيت الذى أمضت فيه ـــ وأكبر أبنائها ـــ نهاراً بأكمله . لم يأذن لها الشيخ بزيارتهم منذ الزواج ، إلاّ حين أبلغه ـــ فى الجامع ـــ رسول ، باشتداد المرض على أمها . نفى عباس الخوالقة الواقعة من أساسها . قال إن سكان البيت المقابل زوجان من أصل تركى ، وأبناؤهما الثلاثة . وزوج الإمام فلاحة من مدينته ، إيتاى البارود ..

كان أولاده الخمسة يذهبون إلى مدارسهم ويعودون ، فلا يغادرون البيت ، ولايخالطون الأولاد ، أو حتى يشترون احتياجات البيت . عبد النبى شعرة يشترى للبيت كل احتياجاته . أما البنتان اللتان اكتفى الأب بتعليمهما الابتدائى ، فقد ألزمهما البيت . رفض تزويجهما بمقدمات . من يريد الزواج يدفع المهر ، يعقد قرانه ، فلا يرى زوجه إلاّ ليلة الزفاف . استهوى تشدده الحاج قنديل ، فوضع الشرط نفسه أمام المتقدمين لخطبة ابنته ..

وافقت أسر على شرط الشيخ ، وإن أتبعت موافقتها بطلب الإذن لأهل الشاب بمشاهدة العروس ، فرفض الشيخ ..

ـــ لن يكون بين الزوار رجال ..

ـــ ولو !

ـــ رؤية العروس قبل الزواج أقرها الإسلام ..

قال فى لهجة باترة :

ـــ ليس لدى بنات للزواج !..

***

قبل أن يقضى على تردده : هل ينادى عليه ، أو يحاول اللحاق به .. كان زحام الصبية ، أمام السرادق ، قد أفسح له الطريق . ثم التصقت ـــ من جديد ـــ حدوة الزحام ..

بعد أن أَمّ المصلين فى صلاة الظهر ، التفت ــ بتلقائية ــ وراءه ، يصافح ، ويسأل ، ويجيب . يخلى يده للصغار يقبلونها ، يبدى ملاحظات لخدم الجامع ، يتأمل كسوة الضريح ، يأمر بلم الكتب المتناثرة تحت الأعمدة ، وصرف المستلقين بلا صلاة ..

لاحظ وجود جابر برغوت خادم جامع ياقوت العرش بين المصلّين . شغله السؤال عن بواعث تركه العمل فى الجامع . قال من بعيد :

ـــــ لماذا تركت مسجدك ؟..

اقترب الرجل ، بحيث يصل صوته الهامس :

ـــــ أريدك فى أمر مهم ..

تردد لحظات . ثم اشار إلى حجرته ، على يسار الباب الرئيسى للجامع :

ـــــ اسبقنى إلى هناك ..

تداخلت كلمات الرجل ، بترقبه المنشغل . أتته ـــــ فى الصباح ـــ رسالة وزارة الأوقاف ، بالموعد الذى حدده الملك فاروق لزيارة الجامع . قال عبد الرحمن الصاوى : مولانا يحرص على أداء صلاة الجمعة فى جوامع مختلفة فى مدن مصر ، لتتسع دائرة شهرته بالصلاح فى نفوس الناس . يفد ـــــ قبل الموعد بأيام ـــــ وزراء ومسئولون . تلغى الأجازات لنظافة الجامع . تراعى إجراءات الأمن فى الزوايا والأركان وخلف المنبر والأسطح والمئذنة والحجرات المغلقة . يخلى ميدان المساجد ، والدحديرة الخلفية ، وتغلق النوافذ

والشرفات المطلة على الجامع . يقف العساكر بالعصى والبنادق على النواصى ، وفوق الأسطح ، وينتشر المخبرون بجلابيبهم وبلاطيهم الميرى . هات من الآخر ياجابر . الأبوان لايعرفان ماحدث ، لكن الجارة التى روت لى ، أكدت أن أم محمود أرضعت الولد والبنت . زيارة الملك للجامع توجب الظهور أمامه بأفضل صورة . ومادخلى ؟.. لماذا لم ترو الحكاية لإمامك ؟. المعلم الخوالقة من مريديك وصديقك . اللهم احفظ البلاد ومليكها المفدى . تردد الجموع : آمين . يهش ـــ عقب الصلاة ـــ ويبش . يأمر بخلعة : جبة كشمير ومكافأة مالية . ذلك ماحدث فى الزيارتين السابقتين . قيل إنه أضاف إلى هبة الشيخ عبد الحفيظ إمام جامع على تمراز صرة مال . وقيل إنه أهدى إلى الشيخ شحاتة الوكيل إمام البوصيرى ألف جنيه من الذهب ، وساعة ذهبية ، وشالاً من الكشمير . أعمدة الضريح بهت لونها ، والحصير تآكلت أطرافه . تفرش الوزارة مقدمة الجامع بالسجاد . ماذا يكون الأمر ، لو أن الملك حلا له التمشى فى صحن الجامع ؟.. راقته النقوش والتهاويل والمقرنصات

والأعمدة الرخامية ؟.. ليتها رضعة أو اثنتين ، لكنها أرضعته لشهر كامل ..

كان الحفل ــ حتى الليلة السابقة ــ مهدداً بالإلغاء . طلب العريس أن يكون الزفاف أفرنجياً . يدخل على عروسه ، يغلقان بيتهما عليهما ، يفض بكارتها فى اللحظة التى يريدها . ربما فى الليلة نفسها أو بعد يوم أو يومين . أصرت أم محمود أن يكون الزفاف بلدياً . يدخل الشاب على البنت أمام نساء الأسرتين . يلجأ إلى اصبعه ، يلفه فى المنديل الأبيض . إن خاف أو تردد ، قامت البلانة بإتمام المهمة . شرف البنت يخرق عين من يفكر فى النيل من سمعتها . تلعلع الزغاريد ، ويطوف الموكب أمام البيوت المتساندة ، المتصننة : قولوا لابوها ان كان جعان يتعشى .. بنت الأكابر شرفتنا الليلة ..

طال الأخذ والرد . علت الآراء والتعقيبات . همست الأفواه بكلمة الطلاق ، وإن لم تعلنها ..

وافق المعلم عباس الخوالقة فى النهاية ـــ بكلمات حاسمة ـــ على ماأراده الشاب . هذا شأنه مع زوجته ، فاتركوهما ..

لطمت أم محمود على صدرها :

ـــــ وشرف البنت ؟..

قال فى هدوئه الحاسم :

ـــــ الأرياف يصرون على ذلك .. أما نحن ، فمجتمع مدينة ..

وهى تسبل عينيها :

ـــــ خواجات يعنى ..

خالط صوته غضب :

ـــــ تهذرين ؟!..

مصممت :

ـــــ من يملك ـــــ بعد ذلك ـــــ أن يدوس له على طرف ؟!..

طقت عيناه بالشرر :

ـــــ جوازة أم خناقة ؟!..

قال الشيخ طه مسعود :

ـــــ كلامك خطير ..

استطرد وهو يعطى انتباهه :

ـــــ قله فى عبارات محددة ..

قال جابر برغوت :

ـــــ كما قلت لك يامولانا .. مهجة بنت عباس الخوالقة .. يعقدون قرانها مساء غد على أخيها فى الرضاعة ..

أهمل الشيخ ترتيبات الزيارة . سلامة الدين تسبق ماعداها . هل ضل الناس ، فانشغلوا بالدنيا عن الدين ؟!..

حدج الرجل بنظرة متوجسة :

ـــــ متأكد من روايتك ؟..

وهو يضغط على الكلمات :

ـــــ مثلما أتأكد أنى جالس فى حضرتك ..

هل اقترب يوم الهول ، فعلى الناس أن يرقبوا الدابة والمسيخ الدجال وظهور الشمس فى المغرب ؟.. المعلم عباس الخوالقة من أفضل جلسائه ، فهل أغواه حب المال ، فنسى الدين ، أو أنه لايعلم فعلاً ؟! ..

شقت له الأجساد المتراصة طريقاً بينها ، حتى انتهى إلى باب البيت فى نهاية السرادق ..

صعد يسبقه الغضب . عبس للفرحة التى ملأت الوجوه . استقبلته الزغاريد وساعدا الخوالقة المفتوحان فى أعلى السلم :

ـــــ لقدومكم فرحة أعز من فرحة الزفاف !..

كان عقد القران قد أوشك على نهايته . تناثر الملح على المدعوين ، ترافقه الكلمات المنغمة : مالحة فى عين اللى مايصلى على النبى !..

استأذن خميس شعبان أن يرفق بالاحتفال حفلاً بختان طفلته ، توفيراً للنفقات . رفض المعلم . أصرّ أن يقتصر على عقد القران . نالت الفتاة من قرص البنات ، وخطت أم العروس برجليها فوق العروسين ، وأفسحت المرأة بين ساقيها ، فزحف العروسان من تحتها ، ووضعت قطعة سكر تحت لسان ابنتها ، فيكون كلامها مع زوجها حلواً كالسكر . ثم وضعتها فى كوب ماء ، إرتشفه الشاب ليدوم الوفاق ، وفتحت مقصاً لمنع العين ، وأعدت تحويطة ، ورشت الملح والحمص والأرز والخميرة ، تدخل فى الأعين الشريرة ، وتبعد الحسد ، وإن قيل إن الدبلة سقطت من يد الفتاة أثناء كتابة العقد ، فتشاءمت أمها من ألا يتم الزواج ..

دخل فى الموضوع بلا مقدمات . سأل ، وأنكر ، وشرح ، وأفاض . إتجه إلى عباس الخوالقة بقسمات مشتعلة :

ـــــ هذا الزواج باطل !..

التف الرجال ـــــ الذين أخلوا مقاعدهم ـــــ بالوجوم . بدوا متحيرين ، لايقوون على التدخل برأى . حتى المعلم عباس الخوالقة اكتفى بتحريك عينيه فى غير اتجاه ، وهو يعض سبابته ..

قال الخوالقة ليهدئه :

ـــــ اشرب القهوة أولا ..

وهو يدفع يده فى الفراغ :

ـــــ يهمنى أن أقول ماعندى ..

اغتصب الخوالقة ابتسامة ، وقال فى محايلة :

ـــــ سأنصت جيداً .. عيب الاَّ تشرب القهوة أولاً ..

قذف بالقهوة فى حلقه دفعة واحدة . ثم وهو يمسح شفتيه بظهر يده :

ـــــ أخوان فى الرضاعة .. كيف يتزوجان ؟!

تناهى صوت هامس بالقرب من النافذة المطلة على الشارع الخلفى :

ـــــ نسأل أم محمود .. ربما الرواية كاذبة ..

قال الإمام :

ـــــ قد تكذب لإتمام الزواج ..

أسعف الخوالقة صوته :

ـــــ لن تخالف دينها يامولانا !..

دون أن يجاوز الهدوء :

ـــــ ناقصات عقل ودين !..

واتت الجرأة أم محمود :

ـــــ من حقنا أن نعرف المرأة المرضع ..

قال عباس الخوالقة :

ـــــ أو نسأل صاحب الرواية ..

قال الإمام فى نبرة باترة :

ـــــ الرواية صادقة .. وإذا تم هذا الزواج فهو باطل..

طاف بعينين يغشّاهما الغضب على الرجال الذين حاكوا المكان فى صمته . ثم هبط السلالم ، وقطع السرادق إلى نهايته ، ومضى فى اتجاه الميدان ..

كانت الزغاريد قد سكتت ، والفرقة الموسيقية أهملت آلاتها ، وطلبت الأسطى مواهب شالاً ، تضعه على كتفيها ..

ظلت اللمبات الملونة ـــــ وحدها ـــــ مضاءة ..

المـــــأزق

أطلقت شهقة لغياب الحقيبة من ركن الحجرة الرمادية . كانت تدس فيها ماتحصل عليه من البيوت ، أو مايعن لها شراؤه من السوق : مفرش ، ملاءة ، طقم ملاعق أو سكاكين ، حلل ، أطباق ..

لم تكن تعد نفسها للزواج ، ولاتصورت أنه سيتقدم لها من يعرض عليها الحياة كزوجة ، لكنها حرصت أن تضيف إلى مابداخل الحقيبة . لم تناقش نفسها : لماذا ؟ ولاإلى متى ؟. كلما حملت جديداً ، أعادت فتحها . قلّبت فيما تحويه ، تأملته ، ودققت فيه . ربما فردته على أرض الحجرة ، تطيل النظر إليه ، تسرح فى اللاشئ ، تلملم الأشياء داخل الحقيبة ، تسندها إلى زاوية الحجرة ، وتمضى ..

خلا الركن من الحقيبة . شكت أنها ربما نقلتها إلى حجرة أخرى ، ونسيت ..

قلبت المكان . فص ملح وذاب . بظاهر كفيها ، مسحت الدموع التى انبثقت ــــ فى صمت ــــ من عينيها . تساقطت على خديها وذقنها وملاعتها ..

البيت مهجور . يبدو كذلك أمام من تصحبهم إليه فى الليل ..

قال لها سيد وهو يتركها فى بداية شارع السيالة :

ــــ الأولاد يلعبون فى الشارع . ربما دخلوا ، فرأوا الحقيبة ، وأخذوها ..

اغتصبت ابتسامة لتطمينه :

ــــ إنهم يخشون البيت.. يتصورونه مسكوناً بالعفاريت ..

قال فى تنبه :

ــــ قلت إنك لم تعودى تصحبين أحداً إلى البيت ..

وشى صوتها بغضب :

ــــ تشك فيما قلت ؟!..

فوت ملاحظتها :

ــــ ربما أراد أحدهم مضايقتك ، أو إيذاءك ..

قالت :

ـــــ أنا لم أضايق أحداً ..

هتفت متذكرة :

ـــــ هل تكون المعلمة أنصاف ؟..

لما عرضت عليها المعلمة أنصاف أن تعمل فى بيتها بكوم بكير ، رفضت بلا تردد ..

اعتادت الحياة فى بحرى . يعرفها الناس ، وتعرفهم . تنصت إلى العرض ، فتقبل أو ترفض . ربما ترددت على بيت ، تعلم جيداً أنها لن تحصل فيه على قيمة مضاجعتها .. لكن الحياة فى كوم بكير ، الوقوف أمام البيوت ، أو فى داخل الغرف ، ورفع الساقين لمن يدفع ، دون أن تلتقى به من قبل ، وينصرف دون أن يعرف اسمها ، أو تعرف اسمه ، والحصول على ترخيص من الحكومة ، والتردد ـــــ كل أسبوع ـــــ على طبيب الصحة فى قسم اللبان . يلغى التصريح ، إذا ثبت أنها أصيبت بمرض جنسى ، أو يجدده . تعود بالهتاف : سالمة ياسلامة .. رحنا وجينا بالسلامة !..

لم تتصور أنها تفعل ذلك كله ، أو تحياه . بحرى بيتها ، تمشى فى شوارعه وحواريه وأزقته . لايشغلها حتى النظرات المتابعة ، أو الملاحظات المستفزة ..

رآها محمود عباس الخوالقة ، وهى ترتدى فستاناً يصل إلى ركبتيها ، مشجراً دون ملاءة . تلقفتها صيحته من أول شارع أبو وردة :

ــــ ماذا فعلت بنفسك ؟..

أخفضت رأسها تتأمل الفستان :

ــــ ماذا ؟..

قبل أطراف أصابعه :

ــــ أنت مسخرة !..

قالت محتجة :

ــــ ألست مثل الستات ؟!..

وهو يشملها بنظرة إشفاق :

ــــ وست الستات .. لكن الملاءة أليق بك ..

أدركت أنها لكى تحيا فى بحرى ، تمشى فى أزقة السيالة والأنفوشى ورأس التين ، فلابد أن ترتدى مثل نساء الحى . من ترتدى مثل النساء الغريبات ، فهى غريبة . الساكنات فى شوارع التتويج واسماعيل صبرى ورأس التين والحجارى وحسن عاصم وكورنيش الميناء الشرقية وغيرها ، معروفات بالــتأكيد أو بالتذكر . أما هى ، فأنسية . يتعرف

إليها الرجال بالملاءة التى تغطى جسمها . تسير فى الشوارع ، فلا تلفت انتباهاً ولاتساؤلاً ..

غلبها اليأس ، فوافقت على عرض المعلمة . ليلة ، فتظل فى كوم بكير ، أو تعود إلى بحرى . تصورت أنها ستهدأ عن التنقل بين البيوت ..

ركبها ـــــ فى ليال متتالية ـــــ صعايدة وأفندية وبحارة وطلبة . أرهقها خلع الفستان وارتداؤه ، فظلت بقميص النوم . لاوقت للأخذ والعطاء والمؤانسة . اختلطت الملامح ، فبدت شخصية واحدة . اعتادت الضرب والقرص والخمش والشتم والملاعبة والعض والتذلل واللعاب على كتفها العارى ..

لم تكن تناقش المصاحبين لها إلى داخل الحجرة . تُسلِم نفسها فى آلية . تنزع الملاءة والفستان . تتمدد بالقميص الداخلى . يقبّل جسدها ، يهصره ، يخمشه أحياناً ، يخترقها . يخلو ذهنها إلى مالم تعد للقائه ، فى جزر قريبة وبعيدة . تفيق على قومته ، وارتدائه ثيابه . لاتحادثه . تأخذ أجرها دون كلام . لايشغلها ملامحه ، ولاماذا كان يرتدى . عانت

من اللعاب المتخلف على كتفها العارى . يحرك نفسها ، فتجرى إلى الحمام ، تفرغ مابجوفها ..

قال لها صعيدى شحمى البدن :

ـــ هل تكتفين بالبحلقة فىّ ؟..

ودفع لها ثلاثة قروش :

ـــ تحركى !..

وصرخ فى الدهشة المتسائلة فى عينيها :

ـــ إهتزى .. أغنجى .. أصرخى .. إفعلى أى شئ ..!

لما قذف فيها ظل ساكناً . فطنت إلى أن النوم غلبه ، عندما فاجأها شخير متقطع ..

تملصت منه ، فاستيقظ ..

حرصت ، فلا تجعل ساعديها بين الذراعين حتى يسهل تملصها ، إذا غلب الرجل النوم ..

تغيّر عناقها لسيد ، منذ اليوم الذى صحبها فيه إلى حدائق الشلالات . غابت الجزر القريبة ، والبعيدة ، وذابت فيه . تغالب شعوراً بالمتعة ، لم تكن عرفته ، ولااعتادته من قبل ..

قالت له مداعبة :

ـــ أعدت لى الإحساس بالرعشة إذا لمستنى يد رجل ..!

قال ليهون عليها :

ـــ سأعوضك عن الحقيبة ..

وهى تتلفت فى تحير :

ـــ لكن .. لماذا سرقوها ؟..

ربت كتفها :

ـــ أولاد الحرام كثيرون ..

أسعدها زوال لهجة الشك فى كلامه . يثق فيها ، وأنها هجرت سيرتها القديمة ..

همست فى عدم تصديق :

ـــ هل يكون حمادة بك ؟

هز رأسه بالنفى :

ـــ وماشأنه بك ؟..

روت له ماجرى بينها وبين الرجل ، عندما صحبته إلى داخل البيت المهجور . لم تُعِد نفسها لمضاجعته ، ولاداخلتها شهوة . انتفض جسمها بمشاعر لم تحس بها من قبل . زادت

فى الضربات ، وشتمته بما كانت تخشى أن تواجه به الذين عرفتهم ..

قالت وهى تدارى ابتسامة بكفها :

ـــ فعلت ماأرغبه ، وليس ماطلبه !..

يابنت الأبالسة !.. حتى صاحب الفرن وصل إليك ؟!..

قال فى حيرة :

ـــ ربما يمهد الرجل لطردك من البيت ..

لم تخف قلقها :

ـــ لماذا ؟.. ماأراده فعلته !..

ـــ تعرفين سره ..

سألت فى قلقها :

ـــ والحل ؟..

أغمض عينيه للحظات ، ثم قال :

ـــ قلت إن الحاج محمد الحلاق يعطف عليك ..

وهى تخفض رأسها :

ـــ إذا سرت أمامه ، دخل الدكان ..

فى استغراب :

ـــ لماذا ؟..

نقل إليها محمود عباس الخوالقة ماسمعه ، وأثاره . قال : نساء كوم بكير يترددن على الطبيب ليوافق على استمرارهن فى العمل ، ويتردد الحاج محمد صبرة على أنسية ، ليمنحها البركة !..

أشفقت على الرجل . لم تكن بينها وبينه علاقة من أى نوع . خشيت أن تنسب الشائعة إليها . تعلى من قيمتها ، وتسئ إلى الرجل ..

اعتادت المرور أمام دكانه ، منذ صحبها محمود عباس الخوالقة إلى بحرى . خلفت وراءها الخدمة فى البيوت وأهلها فى سحالى . إذا توجست من بيت شارع سيدى داوود ، تنقلت بين الشقق ، وحنيات السلالم ، والكبائن فى شاطئ الأنفوشى . وأمضت ليالى فى قهوة كشك . صعبت على المعلم كشك ، فأخلى لها تحت النصبة ، حتى اطمأنت إلى البيت المهجور . أزمعت أن تقيم فيه . تدخله عندما يأتى الليل ، وتغادره فى طلوع الصباح ..

* * *

يثق الحاج محمد صبرة أنه ليس فى ثراء ولامكانة حمادة بك والحاج قنديل وعباس الخوالقة وعبد الرحمن

الصاوى والشيخ طه مسعود . كان يحرص أن يلتقى اسمه بهم ، يفيد من اقترانه بأسماء الرجال المهمين فى بحرى . يعتز بأنه أدى فريضة الحج من قبل أن يولد . حجت أمه قبل ولادته بأشهر ، فأصبح حاجاً دون أن يرى العالم . وكان يحرص على جلسة العصر أمام الدكان ، وعلى درس المغرب ..

كان لدكانه بابان : باب يمارس فيه الحلاقة وعلاج المرضى ، والآخر يفضى إلى داخل بيته ..

المصادفة وحدها هى التى دفعته للمزاوجة بين الحلاقة والطب : شكا الحاج قنديل من صداع ينتابه بين فترة وأخرى . وصف له مجموعة من الأعشاب ، تسحق وتشرب على ريق الصباح . تذكّر الوصفة من كتاب فى مكتبة أبو العباس . أفلح العلاج ، كرره فى حالات أخرى لرجال آخرين ..

أقبل على قراءة الكتب : كتاب ابن سينا ، وكتاب الحاوى للرازى ، وشرح أسماء العقاقير للقرطبى ، والأغذية لابن البيطار ، وتذكرة أولى الألباب والجامع العجاب لداوود الأنطاكى . أهمها كتاب منزوع الغلاف ، فى التعاويذ السحرية . يستمع إلى شكوى المريض . يتبين مواطن الألم .

يعود إلى الكتاب . يتأكد من تطابق التعويذة مع الحالة التى يعالجها . يكتب التعويذة فى ورقة . يضع الورقة فى إناء . يعطى الماء المتخلف للمريض ، فيشفى بإذن الله ..

وكان له ولع بتركيب الأدوية . يتردد على سوق الترك . يشير عليه العطارون بوصفات للأمراض المختلفة . يصنع من خليطها معاجين للحالات التىتتردد على دكانه ..

ملأ صيدلية الصالون بالمطهرات : الديتول والفنيك والكولونيا والقطن الطبى والمقصات المعقمة والشاش والمسكنات وحقن المورفين . صف على الأرفف أحقاق الصبر والمر والحنظل والكمون والحلبة وقشر الرمان وشواشى الذرة والبقدونس والنعناع والكراوية والشيح والينسون والقرفة والدار صينى والمرارة . جمع له خميس شعبان الأصداف والقواقع من ظهر الترسة . جففها ، وطحنها ، وأضاف إليها بعض الزيوت . صارت مرهماً يستخدمه فى علاج الجروح ، وسرعة التئامها . يستخدمه كذلك فى حساسية الجلد . ويحمل فى جيبه زجاجة صغيرة من زيت الحبة السوداء . يثق أنها تشفى من كل مرض ..

تعلم الختان على يد عم جودة ، الحلاق اليهودى أول السكة الجديدة . قصر عمليات الختان فى المناسبات الدينية ، يعتذر عنها فى الأوقات الأخرى ، وفى الأماكن البعيدة . يجريها فى المولد النبوى ، وعيد الهجرة ، وذكرى الإسراء والمعراج ، وليلة النصف من شعبان ، وذكرى مولد المرسى ..

اقتنى حقيبة جلدية صغيرة . تضم قطعاً من القطن ، وزجاجة ميكروكروم ، وأخرى للكحول ، ولفافة شاش ، وموسى مما يستعمله الحلاقون ، ومقصات مختلفة الأحجام ..

قال له حمادة بك :

ـــ لاينقصك إلاّ سماعة الطبيب ..

قال :

ـــ إنى أكتفى بأذنى .. إنها سماعة إلهية !..

ذاع صيته فى شفاء المربوطين والمسحورين ، ومرضى الصداع والحمى والنزيف ، ووجع الجنب . وعالج دود البطن والدوسنتاريا والبواسير . لجأ إلى الأعشاب

والوصفات والرقى والأحجبة . ربما أضاف إلى علاج مرضاه آية الكرسى ، يتلوها بطريقة منغمة ..

روى أمين عزب ، انه صحبه بنفسه إلى الطبيب الأرمنى مردروس ، جاره فى الطابق الأول من البيت . تزايد الألم فى بطنه ، فغاب التصور أنه مجرد عارض . كشف عليه الطبيب ذى الجسد الممتلئ ، والشعر الأبيض ، والعينين الزرقاوين ، والذقن المدببة ..

سأل :

ـــــ هل حاولت علاج نفسك ؟..

قال أمين عزب :

ـــــ عالجنى الحاج محمد ..

وأشار إلى الرجل الطويل القامة ، ذى البالطو الأبيض ، والنظارة الطبية ، والحقيبة ، الواقف بجانبه ..

قال الطبيب متشككاً :

ـــــ ماذا فعل ؟..

عدد له محمد صبرة ماقدمه من عقاقير وأعشاب ..

نقل الطبيب المسميات فى أجندة أمامه . أطال تأملها . ثم قال مؤكداً بنتر أصابع يديه فى الهواء :

ـــــ لن أصف لك أفضل مما وصفه لمرضك ..

وأردف :

ـــــ داوم على العلاج !..

زاد إلى مهنته ممارسات ، مثل التدليك وكاسات الهواء والجراحات البسيطة : الفصد والحجامة والحمصة . فإذا أصيب شخص بتسمم ، لجأ إلى تشريط جلده بشفرة الحلاقة ، فيخرج الدم المسموم . ربما لجأ ـــــ لشفاء مريض ـــــ إلى كيه بالنار . يغلبه اليأس من العلاج ، فيعلن :

ـــــ لما غضب لقمان الحكيم من الدواء .. رماه فى النار !..

ثم أعلن رفضه لإجراء الجراحات ، مهما كانت بسيطة . موسى الحلاق غدار ، ولاأمان له . قد تفيد قطعة الشبة فى إيقاف النزيف ، إن أخطأ الموسى فى حلاقة الوجه . ماذا يفعل لو أخطأ الموسى موضع الفصد ؟!..

قيل إنه احتفظ فى ضلفة الدولاب بكفنه ، وزجاجة من ماء زمزم ، لغسله ، وتجهيزه . وأوصى بأن يصلى عليه ـــــ عند وفاته ـــــ فى مسجد سيدى المسيرى القريب من الدكان ، والذى يصلّى فيه معظم الأوقات ..

* * *

قال سيد ، يناوشها :

ـــــ إذن .. إلجئى إلى أبو العباس ..

فاجأته بالقول :

ـــــ وقفت على مقامه حتى تعبت ..

تعددت زياراتها إلى ضريح السلطان ، تتحدث إليه ، تناجيه ، تشكو إليه ، تلتمس البركة ، تطلب النصفة والشفاعة والمدد . كنست الضريح بملاءتها ..

لما قهرها اليأس من أن يستجيب أبو العباس لها ، وينصفها ، وضعت على ضريحه شمعة بالمقلوب . تضايقه ، فيتنبه لما تعانيه ..

هتف سيد كالمتذكر :

ـــــ إذهبى إلى الشيخ أمين عزب ..

أعادت الإسم :

ـــــ الشيخ أمين عزب ..

سألت للتأكد :

ـــــ تاجر السمك ؟..

وهو يشيح بيده :

ـــــ كان ذلك من زمان .. هو الآن إمام زاوية خطاب..

أضاف بلهجة محرضة :

ـــــ كلميه ، فيطلب من حمادة بك أن يتركك فى البيت..

وشى صوتها بالتشكك :

ـــــ وإذا رفض ..

قال فى تأكيد :

ـــــ سيقبل .. يخشاه الجميع منذ طرد الرجل الغريب من قهوة الزردونى ..

وهى تلملم ملاءتها حول جسمها :

ـــــ سأحاول .. وإن كنت لاأطمئن إلى النتيجة ..

خبط سيد على رأسه فى تذكر :

ـــــ أخيراً ..اكتشفت عين حمادة بك فى الفرن ..

استطرد للتساؤل فى ملامحها :

ـــــ حكاية الخبز الرجوع ..

قالت متنبهة :

ـــــ من ؟..

ـــــ فؤاد أبو شنب .. رئيس العمال ..

صمتت للحظات ، ثم قالت :

ـــــ هذا واجبه ..

قال سيد :

ـــــ صحيح لو أنه لم يهد الخبز الصابح لمن يشاء !..

ـــــ مسئوليته وهو حر ..

ثم وهى تربت صدره :

ـــــ أغناها الله بالحلال !..

هز رأسه مؤَمناً . تبين المفارقة فيما قالت . ضم شفتيه ، يخفى البسمة المتراقصة على شفتيه .

البـــــاب المغلـــق

أذهلها الخوف من الجلوس فى حضرة الشيخ أمين عزب . اختارت الشوارع الجانبية : الكنانى ، والموازينى ، وسراى محسن باشا ..

ناوشها التردد حين واجهت ميدان الخمس فوانيس ، باتساعه ، والوجوه المطلة من النوافذ ، والمارة ، والجالسين على قهوة المهدى اللبان ، وبقايا سوق العيد ..

نفضت رأسها ، فلا يشغلها التفكير ، أو يقهرها . أحكمت الملاءة حول جسمها ، وتأكدت من وضع البرقع ، ورفعت ذيل الملاءة بأصابع متوترة ، واكتفت بغمغمة لاتعنى شيئاً ، وهى تواجه سؤال عم خلف البواب ، فى دخولها البيت :

ـــ رايحة فين ؟..

تابعت موعد انصرافه من زاوية خطاب ، بعد صلاة العشاء . يمضى فى شارع المسافرخانة ، ومنه إلى الحجارى ورأس التين . يلقى السلام على رواد قهوة المهدى اللبان ،

ويصعد إلى بيته . يضئ حجرته المطلة على الميناء الشرقية ، ساعة أو اثنتين . ثم يطفئ النور ، فلا يضيئه ثانية إلاّ مع تسابيح الفجر ..

سبقته إلى دخول الحجرة سيدة جاوزت الثلاثين . خمنت من بشرتها الوردية ، والذؤابات الحمراء فى شعرها ، داخل الإيشارب الحرير ، أنها أخته ، أو إحدى قريباته ..

* * *

البيت يطل على ثلاث جهات . من ناحية على شارع رأس التين ، فى امتداده إلى الموازينى والحجارى ، وعلى شارع فرنسا إلى المنشية . أما الواجهة ، فتطل على شارع اسماعيل صبرى ، يتجه ــــ فى ناحية ــــ إلى الميناء الشرقية . وأما النوافذ والشرفات الخلفية ، فتطل على الشارع الخلفى . يشغل جانبه ــــ فى الناصية ــــ جامع على تمراز ، فبيتان من خمسة طوابق ، ينتهيان إلى فرن التمرازية ، واجهته على شارع الشوربجى . ضيق ، طويل ، يفضى ــــ من جهة ــــ إلى الموازينى ، ويمثل ــــ فى الجهة المقابلة ــــ توازياً لشارع الميدان ..

مع أن أفراد الأسرة كانوا يمارسون العادى والمألوف . ينصرفون إلى مدارسهم ، ويعودون منها ، ويطلون من النوافذ والشرفات ، يتابعون مواكب الملك ، والطرق الصوفية ، وسوق العيد ، وينادون على الباعة ، وينشرون الغسيل ، ويفتحون الراديو ، فيصل صوته إلى بقية شقق البيت ، ويجلس الصغير طاهر ـــ من العصر إلى قبل الغروب ـــ على دكة عم خلف البواب .. مع ذلك ، فإنهم كانوا يميلون إلى العزلة . لايتبادلون الأحاديث مع الجيران ، ولايشجعون التزاور فى المناسبات . لم ترو جارة فى البيت أنها شاهدت الشقة من الداخل . صعب على الأسرة أن تندمج فى البيئة التى تحيا معها ، وصعب على البيئة أن تجتذبها ، فاكتفى الجميع بالحد الذى وضعه أمين عزب فى علاقة أسرته بجيرانها ..

كانت له ـــ فى بيته ـــ مكتبة هائلة . صنع لها أرففاً تمتد من الأرض إلى السقف ، بسعة حجرة كاملة . مبذولة لمن يريد الاستعارة من أصدقائه . يترددون عليه ، يلتمسون عنده النصح والإرشاد والفتوى الصحيحة ، مصادرها بطون الكتب . وكان يخلو إلى الكتابة والتأليف ،

عقب عودته من زاوية خطاب . ينظم الأوراق والأقلام والدواة والنشافة ، والكتب التى قد يحتاج الرجوع إليها . يسأل أهل البيت إن كانوا يحتاجونه فى شئ ، ثم يغلق عليه باب حجرته . ينصرف إلى الكتابة ، حتى تغلبه الحاجة إلى النوم ..

لم يعد يغادر الزاوية إلاّ إلى البيت . عاش ـــ منذ هجر حلقة السمك ـــ على إيراد بيت قديم فى شارع حداية ، وعلى إيراد بلانس ترك أمره لعباس الخوالقة . يحدد موعد السفر ، والجهة التى يقصدها ، وأسعار السمك . يحاسبه على نسبة ، ويوزع الباقى على الصيادين . سبب نعمته ، صحوه ـــ ذات فجر ـــ على دقات عالية . فتح الباب ، فطالعته بغلة العشر . اختارته دون العالمين ، لتلقى أمامه بخرج مملوء ذهباً ..

قل تردده على دروس أبو العباس . ثم لم يعد يظهر ـــ إلاّ نادراً ـــ فىصحن الجامع ، ولاأمام أبوابه ، ولاعند المقام . فلما أظهر ضيقه من المنكرات التى تسللت إلى حلقات الذكر ، ومن بدع الطرق الصوفية ، ران صمت على مجلس الإمام ، وإن غابت الاستجابة . وكان ذلك آخر

عهده بجامع المرسى ، فيما عدا مشاوير متباعدة لصلاة الجمعة ..

وخرج ـــ ذات ليلة ـــ لجماعة كونوا حلقة ذكر ، فى الساحة المواجهة لزاوية خطاب ، وتعالت مدائحهم الممهدة ..

أمرهم أن يقيموا أذكارهم فى مكان آخر . ثم أعلن ـــ فى خطبة الجمعة التالية ـــ رفضه للأعلام والرايات والطبول والدفوف والرقص والانجذاب والمواكب والتحلق حول شيوخ الجهل ..

مع أن صديقيه عباس الخوالقة وعبد الرحمن الصاوى ظَلاَّ حريصين على درس المغرب ، فإنه لم يعد يتردد عليه . إنما هى صلاة الجمعة ، يؤديها ـــ أحياناً ـــ فلا يظل فى الجامع ، حتى لزيارة مقام السلطان ..

وحين استوقفته امرأة ـــ عقب صلاة الجمعة ـــ تحمل طفلاً مقيد الساقين ، ترجوه أن يفك القيد ، ليعينه على المشى ، انتهرها فى غضب :

ـــ هذه خزعبلات ياامرأة .. اذهبى بالولد إلى الطبيب ..

وأهمل ملاحظة عبد الرحمن الصاوى :

ـــــ أنت بهذا ترفض كرامات شيخك عرفة الأنصارى ومكاشفاته ..

شاهده الكثيرون عندما جلس فى الموضع الذى خصص لجلوس الملك فاروق بجامع على تمراز . أُعلِنَ أن الملك سيصلى فى الجامع ، واصطف العساكر فى ميدان الخمس فوانيس ، وتناثروا فى سطح الجامع ، وفوق مئذنته ، وفى أسطح البيوت المطلة على الميدان ..

نبهه المعلم كشك إلى مافعل ، فظل جالساً :

ـــــ هذا بيت الله ..

خالط نصيحة المعلم كشك إشفاق :

ـــــ أنا لم أطلب منك ترك الجامع .. اختر موضعاً آخر !..

قال فى إصرار :

ـــــ هذا هو الموضع الذى اخترته !..

ظل فى المكان . يأبى أن يتركه ، لولا رجاء الشيخ عبد الحفيظ ـــــ إمام الجامع ـــــ وكان يضمر ، ويعلن ، له احتراماً ـــــ فأخلى مكانه ، وجلس بين المصلّين ..

أعلن سخطه لما عرض على الشيخ أحمد أبو دومة ، صاحب كُتَّاب " ولى العهد " بشارع فرنسا ، أن يقدم جرساً هدية للكتاب . اعتذر الشيخ بأن النبى حذر من أن الجرس آلة الشيطان الموسيقية ، والمكان الذى يوضع به جرس لابد أن يخلو من الملائكة ..

***

سحب يده ، لما همت بتقبيلها ، وأصر أن تجلس فى الكرسى المقابل . تحيط بها أرفف الكتب . وفى الجانب ، تطل الشرفة على الأضواء المتناثرة فى الميناء الشرقية . وتتناهى من قهوة فاروق القريبة ، أغنيات الفونوغراف ، ونداءات الجرسونات ، وصيحات الجالسين ..

ذهب خوفها ، فى اللحظة التالية لجلوسه فى المقعد الجلدى ، وراء المكتب . سألها إن كانت من الاسكندرية ، أم من الوافدين إليها . لم يسألها عن اسمها ، ولاوظيفتها ، ولاأحوالها الأسرية . هو ـــ بالتأكيد ـــ يعرف إسمها ، وماذا تعمل ، وإن أظهر عدم المعرفة ..

دفعها ـــ بنظرة حانية ـــ إلى التحدث ..

روت مالم تكن تتصور أنها ستروية لرجل فى مثل سنه ومكانته . لاحظت اختلاج لحيته الكستنائية ، وارتعاش أهدابه ، واحمرار أذنيه ، ونظرات حرج يرنو بها إلى المرأة الأخرى ، الساكنة . لكنه ظل على هدوئه وصمته . يستحثها على المواصلة بصوت رتيب ، من فمه المغلق ..

أعاد التأكد من انسدال العباءة فوق كتفيه ، واعتدل فى جلسته ، بحيث واجهتها عيناه..

أخفضت رأسها للبريق الهادئ ، الملتمع فى العينين :

ـــــ أريد خدمة ..

وهو يتأمل التفاف الملاءة حول جسمها :

ـــــ ماذا تطلبين ؟

فى لهفة :

ـــــ يتركنى حمادة بك فى البيت ..

علا صوته بالدهشة :

ـــــ هذا بيته ..

غالبت الارتباك :

ـــــ أعرف .. لكنه مهجور !..

أغمض عينيه ، كمن أسلم نفسه لغفوة . ثم قال :

ـــ منذ لزمت زاوية خطاب ، لم أعد ألتقى بالرجل ، ولا بسواه ..

همست بجرأة ، لم تتوقعها فى نفسها :

ـــ يتحدثون عن طردك للرجل الغريب فى قهوة الزردونى ..

أطلق ـــ من أنفه ـــ ضحكة مبتورة :

ـــ هل تريدين أن أضرب حمادة بك ؟!

وأردف بلهجة معتذرة :

ـــ ماحدث فى قهوة الزردونى لإعادة الأمان إلى الحى ..

وقال للارتباك فى ملامحها :

ـــ سأحاول أن أزوره فى مكتبه ، أو فى دكان الحاج محمد صبرة ..

ثم فى صوت يفعمه التساؤل :

ـــ قيل إنه لم يعد يحضر دروس المغرب فى أبو العباس ..

مضت لحظات صمت . توزعت نظراته بين أنسية والمرأة الجالسة ، ثم انتزع الكلمات :

ـــــ عليك أولا أن تبتعدى عن هذه الـــ ..

وتشابكت أصابع يديه ، وافترقت ، وتشابكت ، ثم سكت .

استقباله الطيب أذهب كل الوساوس من نفسها . فاجأها بالقول ، فأطرقت رأسها ..

علا صوته مستطرداً :

ـــــ وعليك أيضاً أن تبتعدى عن حياة الخفافيش فى البيوت المهجورة ..

أخذتها المفاجأة ، فعصتها الكلمات ..

قال وهو يتأمل الكتب المرصوصة :

ـــــ لماذا لاتعودين إلى الخدمة فى البيوت ؟.. ذلك أرحم .. ويضمن لك المأوى ..

أضاف فى تشاغله بتأمل الكتب :

ـــــ أثق أن لك أسرة طيبة .. إن لم تكن الخدمة فى البيوت تروقك ، عودى إليهم ..

ولون صوته ، بما يهب معنى يقصده :

ـــــ أنت الآن كبيرة .. ولن يجبرك أحد على فعل شئ!

تألقت عيناه ـــــ فى اللحظة التالية ـــــ بمودة واضحة . وهمست لنفسها ، وهى تميل فى شارع سليم البشرى :

ـــــ هل اكتفى بالبسملة والتكبير ، قبل أن يجز عنقى ..!؟

بعيـــــــداً عن الشاطئ

تك تك .. تك تك .. تك ..

ثم وهن صخب الموتور . سكنت الحركة فى اللنش الصغير ، وماحوله . توقف تماماً ..

نظر ـــ بتلقائية ـــ حوله ، وهو يحاول معالجة العطل . على اليمين قلعة قايتباى . أمامه المراكب الصغيرة ، فى نهاية الميناء الشرقية . يشاهد حركة العاملين فيها ، وإن لم تصله أصواتها . وعلى اليسار ـــ من بعيد ـــ لسان السلسلة يمتد إلى داخل البحر ..

لم يكن يعرف فى اللنش إلاّ أن يدير المفتاح ، فيدور المحرك . تابع الولد زعرب يفعل ذلك ، ففعل مثله . عرض الولد أن يدله على بقية الخطوات ، فرفض :

ـــ إذا تعطل .. فسأدعوك للتصرف ..

أردف وهو يعبر بيديه :

ـــ أنا لاأبتعد عن الشاطئ كثيراً ..

هم زعرب بالمزيد من الشرح ، فأسكته بإشارة من يده..

حرص ـــــ فى البداية ـــــ ألا يجاوز المنطقة ، مابين نهاية الميناء الشرقية ، إلى حيث يطل على جامع البوصيرى وميدان أبو العباس ..

لم يكن يعرف العوم أيضاً . أوامر أمه الصارمة لم تتح له مجرد الجلوس على شاطئ البحر ، أو اللعب فى الشارع الخلفى ..

كان يتابع ـــــ من البر ـــــ سباق القوارب . القوارب الحمراء من السيالة ، والخضراء من رأس التين . الفائز يسرق الريح من الآخرين . يركبه ، يغطى قماش قاربه على القارب المجاور . يطلع فوق ريحه . كلما كان الشراع كبيراً ، امتلأ بالريح أكثر ، وإن تعرض غير الفاهم للغرق . لامقاديف . القيادة لماسك الدفة . الطريق المستقيمة خاطئة . كلما كان سن المركب من أسفل ممدوداً وحاداً ورفيعاً ومسحوباً ، كانت فرصة الفوز أكبر . المصيبة لو أن الصارى التف بالشراع . يدور حول الشاطئ ، ثم يتجه ـــــ بميل ـــــ إلى الجزيرة فى مدى الرؤية ، والعودة . من يعود أولاً هو الفائز . يحمل مع أصدقائه قاربه ، يسيرون فى الشوارع من رأس التين إلى مرسى القوارب والفلايك

بالميناء الشرقية . يتجهون ـــ فى مظاهرة الفرح ـــ إلى ميدان أبو العباس ..

يغنى الفائزون من السيالة :

قفة رملة وقفة طيـــــــــــن

على ولاد راس التيـــن

ويغنون :

وديتوا عشاشكـــــــوا فين

لما الملـــــــك شحطتكـــوا

ويغنى الفائزون من السيالة :

سيـــــــــــــــــــالة ياسيالـــــة

يااللى مافيكـــــى رجالـــــة

ويغنون :

عملوا حمام الأنفوشى

علشان نسوان السيالـــــــة

أحس بالوحدة ، فداخله خوف ، لم يقلل منه رؤية قلعة قايتباى القريبة ، ومعهد الأحياء المائية ، ولاأشرعة السفن الصغيرة ، تتماوج فى زاوية الميناء الشرقية ، ولا الأصوات المتلاغطة ، البعيدة ، لايعرف ـــ بالضبط ـــ مصدرها .

تمنى لو اقترب صوت ، أو مرت فلوكة بالقرب منه . صعب أن تموت ، فلا يدرى بموتك ، ولابمكانك ، أحد . تغرق ، تنتهى ، كأنك لم تكن ..

نادى بأعلى صوته ، فتبدد النداء فى الفراغ ..

ارتفعت شمس الضحى ، فسال العرق على وجهه ، وأحس بالتصاق الثياب ..

الزورق جزيرة لايراها أحد . يشاهد الجالسين فى المراكب ، وعلى الشاطئ ، وغازلى الشباك ..

ينادى ، ويلوح بيده ، ويقفز ، فلا يغادر السكون حوله مألوفه . حتى زوارق السواحل اختفت ..

أبعد مكان سار إليه ، خلف قلعة قايتباى ..

السور المرتفع لمساكن السواحل ، والهدوء أغراه بالتلميح . ضحك عباس الخوالقة من أعماقه : قل لصاحبك . لاأقوى على القول إنى أنا صاحبى . روى عن أنسية وشخص آخر ، أسعفه الخيال برواية ظروفه . آلمه الإحساس بتفوق الخوالقة ، وضآلته . يتكلم ببساطة ، يناقش ، ويسأل ، ويعلق ، ويدهش ، ويسخر . يكتم فى صدره

الكلمات ، يقلبها ، فلا يتحدث إلاّ بما يحوم حول السر ، ولايكشفه . كره عباس الخوالقة ، وكره نفسه ..

اتخذ قراراً مفاجئاً بالعودة . كره المكان أيضاً ، فلم يذهب إليه ثانية ..

أجهده السر ، والتطلع إلى المشتهى . حتى جلوسه فى صحن أبو العباس . يختار موقعه فى مواجهة المقام ، للفرجة على اللواذ بالسلطان ، الطواف حول الضريح ، الهمسات بطلب النصفة والبرء والشفاعة والمدد . لايحول عينيه . ربما وجد استجابة ، فيخرج وراء الإيماءة إلى الدحديرة الخلفية . يروى مايعانيه . ينفض عن نفسه ماشغل أعوام عمره ..

أضناه السير فى الحوارى والأزقة ، والتطلع فى النوافذ والبلكونات . لايكشف مايعانيه بغزل أو مخاطبة . يكتفى ــــ إذا كان المكان خالياً ــــ بالتلصص وإطالة النظر ..

أهمل ماروى عن قاسم الغريانى إنه عرض على نبوية زوجة توفيق مكوجى الرجل ، أن تضايق زوجها ، فيطلقها ،

ويتزوجها هو . ثار المكوجى لأول بادرة ، وألبسها جردل الماء ، فعادت إلى طبيعتها المستكينة ..

أقلقه أن المعلم أحمد الزردونى شاهده وهو ينتظر أنسية ، أمام بيت مهجور ، تطل عليه نافذة شقته بشارع سليم البشرى . أطفأ الزردونى النور ، وتطلع من خصاص الشيش ، حتى قدمت أنسية . اصطحبها إلى داخل البيت ، ومضى وقت ، قبل أن تغادر أنسية البيت ، ويلحق بها ..

هل روى الزردونى مارآه من النافذة المطلة على البيت المهجور ؟ وهل فضفضت أنسية لسيد الفران ؟..

تعددت زياراته إلى قهوة الزردونى ، منذ اعتزم الترشيح للانتخابات . الصيادون ـــ كما وعده الحاج قنديل ـــ ورقته الرابحة بين مرشحى الأحزاب . لم يواجه إشارة ولاتلميحاً من المعلم الزردونى ، ولا من رواد القهوة . رحبوا به ، وبالمشاريب على حسابه ، ووعدوه خيراً ..

سأل المعلم الزردونى :

ـــ هل حددت الحكومة موعد الانتخابات ؟..

ـــ لا !

واستطرد بثقة العارف :

ـــــ لكن الأحوال السياسية تؤكد ضرورة إجراء انتخابات جديدة ..

تأمل سيد الفران ، وواجه عينيه ..

بدا مرتبكاً للسر الذى يعرف أنه يعرفه . يسرق الخبز الرجوع ، ويعطيه لأنسية .

أنسية !..

هل روت ماجرت فى البيت المهجور ؟.. وهل ارتباك سيد ـــــ هذه المرة ـــــ لأنه يخشى افتضاح ماقد تكون أنسية ائتمنته عليه ؟!..

أجهده كتم السر . لمح لزوجته ، فى لحظات الاشتغال . رفضت بما لم يتوقعه :

ـــــ أنا زوجة ولست عشيقة !

قلبت شفتها ، وأردفت :

ـــــ المفروض أنى تزوجت رجلاً !..

تذكر ـــــ بينه وبين نفسه ـــــ قول المعلم التميمى : المضاجعة الحلال لالذة فيها !..

زوجه أبوه قبل أن يبلغ العشرين . اجتذبت الأب دوامة المرض ، فأراد أن يطمئن عليه فى حياته . اختار له نهى

بنت سعيد النقيب . شغله النسب ، ولم يعن حتى بأن ترى زوجه الفتاة . وافق على شروط أبيها . حتى أعماله وأملاكه تنازل عنها ـــ فى حياته ـــ شرطاً لقبول سعيد النقيب تزويج ابنته من وحيده . ساعد على قبول الشرط فشل حمادة فى الدراسة . أنجب منها بنتين وولداً . مع ذلك ، شكا لأمه أن علاقته بزوجه ، أقرب إلى الجيرة . يتعاشران ، ويتحادثان ، وينعيان المشكلات .. لكن الحائط الغلالة قائم ، ويصعب إغفاله ..

تنبه لصوت محرك يقترب ..

حدق النظر فيما حوله : شابان يقودان لنشاً ، مضى من وراء القلعة فى اتجاه السلسلة . اختفى اللنش بعيداً ، قبل أن يصيح منادياً ..

أرهقه ابتعاد أمواج يتمناها . أمواج عالية متوالية ، تلطم وجهه ، تعلو بجسمه ، وتسلمه إلى الأعماق ، تقذف بملوحة الماء فى فمه ، تحيط به أسماكها فتدميه .. لكن السراب ظل على سكونه فى نهاية الأفق . لاحياة تجتذبه من دوامة الترقب والجنون والاشتعال . ترك لفؤاد أبو شنب إدارة الفرن ، وتحصيل الإيجارات . يسلمه الفراغ إلى الغابة

الوحشية . ينصت إلى أصوات الزئير والخوار والفحيح . يشقيه غياب الومضات والإيماءات المحرضة . رد الفعل المغاير لايقوى على تحمله . يصخب فتقتله النظرات الشامتة . يصعب أن يجلس فى قعدة العصر أو صلاة المغرب . ربما عصته خطواته عن السير . هده التطلع إلى مابعد الوقفة أمام ترام الرمل ، وملاحقة النظرات لعابرات السبيل والنوافذ المفتوحة والملامح المجهدة حول مقام أبو العباس ، واللف فى الحوارى والأزقة ، وترقب المفاجأة ..

أنقذته كلمات الحاج قنديل من الحصار القاسى . انفراجة الباب نبهته إلى دنيا لم يعرفها ولا تصورها . يشارك ـــ بالمسايرة ـــ فى أحاديث السياسة ، ويكتم الدهشة لانفعالات التأييد والمعارضة ، ويسكت ـــ حتى يخطئ ـــ عن التعقيب على ماينقلونه من الراديو والصحف..

حمّل صوته نبرة اعتذار :

ـــ للسياسة رجالها !

قال الحاج قنديل :

ـــ وهل أنجبتهم أمهاتهم ليدخلوا البرلمان ؟!..

ثم وهو يشيح بيده :

ـــ توكل على الله !..

وحدجه بنظرة مستغربة :

ـــ لماذا ننتخب فى كل مرة مرشحين من خارج بحرى ؟..

ثم وهو يجرى بباطن يده على مبسم الشيشة :

ـــ أعدك بتأييد كل الصيادين إذا رشحت نفسك ..

فاجأه العرض ..

لم تكن السياسة مما يدور له ببال . يشارك فى الاجتماعات الحزبية ، وأحاديث السياسة ، وفى مرافقة المرشحين ، وإن رفض كل الدعوات للانضمام إلى أحد الأحزاب . يعرف أسماء سعد زغلول والنحاس وأحمد حسين واسماعيل صدقى والنقراشى وأحمد ماهر وابراهيم عبد الهادى وحافظ عفيفى . يعبّر عن تعاطفه ، أو رفضه ـــ من خلال الروايات ـــ عما يفعله الزعماء . هزته حادثة كوبرى عباس . أمر النقراشى البوليس بفتح الكوبرى ، فغرق العشرات من الطلبة المتظاهرين . كره النقراشى من يومها . نسى حتى عبارته التى رددتها جريدة " الأساس

" : أخرجوا من بلادنا أيها القراصنة . شارك ـــــ بالمشاهدة ـــــ فى المظاهرات المتعاقبة لطلاب المعهد الدينى . لاتشغله الهتافات ، ولاماذا يطلبون . إنما هو فضول المتابعة . وعندما يبدأ الصدام بين المتظاهرين والعساكر ، يسبق الآخرين فى اللواذ ببيت قريب ، أو الفرار من شارع جانبى..

أجفل لصيحات متآلفة ، طارت فوقه . سرب من النوارس ، قطع نصف دائرة ، ثم مضى بعيداً ..

أهدى قهوة الزردونى ثلاث نرجيلات ، مبسم واحدة من العاج ، والثانية من الكهرمان ، والثالثة من الفضة . حرص على أداء كل الأوقات فى أبو العباس ، وفى جوامع الحى الأخرى ، ومساجده ، وزواياه . ثم جرفته فكرة الترشيحللانتخابات ، فلم يعد يدرى أين يذهب . قدم لزاوية خطاب منبراً ، وفرش أرضياتها بالحصير . أدرك موقع أمين عزب فى نفوس أبناء الحى ، منذ طرد الرجل الغريب من قهوة الزردونى . انقطع الرجل عن درس المغرب فى أبو العباس ، وعن الجلسة أمام دكان الحاج محمد صبرة .

تحددت حياته بين الزاوية والبيت ، فلا يكاد يلتقى إلاّ بالمترددين عليه ..

أشار عليه الحاج قنديل ـــ لتأكيد صداقته ، ولشراء الناخبين ـــ أن يزود الزاوية بما تحتاجه ، ففعل ، وإن التقى بأمين عزب ، عقب صلاة العشاء ، ليلة ، فى أبو العباس ، فلم يشر إلى ماقدمه للزاوية ..

الضحى أنسب الأوقات لعودة البلانسات والفلايك والدناجل والقوارب الصغيرة إلى الشاطئ . تلقى مراسيها . تعد للرحلات التالية . لكن الشمس اقتربت من وسط السماء ، وتموجت المرئيات بالأشعة القاسية . اختلط العرق والملح فى ثيابه ، فالتصقت بجسمه . ليس إلاّ الأفق ، والأمواج الهادئة ، والشمس ، والسماء ، وقلعة قايتباى ، والقوارب الساكنة فى المرساة ..

داخله القلق : ماذا لو استطال الوقت ، دون أن يأتى من ينقذه ؟!..

أقنع نفسه بمحاولة السباحة إلى الشاطئ . مائة متر ، أو أقل . نزعت العصبية كل ثيابه . لم يعد إلاّ سرواله الداخلى . أغمض عينيه ، وقفز . يتذكر ماتعلمه ، ويسبح .

تلاشى التردد . المياه تحيط به . يضربها بساقه وذراعه . يحرص ألاّ يدخل الماء فمه أو أنفه . لايسبح بطريقة محددة تعلّمها . مايهمه هو الوصول إلى الشاطئ . نزل إلى المياه ، فلابد أن ينزل إلى الشاطئ ..

أحس بالمياه تجتذبه . تتسلل إلى فمه وأنفه وأذنيه . أحس أنه يختنق ، وأنه يموت ..

صرخ بآخر ماعنده ..

الحلقة

يارب ياخالق البرايا

يامن تعالى على الشبيه

ياكاشف الضر والبلايا يامن إلى

الكرب أرتجيه

يامن يرانى ولاأراه أهلك

عدوى ومن يليه

يامجزل الفضل والعطايا فى كل

وقت لسائليه

يامنفذ الحكم والقضايا

ولااعتراض لنا

عليه

الحلقة واسعة ، مسورة ، مسقوفة . هجرها الصيادون والباعة إلى الرصيف ، قبالة الباب الضخم . حتى باعة

الترسة ، وقفوا فى الساحة العارية ، الملاصقة ، يتأكدون ـــ قبل الذبح ـــ من وجود زبائن ، يتقاسمون لحم الترسة قبل ذبحها . صفت الطبالى على الأرض ، وفوق الترابيزات الكبيرة . يتخلل الثلج أسماك : الدنيس والقرموط والمرجان والمياس والبورى والبربون والإنش والوقار واللوت والشرغوش والكحلة والطوبارة والقاروص والموزة والسبيط وسمك موسى والكابوريا والجمبرى ..

ترامى نداء من بعيد . تصور أنه منادى يعلن عن وفاة أحد أبناء الحى ..

لما اقتربت اللمة ، عرف أنه إعلان عن ذبح ترسة . لاتذبح إلاّ إذا بيعت ـــ مقدماً ـــ بما يساوى وزنها . يرفض الناس شراء لحمها من الثلاجة . يخشون أن تكون ميتة . أخليت عربة يد لترسة هائلة الحجم ، رقدت على ظهرها . تداخلت ـــ إتقاءً للخطر ـــ فلا رأس ولاعنق ولايدان ولارجلان ولاذنب ..

قال عبد الرحمن الصاوى للولد حنفى :

ـــ لاتذبحها قبل أن تلم الفلوس ..

وتنهد :

ـــــ مشكلة الترسة أن لحمها لابد أن يباع طازجاً ..

لما اطمأن حنفى إلى المبالغ المدفوعة ، دسها فى جيب المريلة الجلد . أمسك برأس الترسة الراقدة على ظهرها ، وبسمل ، وكبر . ثم ذبح زورها بسكين كبيرة ..

تدفق الدم من الشريان ، فخنقه بأصابعه . فتحه ، وأغلقه ، لملء توالى الأكواب . عشرين كوباً وأكثر ، اندلقت فى الأفواه ، دفعة واحدة . يرون فى دم الترسة شفاء لمعظم الأمراض . يهب الصحة والعافية ، ويلغى الدواء . انتفضت قطع اللحم ، تقافزت . أعادتها الأيدى إلى موضعها فى منتصف العربة . اختلطت بالدم المتدفق ، تشبث يدا حنفى بها ، حتى لاتفلت . كأنها حيوانات صغيرة ، والرأس المفصول ـــــ فى جردل ـــــ يحرك عينيه وفمه . إعتاد الناس مارأوا . تشاغلوا بتلقى الدم الفوار فى الأكواب ، وارتشافه ..

قال للشيخ يوسف بدوى :

ـــــ أفتى إمام أبو العباس بعدم جواز شرب دم الترسة..

قال يوسف بدوى :

ـــــ اجتهاد غير صحيح .. فدم الترسة حلال ..

أردف موضحاً :

ـــــ الدم المحرم هو الدم المسفوح .. أسماك البحر تحل ميتة دون حاجة إلى ذبح . والترسة كلها ، لحمها وشحمها ودمها ، حلال .. لأن دمها ليس من نوع الدم المسفوح ..

ـــــ من تريد ؟..

ألفوا سحنته الجديدة ، بعد أن أطال ذقنه . أهملها دون تشذيب . تصاعدت الشعيرات إلى قرب عينيه ..

قال لدياب أبو الفضل وهو يتجه إلى داخل الحلقة :

ـــــ الحاج قنديل ..

قعدة صغيرة فى زاوية الحلقة . كرسى جلس عليه الحاج قنديل . أمامه طاولة ، عليها فنجان قهوة ، ومبسم الشيشة الفضى . تناثر ـــــ فى الأرض ـــــ قفف ومقاطف وغلقان وطسوت وحلل هائلة الحجم وألواح مغطاة بالثلج المجروش . يحرص على المحاسبة قبل العصر . الملائكة الموكلة بقسمة الأرزاق تختار بعد العصر لتجرى قسمتها .

من تراه على سعة ، زادته . ومن كان فى ضيق ، منحته بما يحفظ عليه حياته ..

ميز الحاج بنظارته المقعرة ، وشاربه المنسدل على فمه ، وصوته المشروخ ، وعباءته البنية ، تبدو فضفاضة على جسمه الضئيل ، والشيشة التى لايؤذن بدخولها الحلقة لسواه ..

رفض عبد الرحمن الصاوى أن يعطيه شروة ، ليسرح بها . هل تتصور أنى أغضب الحاج قنديل ؟..

ثم وهو يزغده فى كتفه :

ــــ إذهب إليه ، وصالحه ..

اكتفى بوقفته أمام حلقة السمك فريشاً . يفرش على عربة صغيرة بضاعته من السمك البسارية والزريعة . فوقها مظلة تقى حرارة الشمس . اعتذر عباس الخوالقة وعبد الرحمن الصاوى وبقية المعلمين والباعة ، عن تزويده بما يحتاج إليه . نعوا هم الحاج قنديل ، وتجنبوا إغضابه ..

حكى للشيخ يوسف بدوى مايعانيه . لمجرد التنفيس ، لاتوقعاً أن الشيخ ربما تكلم مع الحاج قنديل ، ولاسعى له

عند معلمين آخرين . علا صوته بكلمات معتذرة ، لما رأى يد الشيخ تدخل جيب العباءة ..

قال يوسف بدوى :

ــــ الشيخ مسئول عن مريده . فرض عليه أن يشفق عليه من قسوة أحواله ، بما يكون جبراناً لتقصير المريد ..

كان مستراحاً لمريديه ، كهفاً لهم ، ملاذاً ، خزانة وحرزاً لأسرارهم . لم يستمع منه إلى غيبة ولانميمة ، ولاذكر مساوئ الآخرين ، أو أفشى أسرارهم . قلبه بحر يبتلع الأسرار والجيف ، لايعلن عما بداخله ..

رافقت هزة رأسه كلماته المعتذرة :

ــــ إذا ساءت الأحوال ، فلن ألجأ إلاّ إليك ..

رغم الذقن الكثة التى أحاطت بوجه يوسف بدوى ، فإن بريق عينيه كان يحدد سنه ، بما لايجاوز الخامسة والثلاثين ، فالراكشى أكبر منه بسبع سنوات ، وإن جاوزت العلاقة بينهما صورة الشيخ والمريد . تبدو أقرب إلى علاقة الأب وابنه . يسأل على الراكشى ، ويشكو الهموم ، ويتمنى الحل . ويوسف بدوى يجيد الإصغاء ، ويضع للمشكلة إطارها ، فتبدو واضحة ، والحل ممكناً ..

ألحق أبو بكر ثانى أبناء على الراكشى بمدرسة راتب باشا بشارع رأس التين . وتوسط عند المشرفة التركية فى مدرسة مصر الفتاة بصفر باشا . تنازلت عن مصاريف الدراسة لثالث أبنائه عثمان . وعندما أنجبت أم العيال طفلة خامسة على أربعة أولاد ، أهداه حلقاً صغيراً من الذهب ، وقال :

ــــ البنات أحباب الله !..

نصحه بأن يرسو على بر . السمك مهنته ، صياداً وبائعاً . المهن الطيارى لاتؤكل عيشاً . صيد الطير له مواسم . مواسم السمك بامتداد العام ، وهو مهنته التى عاشها عمره . يعرف أحوالها ، ويعاشر المغموسين فيها . الوقفة وراء مساكن السواحل ، تضعه فى جزيرة ، لايخالط الصيادين ، ولاالباعة ، يعزل نفسه عن الجميع ..

قال بنبرة تقطر حزناً :

ــــ الحاج قنديل يرقص فى مركبى ..

حدجه يوسف بدوى بنظرة متسائلة :

ــــ كيف إذن يعامل الآخرين ؟..

صمت للحظة ، كأنه يستجمع الكلمات :

ـــــ يوافقون على مالا أوافق عليه ..

قال الشيخ فى صوته الهادئ :

ـــــ أفضل أن نناقش أنفسنا .. ربما غاب داخلنا عيب لم نفطن إليه ..

علت كلماته بنرفزة :

ـــــ الحاج قنديل هو العيب نفسه !..

دون أن يجاوز هدوءه :

ـــــ حاول أن تناقش نفسك .. راجعها .. ولن تخسر شيئاً !..

قيل الكثير عن بداية الحاج قنديل . لم يختلف عن سواه من الصيادين. سنارة و" غلق " وتنقل بين الشواطئ ، أو يشترى مما تأتى به الجرافات فى حلقة السمك . هو الآن يزود البلانس بكل مايحتاجه . الطعام والماء والشاى والسكر والجاز والبنزين وألواح الثلج . حتى السجاير يطمئن الحاج إلى وجودها ، قبل أن يبدأ البلانس رحلته . يطوف صبيانه على بيوت الصيادين أيام النوات . يسلمون كل بيت مايحتاجه من المال والشاى والسكر والسجاير . يسجل لكل صياد مايأخذه . يحاسبه عليه فيما بعد . يعود البلانس بعد أيام .

ربما امتدت غيبته أسبوعاً ، أو أكثر . الحاج أول من يصعد إليه . ينتقى من الطبالى المرصوصة أفضل مافيها ، عشا المعلم . ثم يزن السمك بالأقة . كل أقتين بخمسة قروش . لايهم النوع ولاالحجم . لايأخذ إلاّ الطبلية . ثم يخصم ثمن البنزين والجاز والثلج . يرجئ ثمن الطعام والسجاير والمعسل إلى بداية الرحلة التالية . يدفع صبيانه فى مزادات بيع السمك . يزايدون على الباعة السريحة . يضطر الباعة إلى الشراء بأسعار ، يحددها الحاج قنديل ..

لزم الراكشى موضعه بعيداً عن مجلس الحاج ، يتوسل كى يعطيه أكثر من الكمية المحددة ..

ـــ إن عدت بسمكة واحدة دون بيع .. حاسبنى عليها..

وهو يشيح بمبسم الشيشة :

ـــ هل أعطيك من رزق الآخرين ؟..

قال على الراكشى :

ـــ الرزق بالله .. الخير كثير !..

ـــ عندما يتوزع هذا الخير على السماكين .. لن يزيد نصيبك على ماحصلت عليه ..

علا صوته بالانفعال :

ـــ كنت أحصل على نفس الكمية وأنا أب لاثنين .. والآن أنا أب لخمسة ..

صرخ الحاج :

ـــ تخمّس علىّ ؟!..

وضغط على المبسم بعصبية :

ـــ هذه مسئوليتك ..

قيل الكثير عن العمارات التى يملكها الرجل فى الرمل وسموحة ، وشركات نقل القمح من الجمرك إلى شون الورديان ، والصفقات المشبوهة فى عرض البحر ، يتسلل الرجال ـــ ليلاً ـــ للعودة بها ..

امتلك الحاج قنديل الحلقة .. فهل يمتلك البحر أيضاً ؟!.

يتفق الجميع أن من يرضى عنه الحاج قنديل ، يدخل الحلقة ، يشترى ويبيع . من يغضب عليه ، لايدخل الحلقة ، ويواجه المضايقات خارجها ..

كان يحرص على صداقة المعلمين . لايأذن للخلافات أن تنفذ بينهم . إذا أفلح الصيادون والسماكون فى تفتيت وحدتهم ، يدفع الجميع الثمن . وإذا عين مأمور لقسم الجمرك

، أو مفتش جديد للمباحث ، أو مأمور لنقطة الأنفوشى ، بادر بزيارته . لايحمل هدايا ، وإن لمّح بما يأذن بانفراجة الباب . إذا ظل الباب موصداً ، اكتفى بالزيارة ، وعبارات المجاملة ، والتحدث فيما يهبه الرجل انتباهه . حين تتبدى انفراجة الباب ، يبعث صبيانه بالهدايا لتوسيعها . وكان يعرف رجال المباحث معرفة شخصية . حتى المخبرين كان يعرف أسماءهم ، وأين يقيمون ، وجلس مع غالبيتهم ، وسهر ، وأكل ، وشرب . وقيل إنه خصص لمخبرى المباحث رواتب شهرية لقاء إبلاغهم له بتحركات حملات الضبط قبل بدئها . وإذا دخل مكتب مسئول ، صحب معه من يقدمه : الحاج قنديل . تتغير الاستجابة ـــ بالتقديم ـــ فى عينى المسئول وتصرفاته ..

هم الراكشى بترك الحلقة ، فلا يواجه الحاج قنديل فى لحظة غضب ..

لحقه صوت الحاج :

ـــ ماذا تريد ياراكشى ؟..

لم يعد أمامه إلاّ أن يشرح الحال ، ويطلب النصفة ..

ـــ خدامك ياحاج ..

أشاح الحاج بمبسم الشيشة :

ـــ ثم ماذا ؟.. ماذا تريد ؟..

وهو يظهر المسكنة :

ـــ يرفض الجميع تقديم ماأسرح به ..

ـــ وأنا أيضاً أرفض ..

ـــ لماذا ؟..

تقلقل الحاج فى جلسته :

ـــ لأنى ظالم .. أليس هذا ماتدعيه ؟!..

اختار للرجل ـــ فى نفسه ، وبين الصيادين ـــ اسماً ثانياً ، يعبر عن نظرته إليه ، ومايحس به نحوه . قنديل البحر . لدغته بالسم الهارى ..

فى نبرة متذللة :

ـــ أنا لم أجلس فى القهوة منذ أشهر ..

أطلق الحاج شخرة من قاع حلقه :

ـــ صار الشيطان درويشاً !..

وعلا صوته :

ـــ حتى لو توسط شيخك يوسف بدوى .. لن تأخذ بضاعتى ..

بدل الانفعال ملامح الراكشى . ضايقه ذكر اسم شيخه فيما لاشأن له به . زفر فى نفاد صبر :

ـــ هذا حرام !

رمقه بنظرة مشتعلة :

ـــ هل أخذت مالك ؟.. بضاعتى أبيعها لمن أريد !..

ودس المبسم فى شفتيه .

يامريدى .. لاتضق بى !

قال أبو العباس : من أحب الله ، وأحب الله فقط ، تمت ولايته . والمحب على الحقيقة لاسلطان على قلبه لغير محبوبه ، ولامشيئة له غير مشيئته ، فإن من ثبتت ولايته من الله لايكره الموت . وقال : من أجل مواهب الله تعالى ، الرضا بمواقع القضاء ، والصبر عند نزول البلاء ، والتوكل على الله تعالى عند الشدائد ، والرجوع إليه عند النوائب . فمن خرجت له هذه الأربع من خزائن الأعمال على بساط المجاهدة ، ومتابعة السنة ، والاقتداء بالأئمة ، فقد صحت ولايته لله ، ولرسوله ، وللمؤمنين . وقال : لو كشف عن نور المؤمن العاصى ، لطبق مابين السماء والأرض . فما ظنك بنور المؤمن المطيع ؟!

قال على الراكشى :

ـــ أنا عائد من الحلقة ..

أردف للتساؤل فى عينى الشيخ يوسف بدوى :

ـــ كنت أحاسب على شروة بعتها لحسابى ..

قال يوسف بدوى :

ـــ على التلميذ ألاّ يشتغل بشئ سوى الحق سبحانه ، حتى ينفعه التعليم ..

واتته جرأة :

ـــــ ومن أين أطعم أولادى ؟..

قال الشيخ :

ـــــ لاأدعوك إلى هجر لقمة العيش .. ولكن يجب أن تمشى فى طريق الله معظم خطواتك ..

أذهله التغيّر فى ملامح الرجل ، وفى نبرة صوته ،وطريقة كلامه . لم يعد ذلك الأب الذى يلقى برأسه على صدره . يسأله ، ويناقشه ، ويشكو له همه . استحال هماً يطل فى العينين ، وفى تقلصات الوجه ، وارتعاشة اليدين ، والنبرة الباترة ..

ثم وهو يضرب الهواء بجانب يده :

ـــــ أذكر ربك امتثالاً .. لاالقصد دنيا !..

وعلا صوته بنبرة محذرة :

ـــــ إذا كان قلبك جنباً ، فانصرف !..

تساءل بالدهشة :

ـــــ هل يجنب القلب ؟..

قال الشيخ :

ـــــ جنابة القلب غفلته عن خالقه ..

الحاج قنديل يحصى عليه أنفاسه فى قهوة الزردونى . عيونه وآذانه ينقلون إليه مايقوله . هل يكمل الشيخ الدائرة ، فيحصى أنفاسه فى الحياة كلها ؟!..

اشار الشيخ إلى صفى الرجال المنتظمين ..

بدأ الذكر بقرار مطمئن ، هادئ . هسيس النخيل ، أو تلاحق أمواج البحر ساعات هدوئه . ثم انتقلت الحركة إلى مقامات أخرى ، أكثر ارتفاعاً ، حتى مقام الأوج . حمى الوطيس ، وبلغت حركة الذكر غايتها من القوة والسيطرة على الذاكرين . علت صيحات الوجد ، وصرخات التعبير عن الأحوال ..

تناغم صوت الشيخ بالصيحة الممدودة :

ـــ الله !..

سكنت الحركة ، وتمطى الهدوء ، واستقر الذاكرون ـــ لدقائق ـــ استعداداً لطبقة ثانية من الهتاف ، وترديد لفظ الجلالة ..

قال الشيخ :

ـــ أنت تمتثل لرأيى فى الظاهر .. وهذا لايكفى ..

استطرد للعجب فى وجهه :

ـــــ المهم ألاّ تعترض فى الباطن ..

وتأمله بنظرة مشفقة :

ـــــ أنت لن تستطيع أن تدرك دقائق الطريقة إلاّ بصحبة شيخ واحد ..

قال على الراكشى :

ـــــ ولكن سيدى الشاذلى أكد ضرورة أن يأخذ المريد من كل شيخ يقابله ..

أشاح بيده فى استياء :

ـــــ من قال إنه أكد ذلك ؟.. الشيخ الواحد للمريد أعون له على سلوك الطريق ..

وفاجأه بالقول :

ـــــ عرفت أنك تتردد على دروس المغرب فى أبو العباس ..

قال الراكشى :

ـــــ هى محاولة للاستزادة من العلم ..

لم يخف الشيخ غضبه :

ـــــ من آداب المريد ألاّ يحضر مجلساً لغير شيخه ، ولايسمع من سواه ..

وتقلصت أصابعه على المسبحة :

ـــ المريد الذى يذهب إلى غير أستاذه ، كالابن الذى يذهب إلى غير أبيه ..

وعلا صوته :

ـــ حتى زيارتك لأولياء الله ، لاتكون إلاّ بإذن من شيخك..

عاب ـــ للمرة الأولى أمامه ـــ على الشيخ طه مسعود :

ـــ إذا أخذ العالم شيئاً من الدنيا ، نقصت درجته عند الله ، وإن كان كريماً على الله . وشيخنا شغل بحظه وحظ غيره من الدنيا ، فهو لايشبع !..

وعاب على الإمام اشتغاله بجمع الدنيا ، وتزيين الملابس ، وتكبير العمة ، وتحسين المأكل والمسكن والمركب ..

وخالط صوته عصبية :

ـــ هذا رجل تعبده فى الظاهر فقط ..

كان قد تعلم آداب المريد مع شيخه : لايأكل معه ، ولاينام معه ، ولايضحك بين يديه ، ولايرفع صوته عليه ، ولاينام فى فراشه ، أو قريباً منه ، ولايجلس فى موضع جلوسه ، ولايتكلم فى مجلسه ، ولو كلمة واحدة ، حتى

يستدعيه للكلام ، ويلزم الوقار والأدب فى مكانه . عرف أن عليه ألاّ يزور ولياً ولاصالحاً من الحى ، ولامن الإسكندرية كلها ، إلاّ بإذنه ، ولايشارك فى ذكر لايكون هو شيخه ، ولايستمع إلى درس لايكون هو صاحبه ، ولاإلى كلمات ــــ مهما بدت مهمة ــــ إلاّ إذا صدرت من الشيخ ، ومن فيض علمه ..

أنساه ماقرأه ، وتعلمه ، معاملة الشيخ لمريديه . يخاطبهم كأصدقاء ، يستمع منهم ، ويناقش مشكلاتهم الشخصية . وأذن بأن يتصلوا ببعض فى غير حضوره ، يتزاورون ، ويتبادلون الكتب ، ويتناقشون فيما قرأوا . وربما رافق أحدهم أخاه فى تمشية على الكورنيش ..

منذ أعلن توبته ، اقتلع كل جذور التعلق بما سوى الله . لم يشرئب للدنيا ، ولاجنح نحوها ، وصرف خاطره عن الاشتغال بالخلق . ملك نفسه من الفضول والغيبة والنميمة والكذب . أعد قلبه لحقائق الطريق التالية . اجتهد فى ترحيل القلب من سلاسل شهواته ، تطهيره من أخطائه وذنوبه وغفلته عن ربه ، وحفظ الحواس ، وصيانتها من الشوائب الظاهرة ، والأمراض الباطنة ، وتطهير الجوارح ، وتصفية

القلب ، ومسك اللسان . فارق مرتادى حمام الأنفوشى ، والجالسين على قهوة الزردونى ، أو قهوة مخيمخ ، حتى لايشوشوا على صحة عزمه . أصم أذنيه عن كل ماحوله ، وانطلق ــــ بأفكاره وتصوراته ــــ فى الآفاق التى لانهاية لها . استعد للموت مستغفراً من ذنوبه ، مجتهداً فى طاعة الله . وكان يأخذ نفسه بالمحاسبة والمراقبة ، فعرف المخاوف والمهالك والحدود ..

أصبح الشيخ فى خاطره ــــ بتقضى الأشهر ــــ قوة تهيمن على توجيهه وهدايته ، كأنه قوة عليا ، لها سيطرة على إرادته . كان ــــ فى لحظات انفعاله ــــ يرطن بلغة ، أو لهجة ، لايفهمها محدثه . هى خليط من الحروف المتداخلة ، لاتعبر عن معنى محدد ، وإن تبدى فى زعيقه ، وتغير لونه ، وتواصل الكلمات ، أنه قد غادر مألوف هدوئه ، واحتضن الغضب ..

فاجأه الشيخ بالقول :

ــــ هل أنت على ثقة من صحة مبايعتك ؟

وأردف فى لهجة محذرة :

ــــ أنت حين بايعتنى شيخاً لك ، بدأت السير فى طريق الوراثة .. وهى الطريق الوحيدة إلى الفردوس ..

وتلون صوت الشيخ بإشفاق :

ــــ لاتضايقك خشونتى .. فما ربى أقطابنا ومشايخنا الكبار إلاّ الخشن ..

قال على الراكشى :

ــــ أية خشونة لن تصل إلى قسوة عبارات الحاج قنديل وتصرفاته !..

وقال للشيخ :

ــــ كنت قد سألت عن حكم الذى يحارب الآخرين فى أرزاقهم ..

قال الشيخ :

ــــ لاتصر على طلب الجواب .. اسأل واسكت !..

ــــ تهمنى الإجابة ..

وشى صوت الشيخ بضيق :

ــــ من حق شيخك أن يجيب وقتما شاء ، أو لايجيب..

تيقظت فى نفسه الأسئلة . راعه قول الشيخ لما شكا له قسوة الحاج قنديل :

ـــ لاتشك لى .. أنت إذا شكوت لأحد ماحل بك ، فكأنك تشكو الله ، ولاترضى بأحكامه ..

استطرد كالمتنبه :

ـــ الحزن ـــ إن كنت لاتعلم ـــ هو من مقامات التطهير ، ومدرج من مدارج الوصول !..

متى يتحقق مايريده من علم الشيخ وأدبه ؟.. يفارق الشيخ ، واسطة الفيض ، وواسطة المدد . يسلك طريقه الخاص . يستغنى بربه عن الشيخ . يبدأ سيره ـــ بمفرده ـــ فى الطريق الصوفى . يعرج إلى المقامات العالية . يتقرب إلى الذات الإلهية بمجاهدات خاصة ، تتعلق همته وقصده بذات الله ، يهيم بجلاله . يهديه الله إلى سبيله الخاص . يفهم دقائق الأسرار . يمتلئ بالأنوار والمواهب . يتقلب فى أحوال الحب ، والوله ، والوجد ، والهيام ، والشرود ، والذهول ، والغيبة عن الوجود . يكثرمن الذكر حتى يحصل له الأنس ، فلا يغفل قلبه ، ويشهد الله دوماً بقلبه ، أو يرى نفسه فى حضرته . التجلى الإلهى فى الأوتاد والنقباء

والأبدال والأقطاب . يتطلع إلى سحائب الرحمة ، ورياح الهداية ، وأرض النفوس الطيبة ، وأدوية القلوب المنورة ، وخلجان الأرواح المطهرة . يصبح من الصابرين ، الصادقين ، القانتين ، المستغفرين بالأسحار ، ومن خواص أهل الحضرة ، اهل المشاهدة والمكاشفة ..

الترقى يأتى بصعود درجات القرب ، إعطاء الظهر لدركات البعد والرسوم الخلفية . تشرق عليه ـــ فى النهاية ـــ فيوض الأسماء الإلهية ، والصفات الحسنى ، ويندرج الأزل فى الأبد ، فلا صباح ولامساء ، ولاماضى ولاحاضر ولامستقبل . يبين ماكان مخفياً ومختلطاً من أهل الزمان ..

متى يُحَزَّم بحزام المشيخة ؟!

المرأة الجميلة ذات الذيل المتهدل

" لاتدع المرأة ذات الذيل المتهدل تخدع حواسك . أطلق شراعك مبتعداً عن سطوتها . إنها خادمة الموت . دع إرادتك تتغلب على عواطفك . وهكذا تتغلب على الهلاك "

كليمنت السكندرى

أذهله التغير الذى حدث فى قلعة قايتباى . دخلها ـــــ من قبل ـــــ وارتقى سلالمها الضيقة ، وأطل من المزاغل والنوافذ الحجرية . تصطخب الأمواج تحتها ، تصطدم بالصخور . بدت مظلمة ، موحشة ، ومتهدمة . أبواب السرداب مفتوحة ، فلا يدرى إلى أين تنتهى ..

أطل على المدافع الصدئة . بجوارها كرات من الحديد ، ملقاة بلا انتظام . تسلق مئات السلمات . وصل إلى آخر سلمة . تنتهى إلى شرفة حجرية ، تطل على البحر . الأمواج ـــــ من تحتها ـــــ ترتطم بالصخور ، أسفل القلعة . النوة

قاسية ، والريح قوية ـــ احتضن صدره بساعديه ، اتقاء برودتها الصاخبة ـــ كنست قاع البحر ، ومخلفات الشاطئ ، فاستحالت الأمواج سوداء كالطين ، والمياه تتدفق من الفتحات والمزاغل ، فتملأ الغرف ..

في طفولته ، كان يرفض إلحاح الأولاد في الدخول إليها . يغريهم بابها الكبير ، المفتوح ، وساحتها ، والسراديب المظلمة . يتردد ، ويرفض . يتذكر قصص الأشباح والعفاريت التي لاتفارق القلعة . تتخذها مساكن وملاعب ، وتؤذي من يجاسر بالدخول . ربما أودعته أذاها ، فيعاني حتى الموت ..

شغلته حكاية الجد السخاوي عن عروس بحر ، ظهرت ـــ واختفت ـــ فجأة . إنشقت المياه عن جسمها البشري ، السمكي ، شعرها المنسدل على الكتفين ، صبغته الشمس بلون ذهبي . ابتسمت ، ولوّحت بيدها . غاصت إلى الأعماق . جرى الخير في ذلك اليوم بما لم يصادفه من قبل . أكد الجد السخاوي أن قلب عروس البحر يخفق للرجال . يستهويها صورة الرجل ، وصوته ، وحديثه .. لكنها تضاجع

الريح ، ولاتلد إلاّ الإناث ، وطعامها ثمار بعينها ، تنبت حيث تعيش ..

قال الجد السخاوى :

ـــ من تظهر له .. لابد أن يكون قد فعل الخير فى حياته ..

استطرد وهو يزيح بقايا زعانف علقت بظهر يده :

ـــ إذا اطمأنت إلى مافعله من عمل طيب ، تأخذه إلى قاع البحر . تدله على مافيه من ذهب وفضة ولؤلؤ ومعادن نفيسة ..

ثم قال فى لهجة تحذير :

ـــ ليس كل عرائس البحر يضمرن نيات حسنة .. حتى التى قد تسحرك بجمال جسدها ، وبغنائها ، ربما تدفعك إلى مصير مؤلم . تخضع لتأثير جمالها ، وعذوبة صوتها ، فتهمل قيادة قاربك ، واتجاهه ، حتى يرتطم بالصخور ..

سأل حمودة هلول :

ـــ هل يوجد رجال فى دنيا عروس البحر ؟..

قال الجد السخاوى :

ـــــ لكل مخلوق زوجان .. ذكر وأنثى .. ماعدا عرائس البحر ..

قال محيى قبطان :

ـــــ قال صيادون وبحارة إنهم شاهدوا ذكر البحر ..

قال الجد السخاوى :

ـــــ عروس البحر وحدها ، هى التى ظهرت ـــــ وتظهر ـــــ للناس . تجتذبك بجمال صوتها ، فلا ترى الصخور حتى ترتطم بها ، فتأخذك إلى الأعماق ..

وهز رأسه مؤكداً :

ـــــ نعم .. بعض العرائس لاأكثر من قاتلات ، عملهن الوحيد إغراق الرجال ، وسحب أجسامهم إلى القاع ..

شغله الأمر ..

أعاد مارواه الجد السخاوى على عم محجوب ، حارس حمام الأنفوشى ..

قال عم محجوب بلهجة مستخفّة :

ـــــ مصيبتكم أنكم تصدقوا السخاوى فى كل مايرويه..

أردف فى ضيق :

ـــــ ماأعرفه من كثيرين أن العرائس ذكر وأنثى ..
وأن الأنثى ربما تأخذ إنسياً إلى قاع البحر ، وتتزوجه ..

ثم فى لهفة :

ـــــ وتعطيه من كنوز البحر ؟..

قال عم محجوب ، وهو يجرى باصبعين نحيلين على ذقنه البيضاء ، الكثة :

ـــــ لابد أولاً أن تتجب منه البنين والبنات .. ثم تأذن له فى العودة ..

فى الأيام التالية ، ظل على مقربة من الشاطئ . إذا خفتت الأصوات ، وحاصرته الوحدة ، جدف بساعده ، فلايبتعد عن الشاطئ . وإذا كان بمفرده ، غادر الماء بلا تردد . ثم ملك عليه الأمر تفكيره . ناوشه فى الصحوة والنوم . يبدو منفذاً للنزول إلى البحر. لايقضى ليلة ، أو ليلتين ، وإنما يغيب فى أعماقه العمر كله ..

قيل إن عروس البحر تقطن الجزيرة البعيدة . تستحم فى الشمس ، تسدل شعرها ، تمشطه . يتألق ثدياها العاريان ، ولعينيها بريق يعمى من يطيل النظر إليهما . نصفها العلوى لامرأة . النصف السفلى ، من الأرداف حتى نهاية

الجسد ، لسمكة لها ذيل . تخرج من الماء إلى منتصف جسمها . تنظر يميناً وشمالاً ، وإلى فوق ، وفى تكسّرات الأمواج . إذا أحست باقتراب إنسان ، غطست فى البحر ، ومن المستحيل صيدها بالحيلة . وإذا حاول أحد أن يقترب بمركبه من الحظيرة ، أثارت الرياح والعواصف والأمواج ، فأبعدتها عن طريق الجزيرة . الجزيرة عالمها الخاص . لايصل إليها الناس . من يضل طريقه بالقرب منها ، تناوشته الأسماك الهائلة فى مياهها . ربما حملته إلى داخلها ، فيأكله ناسها ، لايفرقون ـــ فى طعامهم ـــ بين إنس وحيوان ..

أبرق الرعد ، وصفّرت الريح ، وانهمر المطر كالسيل . عاد برأسه إلى مدخل القلعة . عروس الخير تظهر فى أوقات العاصفة . تحمى نفسها من أطماع البشر بالعواصف الشديدة المصاحبة لها . اختار نوة " العوة " للتردد على القلعة . يطيل الجلوس لساعات ، حتى تجهده البرودة ، أو التعب ..

لمح ضوءاً ، فانتبه ..

قال الجد السخاوى :

ـــ إنها تطفو وتغطس فى ثانية ، أو أقل ..

تحدث عم محجوب عن حودة التيتى . عشقته جنية من البحر ، عروس لها ذيل . لم يهدأ لها بال حتى أغرته على البناء بها ، والغوص معها فى أعماق البحر . أنجبا العديد من الأولاد والبنات ، وإن لم يعد إلى الأنفوشى ـــ ولو للزيارة ـــ من يومها . صار أبناؤه من أبناء البحر ..

وروى عم محجوب عن سباعى سويلم . سحبت شبكته عروس البحر ، فاجتذبته المرأة ذات الذيل . ظل فى أعماق البحر أعواماً طويلة . ثم عاد إلى الأنفوشى فى ليلة شتاء ، أيام كان سلامة حجازى يؤذن للفجر فى أبو العباس ، محملاً بأثقال من الذهب والجواهر . ابتنى قصراً فى أرض خلاء بالقرب من الحجارى ـــ زال فيما بعد ، وأقيمت مكانه مدرسة ابتدائية وزاوية فى وكالة الليمون ـــ تهدمت فيما بعد ، ومازال خرابة ـــ وأمر بتوزيع الصدقات والزكاة على أبناء بحرى من المصريين . لزم قصره ، فلم يغادره ، وإن خصص قاعة فسيحة فى الطابق الأول ، لاستقبال ذوى الحاجات ، حتى أدركه السر الإلهى ، فى العشرة الأواخر من رمضان . سار فى جنازته خلق كثير . صلوا على

جثمانه فى أبو العباس ، وضاق الميدان الواسع ــــ أمام الجامع ــــ بمن قدموا لوداعه ..

أعاد الحكاية :

ــــ هل صحيح مايقال إن عروس البحر غابت بأحد الصيادين ، وتزوجته فى أعماق البحر ..

قال قاسم الغرياني :

ــــ سمعنا الكثير .. حتى المرحوم جمعة العدوى قيل إنه تزوج عروس بحر .. واستقرا فى الأعماق ..

وسرح فى تذكر :

ــــ حسان عبد الدايم شاهدها تنفض الماء من حولها ، وتبدت مجلوّة ساحرة على جانب البلانس .. افتتن بها جمعة العدوى ، وقذف بنفسه وراءها ..

وسأل ، يطمئن على ماصدقه بالفعل :

ــــ معقول أن عروس البحر تنجب أطفالاً ؟..

قال الجد السخاوى :

ــــ ألم تولد نفسها .. ألم تكن طفلة ؟..

هل تخرج له من البحر حورية ، عروس ؟.. تأخذه ، تهبط به إلى الأعماق . يتزوجان ، ينجبان البنين والبنات .

يعود ـــ بعد أعوام ـــ إلى الشاطئ ، محملاً بخيرات الأعماق من نفائس وجواهر ، ومالايخطر ببال ..

لاخشية من الغوص فى الماء . العروس تضع كحلاً سحرياً فى عينيه ، فيستطيع ـــ بحول الله ـــ أن يعيش كالأسماك فى أعماق البحر ..

استهوته حكايات البلاد المسحورة من الحجر والنحاس ومدن المغناطيس ، والأبواب المرصعة بالذهب والفضة ، والقاعات المفروشة ، والجدران المنقوشة ، والأسقف المعقودة ، وقوائم البيوت من الياقوت الأحمر واللؤلؤ والزبرجد الأحمر . جدرانها طوبة من ذهب ، وطوبة من فضة . والأنهار تجرى فى قنوات مرصعة بالدرر والجواهر الثمينة ، تحيط بها غابات من المسك والعنبر والكافور ، وكل الأشياء ـــ ماعدا الطعام ـــ من الذهب والياقوت والزمرد والكهرمان . لاتزاحم على العيش والكسب ، ولاتفاوت بين كبير وصغير ، ولاحاكم ومحكوم . كل رجالها طوال القدود ، مسدلة شعورهم إلى مابعد الكتفين ، نساؤها فائقات الحسن والجمال . صلاتهم ليست كالصلاة التى نعرفها ، فلا تكبير

ولاركوع ولاسجود . إنما هى ألحان وغناء تصفيق بالأكف ، وأصوات متناغمة كأنها السحر ..

كان يحرص على التوضؤ ، وأداء ركعتين ، قبل أن يقف فى موضعه . فالماء طاهر ، لايقبل إلاّ النفوس الطاهرة..

ترامت إليه أصوات غريبة . كأنها النداء البعيد ، أو الاستغاثة . واختلطت فى أنفه روائح اليود والأعشاب والياسمين والقرنفل والقرفة والزنجبيل ..

ميز فى النداء اسمه ..

غالب ارتجافة للنداء المفاجئ . ثم أنصت من جديد ..

علا الصوت ، النداء ، بوضوح أكثر . عرف أنه صوتها ، وإن لم يكن قد رآها ، ولااستمع إليها من قبل ..

تلفت حوله ، يبحث عن مصدر النداء ..

سكنت الأصوات ، فيما عدا ارتطام الأمواج بجدران القلعة ، وصوصوة فأر يتقافز بين أحجار الشاطئ ..

غلبه اليأس من عودة الصوت النداء ، فعاد إلى البيت ، وصورتها التى رسمها خياله تملأ نفسه ..

* * *

صحت السيالة ـــ ذات صباح ـــ على اختفاء المليجى عطية ..

من أعلن الخبر ؟.. وكيف تبينه ؟.. ومتى حدث ماحدث ؟..

قيل إن عروس البحر أغرقته . أغرته أن يتبعها إلى حيث تعيش تحت الماء . عالم كأنه الجنة ، لن يندم على أنه فارق الأرض من أجله . الحياة سهلة ، والجميع يأكلون من خيرات الأعماق ، دون أن يشقيهم العمل ، وأذية مشايخ الصيادين وعساكر السواحل ، والظروف الصعبة ، والجواهر الغالية بلا قيمة ، لأنها الطريق التى يمشون فيها ، والبيوت التى يسكنونها ، والملل لايعرفونه ، ومجرد الضيق بالآخرين ، أو مضايقتهم ، عقابه الطرد إلى أحد الشواطئ البعيدة . يلاحقه تذكر مافعل ، حتى يدركه الكبر ، أو الموت .

البحـــــــــر

شاط بحذائه الكاوتش زلطة صغيرة . تدحرجت على رصيف الكورنيش ، حتى استقرت فى كومة زبالة . ألقى السلام على العاملين فى ورش المراكب ، واخترق شارع الحجارى ، إلى شارع حافظ باشا ..

واجهه ميدان أبو العباس ، باتساعه وزحامه والباعة السريحة والمستندين إلى الجدران ، والداخلين ، والخارجين ، من الأبواب التى فتحت على آخرها ..

فكر أن يصعد إلى الميضة . يغسل وجهه ، ويتمدد فى الناحية البحرية . آخر مرة ، أيقظه عبد النبى شعرة ، وشتمه . أولى ظهره للجامع ، ومضى ..

لم يكن فى طريقه إلى مكان بالذات ، ولاحتى إلى قهوة الزردونى . لم يعد يتردد عليها منذ اشترط المعلم أحمد الزردونى أن يدفع الحساب القديم ، قبل أن يطلب " مشاريب " جديدة ..

حتى قهوة البحارة بالمنشية ، لم يعد يتردد عليها . الرواد عمال بحر ، أو بحارة ، تركوا العمل فى سفنهم ، أو فصلوا منها لأى سبب . ليسوا جميعاً من الاسكندرية ، ولاحتى من أولاد العرب . الرطانة بلغات ولهجات مختلفة . يأتون لأيام ، ويغيبون لأشهر ، والدفع حالاً . من يعجز ، يدفع له زملاؤه . تتغير السحن بتغير السفن الراحلة والوافدة . ربما طال التردد على القهوة حتى تصل السفينة المطلوبة ..

هز رأسه لكل العروض التى قدمت إليه ، بعيداً عن البحر . حتى العروض التى قبلها ، مالبث أن اعتذر عنها ..

قال لقاسم الغريانى :

ــــ أنا مثل النورس .. أبتعد عن البحر قليلاً .. لكننى لاأبتعد عنه إطلاقاً ..

وعلا صوته بحماسة مفاجئة :

ــــ البحر هو أنا !..

تذكر أنه أصبح مثل النورس ، بالفعل . يكتفى بالتحليق فوق الشاطئ . لايبتعد إلى أكثر من مدى البصر . وهو قد اكتفى بالوقوف على الشاطئ ، وإن ركب فلوكة ، فهو

لايجدف بها إلى أبعد من الجزيرة ، فى نهاية الأفق القريب ..

كان يحب التمشى فى الميناء . تمضى قدماه إلى غير هدف . يتنقل بين الحاويات وبلوطات البضائع . يتأمل البواخر الضخمة فى المرساة ، اللون الأخضر الطافى فوق الماء ، أصوات المحركات والروافع وصفير البواخر وصيحات النوارس وهتافات الشياليين ، ينقلون أجولة القمح إلى سيارات النقل ..

حاول أبوه أن يعيده إلى المدرسة ، لكنه كان قد نزل البحر . ركب البلانس واللنش والفلوكة والدنجل ، وغطس ، واصطاد بالسنارة والجرافة والطراحة ، فهرب من المدرسة إلى البحر . راق له العمل فى بلانسات الحاج قنديل ، رحلتين أو ثلاثاً ، ثم غلبه طبعه ، فرد إلى الحاج قنديل شتيمته . ضربه صبيان الحاج ــــ من بينهم أصدقاء له ــــ وطردوه من الحلقة . لم يجد بعدها من يقبله على مركبه . راعوا خاطر الحاج قنديل ..

أعطاه على الراكشى حصيلة صيد السنارة . وضعها فى مشنة ، ووقف مع " الفريشة " ــــ أمام باب الحلقة ــــ

نادى على مالديه بأنه ليس عفشة ولازريعة . قلب صبيان الحاج قنديل فرشته ، وطردوه بعيداً ..

اشتغل ـــ لفترة ـــ رفاصاً . يبحث عن الأشياء التى تسقط من الناس فى مياه البحر . لسعه قنديل البحر . أخذ أياماً حتى شفى . ثم لم يعد إلى وظيفة الرفاص ..

تنقل بين المهن المتصلة بصيد الأسفنج ، حتى تعلمها جيداً . دوس الأسفنج بالأقدام ، أو عصره ، لقتل الحيوان ، وطرد المادة الحية والسوائل اللزجة . تجميعه فى كومات ، وتغطيته بأكياس مبللة . انتظاره حتى يتحلل بأشعة الشمس . غسله بمياه البحر . حمله ـــ مغسولاً ـــ إلى البلانس الأم . يواصل ـــ فوقه ـــ عملية التنظيف ، فيخلو الأسفنج من الحصى والرمال والأصداف والأعشاب . قص الجذور والتفريعات والزوائد . صبغ الأسفنج باللون البنى ..

حين تحدث الناس فى الأنفوشى عن قيام بعثة آثار أجنبية باستخراج أجزاء من تماثيل ، وقطع من سفن رومانية قديمة ، قبالة قلعة قايتباى ، قرر أن يتعلم الغوص ، ليبحث عن آثار جديدة فى المنطقة . وعاش بأمل العثور على حطام سفينة غارقة . اشترى القناع والزعانف وأنبوبة التنفس .

أهمل القسوة فى المعاملة كى يتعلم . تركوه بلا تعليم ، حتى يخطئ ، فلا يعود إلى الغوص ، ويخلو لليونانيين جو الصيد . ظلت الأدوات فى موضعها ، فنسى الأمر كله ..

دخل قهوة مخيمخ ـــــ ذات أصيل ـــــ خواجة ، فى نحو الخمسين . اكتفى بالنظر إلى الرجال الجالسين ، وهمس بما لم يتبينه أحد ، فى أذن صاحبه . ابن عرب ، يرتدى بدلة كاملة ، وإن بدت عليه رقة الحال ..

سأل الخواجة كل واحد عن تخصصه ..

اختار ستة ، وربما سبعة ..

قال مختار زعبلّة :

ـــــ أى حاجة ..

قال المرافق ، دون أن يعطى أذنه للخواجة :

ـــــ فهلوة المصريين .. أى حاجة ..

أضاف وهو يتجه إلى داخل القهوة :

ـــــ نحن نطلب مهناً محددة ..

تم الأمر فى بساطة لم يتوقعها . قدم نفسه للخواجة ، وعرض خدماته . تأمله طويلاً ، وهز رأسه بالموافقة ..

بدأ مساحاً ، يمسح أرضية الباخرة . ينظف الغرف والقمرات ودورات المياه . لم يصدق البحارة أنه ـــــ فى رحلته الأولى ـــــ لم يفرغ مابجوفه . لم يؤثر فيه دوار البحر ، ولاظهر عليه أنه شغل به . ثم لزم الاسكندرية عندما مرت الباخرة عليها . جرب العمل فى أكثر من مهنة ، فلم يوفق . عاد إلى البحر . عمل فى قسم الغلايات بباخرة يونانية أيضاً . كأنما اليونانيون قدره . تنقل بين المهن المختلفة : التبريد ، النجارة ، التزييت ، التشحيم ، الميكانيكا ، الكهرباء ، الترشيم ، الخدمة فى المطبخ ، تقديم الطعام . وحين تلعب الأنواء بالباخرة ، ويبين الخوف فى الملامح . يتذكر مارواه الجد السخاوى عن الباخرة التى هبطت إلى أعماق البحر ، أو قذفت بها الأمواج إلى جزر بعيدة ، حيث الكنوز بلا حصر ، من الذهب والفضة والأحجار الكريمة . يتمنى أن تعيد الأنواء حكايات الجد السخاوى . لايصارح الرجال بما فى نفسه ، وهم يعانون النجاة من حصار العاصفة ..

سقط ـــــ يوماً ـــــ فى منطقة البريدج ، المنطقة الأمامية قرب قمرة القبطان . لزم الفراش ـــــ فى الباخرة ،

وفى البيت ـــــ ثلاثة أشهر ، حتى استعاد عافيته ، وإن لم يغب الألم ـــــ فيما بعد ـــــ عن أسفل ظهره ..

تردد على المستشفى الأميرى ، وعلى عيادات الأطباء ، وجرب وصفات شعبية ، أشار بها الجد السخاوى والحاج محمد الحلاق ، لكن الألم ظل يناوشه ، فهو لايقوى على الوقوف ، أو الجلوس ، ويظل غالب وقته ماشياً ..

وضع أمام دكان عزت باسين ، تاجر المنيفاتورة بشارع الميدان ، فاترينة صغيرة ، متساوية الأضلاع . خلف فاترينة الزجاج صفوف من البسكويت والشيكولاتة وعلب السجاير . مهنته الحقيقية كانت تغيير العملات الأجنبية للبحارة ، القادمين على البواخر الأجنبية . سحن مختلفة ، وعملات . يجيد تبين الفارق بين كل عملة أخرى . يندلق البحارة والسياح من باب رقم ٦ إلى قلب المدينة ، يعرضون استبدال عملات ، يعرف بعضها ، فيسهل استبدالها ، أو يراجع أسعار العملات فى جريدة البصير . مع أنه لايعرف القراءة والكتابة ، فإنه يجيد التحدث بالإنجليزية والفرنسية والإيطالية واليونانية . تعلمها من اختلاطه بالجاليات الأجنبية فى البحر ، وداخل المدينة ، وبالبحارة الذين تقذف بهم

البواخر الأجنبية فى الميناء ، وإن كان لايعرف من بلاد العالم سوى انجلترا التى تحتلنا قواتها ، واليمن التى يأتى منها البن ..

شارك فىالسرقة من لوريات الجيش الإنجليزى ، فى سيرها بشوارع بحرى ، ومن البضائع المرصوصة فى الميناء . يقذف بالمخطاف داخل البلوط . يجذبه بسرعة ، بشدّة ، يتمزّق ، وتتناثر البضائع . تتخطفها أيدى الرجال قبل أن يفطن الحراس . يكرر العمل نفسه فى بلوط آخر . فى مغيب النهار ، يتقاسم الرجال حصيلة ماجمعوه ..

قبض عليه ـــ ذات ظهر ـــ عساكر الميناء . اقتادوه إلى قسم الجمرك . قضى ليلتين ، حتى توسط له حمادة بك ، فغادر القسم ، وإن لم يعد مأذوناً له بدخول الدائرة الجمركية ..

عايره قاسم الغريانى بأنه يستمع من ثروت زلابية ، ومن بحارة البواخر التجارية إلى حكايات البحر . يجلس فى القهوة ، يسند ظهره بيده ، ويرويها ، ينسبها لنفسه . أهمل المعايرة ، وتواصلت أحاديثه فى البحر والمراكب والبلانسات والعاصفة والنوة والأسماك والمدن البعيدة . صداقة البحر

ليست ككل الصداقات . من يعمل فى البحر ، يتسرب حبه إلى دمه . لايقوى على الابتعاد عنه . يظل فى خاطره حتى يعود إليه ..

قال :

ــــ إذا خرجت السمكة من الماء .. ماذا يحدث لها ؟..

قال حمودة هلول :

ــــ تموت ..

قال مختار زعبلّة :

ــــ هكذا أنا .. ابتعادى عن البحر معناه الموت !..

قال محيى قبطان :

ــــ لكنك لم تمت ..

قال مختار زعبلة :

ــــ هذا مايبدو لك ..

قال قاسم الغريانى :

ــــ وأنا أسأل : ماسر تلك الرائحة المقبضة ؟!..

فوت مختار المعنى :

ـــــ أنت فى البحر سيد نفسك .. حر نفسك .. لاتتعى هم الحاج قنديل ، ولامشايخ الصيادين ، ولاالحكومة نفسها ..

كان ينزل البحر فى الشتاء . لاأحد يجازف بنفسه فى تلك الأيام . يقل عرض السمك ، فتزيد أسعاره . يخوض المخاطر ، ويعود بالسمك الغالى . سماه الجد السخاوى كلب البحر ، فلم تكن تشغله الأنواء ، حتى التى تقف بالسفن خارج البوغاز ..

التقى بمحمود عباس الخوالقة أمام مطحن شيمى بك ..

دعاه إلى حفلة العاشرة صباحاً فى سينما الأنفوشى . تابع المشاهد بلا اهتمام ، فلم يأخذ باله من انتهاء الفيلم ، حتى نبهه محمود ..

سارا إلى نهاية الحجارى ، ثم فارقه بلا هدف ..

الشوارع الضيقة ، المليئة بالأوساخ . البيوت المتلاصقة ، ذات الأبواب التى تفوح منها رائحة البول . السلالم المتآكلة ، المظلمة . الشرفات المتقابلة تكاد تتماس . يسقط عليها ظل البيوت أغلب النهار ، ماعدا ساعة الظهيرة ، عندما تتوسط الشمس النهار ..

انحنى على قطعة خبز بجوار الرصيف . قربها من شفتيه . قبلها ، وأعادها لصق الرصيف تماماً ، فلا تدوسها قدم ..

اقتحمت أنفه رائحة بن محترق . تلفت ـــ بتلقائية ـــ بحثاً عن المطحنة القريبة ..

غاب عن باله العشرات القادمون من الناحية الخلفية للمرسى أبو العباس ، الموازينى والحجارى وابو وردة وشارع الميدان . غالبيتهم يرتدون البنطلونات والقمصان ، والأحذية أيضاً ، وإن تناثر بينهم من يرتدون الجلابيب وحفاة الأقدام . الشاب الذى حملوه على أكتافهم يهتف ، ويرددون وراءه ، ينفى أن يكونوا من الطرق الصوفية ، لابيارق ولاأعلام ولاألعاب حواة ولاأناشيد . يبدو تمازج الأصوات ـــ فى لحظة واحدة ـــ كأنه الرعد ..

اقتربوا ..

صرخ الشاب بهتافه ، وردده المحتشدون حوله ..

عرف مختار انها مظاهرة . ليست غريبة عنه ، ولامفاجئة . يلتقى بها فى شوارع الإسكندرية . عشرات أو مئات . يهتفون ضد الإنجليز والأمريكان والملك والسراى

والزعماء السياسيين . يتابعها ـــ بعين متشوفة ـــ حتى تبتعد . ربما ثارت حولها المناقشات فى قهوة مخيمخ ، أو قهوة الزردونى ..

لم يدر كيف أصبح واحداً من المتظاهرين ، ولامتى بدأ يردد الهتافات وراء الشاب ، لكنه ـــ فى لحظة ما ـــ أحس أنه أصبح واحداً من المتظاهرين . كأنه بدأ معهم ، وينتهى إلى حيث ينتهون . لاصلة له بما قبل ولابعد . جزء من قطعة نسيج يصعب تمزيقها ..

لم يلحظ البداية : من بدأ التحطيم ؟.. لكنه أصبح ـــ وسط المتظاهرين ـــ مثل الموجة التالية ، تسبقها موجات ، تليها موجات أخرى ..

انهال الطوب ـــ فجأة ـــ على دكان الشبكشى بشارع الحجارى . حدق تحت قدميه ، والتقط طوبة . انتزع شجرة صغيرة من الأرض وإطارها الحديدى . كسر الفاترينة بضربة واحدة ..

لفه غضب ، فنسى حتى المتظاهرين حوله . لم بعد يشغله الهتافات ، ولاالصخب المتلاغط ، وعصاه تحطم كل ماأمامها . تشتعل فى داخله نيران ، تملى عليه تصرفاته

،فهو لايدرى أين ، ولالماذا ، تتجه عصاه . لم يلحظ حتى الخدوش التى أحدثها فى وجهه وعنقه ويديه ، شظايا الزجاج ..

ــــ بوليس !..

أيقظته الصرخة ..

تهاوت العصا ــــ بتلقائية ــــ من يده ..

بدا اللورى ــــ أول شارع اسماعيل صبرى ــــ محملاً بالعساكر . نزلوا إلى الطريق . أوقفوا الترام ، وشكلوا حائطاً من صفين بين قهوة فاروق وحلوانى " زهرة القرنفل " فى الناحية الأخرى من الشارع . أعطوا ظهورهم للبحر ، وواجهوا المتظاهرين ..

ترددت المظاهرة فى سيرها ، واهتزت الأكتاف بالشاب الذى يهتف ، وخفتت الهتافات ، وتداخلت ، فلم تعبر عن معنى محدد ..

اقترب العساكر . خلفوا شارع التتويج وراءهم ، وتقدموا فى شارع اسماعيل صبرى . تفرقت المظاهرة تماماً ، وأنزل المتظاهرون الشاب . تحولت إلى مايشبه الهمهمات الفردية ، وإن داخلها غضب واضح ..

اندفع العساكر بالعصى ، فتوزع المتظاهرون . اندفعوا إلى البيوت والدكاكين القريبة ، وإلى شوارع فرنسا ورأس التين والبوصيرى وسراى محسن باشا ، والحوارى المتفرعة ..

داخله خوف ، فجرى ..

لم يتنبه إلى قدميه : أين تقودانه ؟..

جرى ، وجرى ، وجرى ، حتى اطمأن إلى غياب المتظاهرين والعساكر . بدت الحياة فى نهاية شارع أبو وردة ، على غير الصورة التى كان فيها ..

هدأت نفسه ، فلم يعد يتلفت وراءه ..

عبر قضبان الترام إلى الكورنيش . نزل إلى شاطئ الأنفوشى . سار فى الرمال ـــ بصعوبة ـــ إلى قارب صغير ، غاب معظمه فى الرمال ، وغطت الطحالب والأعشاب جوانبه ..

صعد فوق القارب ، واستقر فى مجلسه . أسند صدغه إلى قبضة يده . تطلع إلى نورسة حلقت عالياً ، ثم هبطت . حامت فى دائرة فوق المياه ، كأنها ترقب صيداً . ثم انقضت

فى سرعة خاطفة على سمكة تلتقط أكلاً من سطح الماء ،
وطارت بعيداً ..

أطال النظر فى نهاية الأفق ..

ارتحـــال

مع أنه كان يعرف بحرى : ميادينه وشوارعه وحاراته وأزقته وبيوته وقهاويه ، وسراى رأس التين وقلعة قايتباى والحلقة والجمرك والميناء والبحر والمساجد والموالد وحلقات الذكر ، فإنه كان قليل التردد على أحياء الاسكندرية الأخرى ..

بدا له سوق الجمعة فى غير الصورة التى رآها فى زيارته الأولى ، منذ سنوات بعيدة . الأثاث القديم ، والملابس المستعملة ، والنداءات ، والمساومات ، والصفقات الهامسة..

تاه فى الزحام الصاخب ..

سأل شيخاً يعرض إبريقاً من الفضة . أفسح لنفسه مكاناً على الرصيف ، بالقرب من المرأة . كانت تعيد ترتيب العدّة على قفص من الجريد . فى حوالى الستين ، بشرة داكنة السمرة ، لها عينان بنيتان تطل منهما طيبة واضحة ، وشفتان ممتلئتان ، يعلوهما شارب خفيف ، وأنف أفطس ، مخزوم بقرط ذهبى مستدير . وصدغان متهدلان ، ترتدى

جلباباً حائل اللون ، تآكل طرفا كميه ، ولفت رأسها بمنديل بأويه ، حوافه من الترتر اللامع ..

أبدى إعجابه للرسومات الموشومة على صدر البحار الأجنبى ، فى جلسته على قهوة مخيمخ ..

قال قاسم الغريانى لنظرته المحدقة :

ـــ أردت أن أرسم سمكتين وثعباناً ، فحذرنى الجد السخاوى .. قال إن الوشم حرام ..

قال مختار زعبلة :

ـــ ولماذا السمكتين والثعبان ؟..

قال الغريانى :

ـــ السمكة دليل الرخاء والخير والذرية الصالحة . أما رسم الثعبان ، فليجنبك الله شروره !..

علا صوت مختار بالدهشة :

ـــ كيف تنجب الذرية الصالحة دون أن تتزوج ؟!..

عرض الأمر على أمين عزب ..

نطقت ملامح الرجل بانزعاج :

ـــ أذكرك بحديث الرسول : لعن الله الواشمات والمستوشحات والمتفلجات الحسن ، المغيّرات خلق الله ..

قال مختار زعبلة :

ـــــ أنا رجل يامولانا ، ولست امرأة !..

عرف ـــــ للمرة الأولى ـــــ موضع الوشامين فى سوق الجمعة . دله قاسم الغريانى ، فلا يسلم جسمه لعابرات الطريق . الثابت فى مكانه تستطيع أن تعود إليه ، وتحاسبه . أما العابر ، فهو قد يؤذيك ، ويختفى ..

قالت المرأة :

ـــــ هل تريد عصفورة ؟..

بدا من لهجتها أنها صعيدية ، أو من النوبة . حدجها بنظرة متأملة :

ـــــ ماذا تظنيننى ؟

وهى تمسح جبهتها بجانب يدها ، ثم تنتر العرق ، حقيقة أو وهماً :

ـــــ تريد نخلة إذن ؟..

كرر الكلمة :

ـــــ نخلة ؟..

قالت المرأة :

ـــــ إنها تدل على الخصوبة والوفرة ..

لاحظ أنها ضغطت على الحروف الأخيرة فى الكلمات ، كأنها تؤكد المعنى ..

أغمض عينيه ، وهز رأسه :

ــــ قد تصح لفلاح .. وأنا من بحرى ..

ثم وهو يسلمها ساعده :

ــــ إرسمى سمكة ..

علا حاجبا المرأة بالدهشة :

ــــ دع وشم السمكة للنساء ..

ــــ السمكة فأل حسن ..

قالت فى دهشتها :

ــــ لكنها ترمز لكثرة النسل .. وهو ماتطلبه النساء ..

ــــ أنا أحب الحياة فى البحر .. مثل السمك ..

ابتسم لما تذكر مارواه محيى قبطان . طلبت زوجة حمودة هلول الطلاق ليلة زفافها . فاجأها بوشم لاسم فتاة ــــ لاتعرفها ــــ على صدره . أصرت ، فلم تسلمه ساقيها إلاً بعد أن أزال الإسم من صدره ، ولحق الموضع تشوه ..

تناولت المرأة من الصندوق الخشبى ، فوق القفص ، ثلاث إبر صغيرة ، يشدها إلى بعضها خيط رفيع .. غمست

الإبر الثلاث فى إناء من الكحل الأسود . اختلط به بخار سمن ذائب ، وبخار فتيلة محترقة ..

مسحت بظاهر كفها على ساعده . ثم ضربت الساعد ــــ بسرعة ــــ بالإبر الثلاث ..

ــــ لاتتحرك .. حتى لايفسد الوشم ..

انتزع الكلمات :

ــــ ألم فظيع !..

شوحت بيدها :

ــــ مهارتى يشهد بها الجميع !..

لحقه صوت المرأة وهو ينصرف :

ــــ لا تطمس الجزء الموشوم حتى لايتورم !..

***

قال له الجد السخاوى فى قهوة الزردونى ، وهو يتأمل ساعده الموشوم :

ــــ ماذا فعلت ياحمار ؟..

فى تأمله للوشم :

ــــ حبى للبحر رسمته على ساعدى ..

قال السخاوى :

ـــــ أنت بهذا تغير ماصنعه الله ..

ـــــ هذا مجرد وشم سمكة ..

علا صوت السخاوى بنبرة متوعدة :

ـــــ كل وخزة من هذه الوخزات ، ستكون يوم القيامة مسماراً مثبتاً فى مكان الوشم نفسه !..

الظـــل

مال به الحانطور إلى حلقة السمك . تنبه ــــ قبلها ــــ لاقترابه من المكان المنشود ، بعشرات المراكب الصغيرة فى الميناء الشرقية ، والغزل الملقى على امتداد الشاطئ ، وكومات الفلين ، والأسماك الميتة ، المتناثرة ، والطريق المفضى إلى قلعة قايتباى ومعهد الأحياء المائية ، ونقطة الأنفوشى ..

أهمل الأفكار التى ظلت تناوشه ، منذ واجهته سكينة بالكلمات القاسية . شغله السؤال : ماذا لو لم يعرفنى الرجل؟.

فى اقترابه من حلقة السمك ، هدأ الحانطور من سرعته . ثم توقف تماماً ، قبالة الباب المغلق ..

ثنى إليه الحوذى ملامح متسائلة :

ــــ الشارع متفرع من السيالة ..

ــــ نعم ..

لوح بالكرباج ناحية اليسار :

ـــــ هذا الشارع يؤدى إلى السيالة ..

لم يكد يهبط أرض الطريق ، حتى تماوجت ـــــ فى داخله ـــــ مشاعر مبهمة ، تختلف عن التى أملت عليه قراره ..

غادر البيت فى بولاق الدكرور إلى المصلحة فى الدواوين . لكنه ترك الأوتوبيس فى محطته النهائية بباب الحديد ، واتجه ـــــ منقاداً للفكرة التى التصقت بلحمه ـــــ إلى شباك التذاكر . ألقى بنفسه فى السيل المتدافع داخل القطار . حاول قراءة جريدة . بادل المحيطين به أحاديثهم . تطلع إلى الحقول والسيارات العابرة والمارة . تشاغل ـــــ بعفوية ـــــ بإحصاء أعمدة التليفونات . أغفى قليلاً .. لكن الفكرة عششت فى رأسه . قلب الأمر تماماً ، وتوصل إلى القرار : يذهب إلى الرجل الغائب ، يسأله فى الدعوى الظالمة ـــــ لابد أن تكون كذلك ـــــ يصحب الرجل فى العودة . يعلن أمام سكينة ـــــ والجميع ـــــ سخف الادعاء ، ويواجههم بالحقيقة ..

لما جاوز القطار سيدى جابر ، استدعى إلى الذاكرة صورة الشارع الضيق ، المتعرج . على ناصيته قهوة

صغيرة ، وعلى الناصية المقابلة دكان علافة ، والبيت ذى الطابقين ، والنداءات ، والأحاديث المتلاغطة ، تتصاعد من القهوة ، ومن شارع السيالة ..

حاول أن يضيف إلى الصورة بعض الملامح . ربما تساعده فى الوصول إلى البيت . حاول أن يتذكر الجيران الذين لابد أن يلتقى بهم ، ويعرفهم بنفسه ، ويسألهم عن أبيه .. لكن الأعوام العشرين أحدثت تأثيرها المؤكد ، فلم يرتسم فى الذهن إلاّصورة الرجل وحده ، بقامته الضئيلة ، وخطواته المتطوحة ..

عاوده السؤال فى إلحاح : هل يعرفنى الرجل ؟..

ظل الأمر غائباً عن باله . اعتاد غيابه منذ رفض هجر مهنته ، أو مغادرة الأنفوشى . يذكر زياراته المتباعدة فى طفولته . بكاء أمه الصامت عقب انصرافه . الوجوم الذى يلف أخوته ، نظراتهم ، يطيلون بها التحديق إليه ـــ فسرها ، فيما بعد ، بأنها كانت إشفاقاً على اليتم الذى فاجأه فى حياة أبيه ـــ توزعوا فى وظائف شتى ، وإن جمعتهم الشقة الصغيرة فى بولاق الدكرور . تحددت صورة الأب الغائب فى إطار الذكرى ..

سافر حسنين ـــ يوماً ـــ فى مهمة إلى الإسكندرية . عاد ، فلم يشر إلى أنه التقى بالرجل ، أو حاول لقاءه . بات كل واحد أخاً وأباً وأماً للآخرين ..

حين قذفته سكينة باتهامها ، توارى الغضب فى الذهول ، للهدوء الذى سيطر على الجلسة . إكتفى حسنين بنظرة مؤنبة ، بينما تشاغل طه بالتشديد على مصطفى أن يصغّر لقمته ..

لم يجد صعوبة فى الوصول إلى البيت . خطواته عرفت طريقها ، دون سؤال ..

الظهيرة ..

قطع حوارى خلت ـــ أو كادت ـــ من المارة . القهوة تتمطى فى التثاؤب . الشارع الضيق المتعرج ـــ أكثر ضيقاً من صورة ذاكرته ـــ البيت ذو الطابقين ، الشجرة المتطاولة إلى النافذة الشرقية ، وإن عراها الخريف ..

غالب الارتباك للنظرات المتسائلة ، دون أن يتعرف إليه هؤلاء الذين لم تذهب السنوات الخمسة عشرة بهم من ذاكرته ..

فاجأه باب البيت الموصد ـــ هل خلا من ساكنيه ؟

ـــ فعاد بخطوات متثاقلة ..

قبل أن يجاوز الشارع ، لمح ـــ داخل القهوة ـــ وجهاً مألوفاً . أعاد النظر ، ثم أطال التحديق ..

كأنه كان ينتظره ..

كان يحتسى الشاى ـــ بمفرده ـــ فى ركن القهوة . تبددت مخاوف التوقع لما عبر الرجل المفاجأة ، بنظرة تعرفت إليه حالاً ..

قال عبد الرحمن فى بساطة :

ـــ كيف حالك ياسلامة ؟..

وهو يسلم جسده المتعب إلى الكرسى المجاور :

ـــ الحمد لله !..

تأمله الصاوى بنظرة مشفقة :

ـــ ماذا تشرب ؟..

قال سلامة :

ـــ شربت شاياً فى القطار ..

ـــ قهوة إذن ؟..

ـــ لابأس !..

قال عبد الرحمن الصاوى وهو يحيط المكان بساعديه :

ـــــ كما ترى .. تغيرت السيالة ..

قال سلامة :

ـــــ عرفت الطريق من الحلقة إلى هنا بسهولة ..

ـــــ لماذا لاتزور أبناءك ؟..

فاجأه السؤال . هل فطن عباس الخوالقة إلى مايعانيه ؟.. هل يفطنون إلى السر الذى حرص على كتمه ، لم يصارح به حتى أقرب الأصدقاء ؟..

ـــــ المشغوليات كثيرة كما ترى ..

عاود الخوالقة إلحاح السؤال :

ـــــ فلماذا لايزورونك ؟..

هاهو سلامة أتى . هل يصحبه إلى الحلقة وقعدة العصر وجلسة أبو العباس . يرى الناس أن الصلة على حالها بينه وبين أبنائه ؟..

عاود سؤاله :

ـــــ كيف حالك ؟..

ـــــ الحمد لله !..

ـــــ سكينة وأخوتك .. كيف حالهم ؟..

أغمض عينيه فى تأثر :

ــــ لاأخوة لى !..

ثم وهو يضغط على الكلمات :

ــــ اسمى سلامة .. وبقية الإسم لاأعرفه ..

ارتعشت أهداب الرجل :

ــــ اسمك سلامة عبد الرحمن الصاوى ..

وهو يواجهه بنظرة مشتعلة :

ــــ عرفت كل شئ !..

سكنت ملامحه بالدهشة :

ــــ أنت هكذا تحيرنى ..

لاحظ سلامة بركن عينه ، نظرة متطفلة من الواقف وراء النصبة ..

قال عبد الرحمن الصاوى وهو يتهيأ للقيام :

ــــ أفضل أن نتكلم فى البيت ..

البداية لايذكرها . اعتاد الجميع صراخ سكينة ، واحتجاجها الدائم . الحمل ثقيل بغياب الأب ، ورحيل الأم ــــ فيما بعد ــــ فى نوبة قلبية ..

قال لها حسنين ــــ ذات يوم ــــ ممازحاً :

ـــــ صدقينى .. لوكان بيدى إيقاف قطار الزواج ، لأوقفته !..

ربما كان الحديث فى نفقات البيت ، أو المشكلات الدائمة مع الجيران . تصاعد الحوار ، وامتد ، وتشابك . اعتاد كلماتها المستفزة ، فلم يغضب . توقفت أصابعه باللقمة فى الطبق ، لما فاجأته بالكلمات القاسية ..

رمقها بنظرة غير مصدقة :

ـــــ تكرهيننى لهذا الحد ؟!..

وهى تشيح بوجهها :

ـــــ هذه هى الحقيقة ..

أعاد السؤال :

ـــــ تكرهيننى ؟!..

صرخت :

ـــــ بل إنك لست أخى .. لست أخانا ..

أضافت من بين أسنانها :

ـــــ أنت ابن حرام !..

وهو ينفض رأسه فى غضب :

ـــــ تعرفين معنى ماقلت ؟..

أشارت إلى الأخوة المتشاغلين بما فى أيديهم :

ـــ ويعرفه هؤلاء أيضاً ..

حل صمت ، عمقه أصوات احتكاك الملاعق بالأطباق ، وقلقلة الأطباق ، ورنين الأكواب ، والتمطق والمضغ والبلع ..

قلب الطبلية بأصابع مشنجة :

ـــ تقتلنى .. وتواصلون الأكل ؟!..

أسند عبد الرحمن الصاوى ظهره إلى الكنبة الاستامبولى :

ـــ لم أعد أقوى على الحركة ..

فوت الملاحظة :

ـــ لكنك الآن ستأتى معى ..

حدجه بدهشة متسائلة :

ـــ من ؟.. أنا ؟!..

زفر يؤكد غضبه :

ـــ لن تهدأ نفسى قبل أن تؤكد أمام الجميع أبوتك لى ..

ـــ وهل أنكرت ذلك ؟..

علا صوته :

ـــــ أبناؤك ينكرون !..

همس الرجل فى نفاد صبر :

ـــــ سلامة .. لاتعذب نفسك ، ولاتعذبنى ..

تلقفته أمواج تعرف المد وجزره . تكومت ـــــ فجأة ـــــ غلالات ظلام ، فلم يعد يبصر . سرى فى جسمه مايشبه الإغماء . احتواه إرهاق ، فقرر أن يقتعد الأرض حيث يقف . انثالت ـــــ بلا رابط ـــــ مئات الذكريات والصور والرؤى والأسئلة . حتى لو أعلن الرجل ـــــ أمام الجميع ـــــ أبوته .. فهل يغير ذلك من الحقيقة شيئاً ؟!.. كلمات سكينة مزقته ، فلا سبيل ـــــ منذ لحظة الطعام التى لاتنسى ـــــ إلى استعادة ماكان ..

ـــــ إذن ..

ـــــ الموضوع قديم .. ولاأريد التكلم فيه ..

ارتمى على كتفى الرجل بأصابع متقلصة :

ـــــ صارحنى .. وإلاّ ..

اغتصب عبد الرحمن الصاوى ضحكة من أنفه :

ـــــ تقتلنى ؟!

ثم وهو يهز رأسه :

ـــــ تريحنى !..

وفرد يده فى وجهه :

ـــــ أنتظر الموت منذ سنوات ..

تهاوى ذراعا سلامة :

ـــــ لست إبنك إذن ؟..

نفض الصاوى رأسه بشدة :

ـــــ أسأت فهمى ..

أمسك فنجان القهوة ، فلامست يده يد أبيه . أدرك أنهما ـــــ ربما منذ مولده ـــــ يجلسان معاً ، وقريبان للغاية . لاتفصل بينهما سوى االطاولة الرخامية الصغيرة . توقفت يده ، وأطال النظر إلى وجه الرجل : هل هو أبوه ، أو أن سكينة صارحته بما لم يكن يعرفه ؟.. وأين يجد ملامحه فى ملامح الرجل ؟.. تداخلت التجاعيد ، فغابت الصورة القديمة . أكد غيابها سمرة ، واضح أنها من الوقوف فى الشمس ، وليست اللون الحقيقى لبشرته ..

قال بتذلل :

ـــــ صارحنى ..

أغمض عينيه كمن يتهيأ للنوم :

ــــ علاقة مع توفيق مكوجى الرجل .. لم أصل ــــ حتى الآن ــــ إلى حقيقتها ..

انتزع الكلمات :

ــــ ولماذا أنا ؟..

ــــ كان ذلك قبل ولادتك بأشهر ..

وهو يسلم نفسه إلى موجة اليأس :

ــــ لست أبى إذن ..

قال عبد الرحمن الصاوى :

ــــ لم أقل ذلك ..

التمعت عيناه بأمل :

ــــ فهل تأتى معى ؟..

فى نبرة متباطئة :

ــــ لاأقوى على الحركة ..

داخله إشفاق لهيئة الرجل . أهمل ذقنه ، فاستطالت شعيراتها بلا تهذيب ، وثيابه متسخة . وخلا الصديرى من الزرارين العلويين ، فتداخلت عظام الصدر فى الشعر الأشعث ..

ـــــ كيف أواجه الناس ؟..

ـــــ لامخلوق يعلم ..

ـــــ وكيف أتصرف ؟..

ـــــ مثلما تصرفت فى الفائت من حياتك ..

ـــــ الفارق أنى لم أكن أعرف ..

ـــــ هل زدت أو نقصت شيئاً ، بما قالته الملعونة سكينة ؟!..

همس :

ـــــ سأقتل نفسى !

أمسكه من كتفه :

ـــــ تريد أن تموت كافراً ؟..

وهو يضرب راحة يده بقبضة اليد الأخرى :

ـــــ أفضل من مواجهة نظرات الناس ..

لون الصاوى نبرة صوته بتهوين :

ـــــ مايهمك نظرتك إلى نفسك ..

مال بعينيه إلى الفراغ جانبه :

ـــــ أشعر بالضياع والخوف ..

ـــــ وماذنبك ؟..

فى سخرية يائسة :

ـــــ كان مجرد شك ..

ـــــ ليتك تضع كلماتى فى حدود ماتقصده ..

بدا الشيخ كأنه يسلم نفسه لإغفاءة ..

قال سلامة ليحرك الصمت الذى كاد يخنقه :

ـــــ بماذا تنصحنى ؟..

انتزع ابتسامة :

ـــــ لم تكن فى حاجة إلى أبيك خلال السنوات العشرين الماضية .. فماحاجتك إليه الآن ؟..

ثم تساند على نفسه :

ـــــ عد إلى أخوتك قبل أن يقلقهم غيابك ..

تمنى سلامة لو أن أباه وبخه ، أو شتمه ، أو طرده من البيت . يجد سبباً لإفراغ مابنفسه : لماذا يتركه فى وظيفته الصغيرة ، ولايكلفه بعمل فى الحلقة ، أعد نفسه له قبل أن يسافر ـــــ وأخوته ـــــ إلى القاهرة . هو شيخ صيادين ، له بلانساته وصبيانه ، والتعب الذى يبديه يستطيع أن يريحه منه . هل لأنه يحرص على عدم رؤيته ؟.. هل يذكّره بما ينفيه فى بساطة البصقة ؟..

التفت إلى النافذة المطلة على شارع العوامرى ..

كان النهار لايزال فى أوجه . وكانت الشجرة الجرداء قد توهجت فى ذؤابات الأصيل .

حنيـــــــن

تطول وقفتك على شاطئ الأنفوشى . نوة الكرم دفعت الناس إلى البيوت . الشاطئ خال ، والنوافذ ـــ بامتداد البيوت المقابلة ـــ مغلقة ، وضوء النهار تقلص على الجدران . رانت ظلمة رمادية شفيفة . والسحب متراكمة ، محمّلة بالمياه . فأنت تتوقع هطول الأمطار . تتصور الكشك الملاصق للسور فى ورش المراكب ، ملاذاً من الأمطار المتوقعة ، والموج يلاطم المراكب المكوّمة على رمال الشاطئ . تتناثر خيوط المياه والرذاذ إلى منتصف الطريق . لكنك تظل فى وقفتك . عيناك لاتتحولان عن السطح ذى السور المتآكل ، ومناشر الغسيل ، والحجرة التى يبدو أعلاها فى الناحية المطلة على شارع العوامرى . تعطيك الإشارة فى وقت تطمئن إليه . لاتعبأ بالبرد ، وتكتفى بقميص النوم . تسند مشنة الغسيل على سور السطح . تجرى على الحبال بخرقة . معنى تعيه ، ويثير أعماقك . تضع المشابك فى فمها ، ثم تبدأ فى التقاطها ، والتقاط قطع الثياب . تنشرها على الحبال بعرض السور . تتابع حركتها بعينين قلقتين ، تغيبان

عن الشاطئ ، والبرد ، والنظرات العابرة ، المتوجسة . يتركز اهتمامك فى الإشارة التى تتوقعها . تنهى نشر الثياب . تضع المشنة الخالية على رأسها ، وتدفع باب الحجرة المغلق بأعلى كتفها ، وتمضى ناحية باب السلم . تعرف أن هذه هى إشارة تحركك . تعود إلى العاصفة الصاخبة من حولك . تمسح ورش المراكب ، والشاطئ ، وطريق الكورنيش ، ونواصى الشوارع الجانبية ، والنوافذ المغلقة ، والأسطح . تطمئن إلى إحكام النوة قبضتها . لاأحد . والمرأة تميل إلى داخل الحجرة ، بدلاً من النزول إلى داخل البيت . تعبر الطريق وقضبان الترام إلى الناحية المقابلة . تخطو فى الوسعاية . إلى اليمين دكان الحاج محمد صبرة ، أغلق أبوابه اتقاء البرد ، وإن وشى الضوء ـــ خلف الأبواب الزجاجية ـــ بالحركة فى الداخل . تعانى النظرات المتطلعة من أصدقاء الحاج محمد ، إذا طالت جلستهم أمام الدكان فى أيام الصفو ، أو تضطر إلى السير حتى الحجارى ، والمضى عبر الشوارع الضيقة ، الملتوية . تحاذر المشى على أرض موحلة ، لزجة ، والريح تصفّر من الأبواب المواربة ، حتى باب البيت . تدخل ـــ دون تلفت ـــ فلا تفطن إلى

ارتباكك عين متشككة . تغوص فى الظلمة المتكاثفة . ترفع خطواتك وتخفضهما بالعدّ وحده . ثلاث درجات حتى تصل البسطة الأولى . تدور مع السلم ٨٧ سلّمة . آخرها باب السطح الموارب . تنفذ منه بقايا ضوء النهار . تدفع الباب بيد مترفقة . تطمئن إلى غياب الصّرير ، فلا يتنبه أحد من سكان الطوابق التحتية . فى الطابق الأول ـــ كما أخبرتك ـــ أسرة موظف فى التعليم الإلزامى . تقضى أشهر الشتاء بالقرب من مدارس الأولاد فى محرم بك . شقة الطابق الثانى ، تخلو إلاّ من عجوزين تزوج أبناؤهما ، وانتقلوا إلى أحياء أخرى . أسرتها فى الطابق الثالث ، يعلوها السطح مباشرة . تقيم مع زوجها وابنتها ذات الأعوام السبعة ، وأمها التى اكتفت بأعوام عملها الطويلة فى حلقة السمك ، ولزمت البيت . تهمس الخطوات حتى لاتفطن الأم أو الإبنة . الزوج غائب ـــ منذ عشرة أعوام ـــ فى البحار والبلاد البعيدة ..

تتلقاك بسؤال لاتبدله :

ـــ هل رآك أحد ؟..

تجيب فى همس يصل ـــ بالكاد ـــ إليها :

ـــــ لاأحد !..

في الخامسة والعشرين . قميص النوم الأسود ، المزين بالترتر ، ينسدل على جسم ممتلئ ، يتناقض مع خصرها البادى النحافة . وشعرها أسود ناعم ، عقصته في ضفيرتين ، أسدلتهما على جيدها الأبيض ، العارى . وعلى خدّيها غمازتان ، تكسبانها ـــــ إذا ابتسمت ـــــ براءة طفلة . يمتد الصمت ، ولحظات التوقع . هى أدرى بالظروف . ربما تكتفى ـــــ لخطر تخشاه ـــــ بالكلام معك ، حتى ينتهى الوقت ، فتطالبك بالإنصراف ..

تفجأك بالسؤال :

ـــــ ماهذا الوشم ؟..

وتشير إلى الوشم على ساعدك ..

تغالب ارتباكك :

ـــــ أبداً .. سمكة !..

ـــــ لماذا ؟..

ـــــ أردت التعبير عن حبى للبحر ..

تمصمص شفتيها :

ـــــ أنا لاأفهمك !..

تهمس فى تخاذل :

ـــــ وأنا لاأفهم نفسى !..

تضيف ، لتجاوز ارتباكك :

– متى يعود ثروت هذه المرة ؟..

فى صوت تشوبه استهانة واضحة :

ـــــ لاأعرف !.. ربما بعد أسبوعين أو ثلاثة ..

وتتنهد :

ـــــ اعتدت غيابه !..

ـــــ أين هو الآن ؟..

وهى تسوى الملاءة ـــــ بتلقائية ـــــ تحتها :

ـــــ قال إن المركب ستذهب إلى قرب الحبشة ..

تزوى مابين حاجبيك :

ـــــ بعيد !..

فى لهجتها المستهينة :

ـــــ أنا لاأعرف إلاّ أن أهلها سود البشرة !..

تنبهها إلى سبب مجيئك :

ـــــ أنت أجمل من أية بيضاء أو سوداء ..

تطلق من أنفها ضحكة مبتورة . تترك يدها لتسلل أصابعك . تتلمس حمّالات صدرها . تستكين ، فتنزع الحمالات . تدرك أنها أعدت نفسها لعناقك . تساعدك ـــ برفع يديها ـــ فى خلع قميص النوم . تخلى نفسها للفعل الآتى . تتحقق الرجفة ، فتستكين برأسك على صدرها ..

تهمس :

ـــ هل اعتبرتنى سريرك ؟!..

كالمتنبه :

ـــ أنت أجمل من كل شئ فى الدنيا !..

يعود إليها صوتها المستهين :

ـــ من قال لك ؟..

بلهفة :

ـــ جنتك التى أعشقها ..

تشيح برأسها :

ـــ كلام الليل ..

ـــ لو طلع مليون نهار .. فسأظل أعبدك !..

يخالط صوتها حدة :

ـــ وامرأتك .. وأولادك ؟..

تبدو الدوامة قريبة :

ـــــ هؤلاء ظروف .. أما أنت ، فدنياى كلها ..

فى نبرة مشروخة :

ـــــ وأنا دنيا زوجى أيضاً .. لكنه يهجرنى إلى الدنيا الواسعة ..

لاتحدثك ـــــ هذه المرة ـــــ عن رحلات زوجها إلى البلاد البعيدة . تثير فى داخلك مشاعر صعبة ، ومعقدة . تدرك أنك ستبرّئه ، وتغضبها . تريد أن تقول لها : البحر حياتى . وتقول : لاأحس بالغربة إلاّ وأنا على الأرض . وتقول : لو مت ، أتمنى أن أموت فى البحر . تفتش عن كلمات ترضيها ، ثم تكتفى بالصمت . تسرح فيما لم تتبينه . تدفعك بأطراف أصابعها :

ـــــ هل تنوى المبيت هنا ؟..

ـــــ ياريت !..

بلهجة تقطر جفوة :

ـــــ نم فى حضن امرأتك أحسن !..

ثم وهى تدفع الضفيرتين وراء كتفيها :

ـــــ أو اكمل السهرة عند عشيقة أخرى ..

تثنى إليها نظرات متسائلة ، مستغربة ..

يداخل صوتها بحة :

ـــ أكون حمارة لو تصورت أنى المرأة الوحيدة التى تخون بيتك معها ..

تهتف بانفعال :

ـــ والمرسى ..

تضغط على ساعدك بأصابعها :

ـــ لاتدخل الأولياء بيننا ..

تهمس بالقلق :

ـــ ماذا جرى لك ؟..

وهى تغمض عينيها :

ـــ لاشئ .. أنا كما أنا .. لكننى أكره النفاق !..

تهتف باسمها :

ـــ يسرية !..

ـــ لاشئ يامختار ..

وتعاود التنهد :

ـــ ثروت وحشنى !..

تفز دون توقع . تسدل الملاءة حول جسمها . تسبقك إلى باب الحجرة . تتأمل قطع الغسيل المنشورة على الحبال . تبدو كالأشباح المتطايرة فى غياب القمر وراء السحب المتكاثفة . تلحقها ، وتعد السلّمات إلى البسطة الأولى . لاتحاول التلفت . حتى باب شقتها تغلقه فور دخولها . تغالب ارتباكك . لايشغلك إلاّ أن يحتويك الطريق . تمضى فى الضوء الشفيف ، يصنعه مصباح الغاز فى ناحية شارع العوامرى ، والنور المتسلل من النوافذ المغلقة . تميل فى انحناءة شارع فهمى الناضورى إلى شارع السيالة . تمضى إلى قهوة الزردونى . تطالعك الصيحات المهللة ، المتسائلة ، العابثة . تجلس ، وتستمع ، وتتكلم ، وتسأل ، وترد ، وتطلق النكات .. لكن كلمات المرأة فى حجرة السطح تظل تشغلك . لماذا ؟.. يمتد الليل . ترى السؤال معلقاً فى اللمبة الوحيدة خارج القهوة . تظل مضاءة ، حتى آخر الليل .

الغـــــوث

قدم أبو العباس على مريده أبو عبد الله الحكيم بأشموم . فلما جاء الليل ، دعاه أبو العباس . دنا الرجل منه ، فوضع أبو العباس يده خلف ظهره . وفعل أبو عبد الله الأمر نفسه ، وتعانقا . بكى أبو العباس ، وبكى الرجل لبكائه ، دون أن يدرى السبب . قال أبو العباس : ياحكيم ، ماجئتكم إلاّ مودعاً . ياحكيم ، سأذهب إلى المقسم لأودع أخى ، ثم أعود إلى الإسكندرية ، أقضى بها ليلتى ، وأدخل فى اليوم التالى قبرى..

وسافر أبو العباس إلى أخيه . أقام عنده أياماً قليلة . ثم رحل إلى الإسكندرية ، فأقام بها ليلة ، لحقته الوفاة فيها . وشيع إلى قبره فى اليوم التالى ..

أسندت أصابعها إلى الباب ، قبل أن تلتقى ضلفتاه . أغلقته برفق ، حتى لايثير السكون السادر من حولها ..

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يغادر البيت ، حين يختلط طلوع الصباح بظلمة الليل . مع ذلك ، فقد داخلها خوف . ربما لاعتزامها السير فى غير الطريق التى اعتادتها . نصحها جابر برغوث بأن تكون زيارتها للسلطان ليلة الأحد ، قبل طلوع الفجر ، فإنه يكون حاضراً ..

مالت من شارع حافظ إلى شارع أبو العباس المرسى..

أحكمت الملاءة حول جسمها ، وهى تهبط الميدان الواسع ، لفته غلالة رمادية ، فبدت الكائنات كأشباح . ميزت أضرحة الأولياء أوسط الميدان . الكسوة الخضراء غابت فى مظلة رمادية ، التفت بها الأشياء حولها . لامارة ، ولِصق أبو العباس أجساد غيبها النوم ..

جالت ـــ بنظرة ساهمة ـــ فى الميدان الساكن ..

اقتربت من شباك الضريح الأول من اليمين . مسحت بيدها على أعمدته الحديدية ، وقرأت الفاتحة . فعلت الأمر نفسه أمام شبابيك الأضرحة الأخرى . إثنا عشر ضريحا . الأولياء أصحاب الدرك ، يخضعون لإمرة القطب الأعظم ،

سيدى المرسى ، ونواهيه . يقضى بالصالح ، فيمتثلون لقراره ، وينفذون ماقضى . عذر تأخر النصفة ، فى انشغال أصحاب الدرك ـــ والقطب من فوقهم ـــ بآلاف الالتماسات من طالبى البرء والشفاعة والمدد . تعطى للأولياء الميامين عذرهم . يقضون بما يفيض عن الحد . الولى ـــ له التوقير والاحترام ـــ بشر ، ينام ويأكل ويطلب الراحة . الإثقال عليه حرام ..

وقفت فى الميدان الواسع ، تعاود الالتجاء إلى القطب الكبير ، سلطان الإسكندرية وحاميها ، بعد أن أكثرت من اللجوء إلى مريديه . تهدأ وتستريح . يحنِّنْ قلب سيد الفران ، فيتزوجها . ينسى ماكان من علاقتهما القديمة ، يصبح كأنه لم يكن . يبعد عنها شر أولاد الحرام . إذا لم يتحقق الأمر ، فسترفع المظلمة إلى رئيسة الديوان . تسافر إلى القاهرة ، فتقضى أم العواجز بما تشاء ، فى مجلسها كل خميس ..

صعدت ـــ بخطوات متلهفة ـــ إلى باب الحريم ، فى جامع أبو العباس . تكررت زياراتها إلى المكان . تطوى الرقعة الصغيرة ، فى صورة حجاب . يكتب عرضحالجى المحكمة الشرعية بشارع فرنسا ، ماتمليه عليه . تدس

الحجاب فى ثنايا الكسوة الخضراء ، أو تقذف بها خلل أسوار الضريح . وربما وضعتها على الطرف المقابل من النافذة الحديدية ..

قال لها العرضحالجى ، وهو يلف الدوبارة المربوطة بالنظارة الطبية حول أذنيه :

ـــ هذه هى الرسالة الثانية بعد الثلاثين ..

وطوى الرسالة كالحجاب :

ـــ يبدو أن الأولياء يرفضون ابتعادك عن الكار ..

هتفت وهى تطوح الهواء باصبعها :

ـــ حتى الهزار لايصح فى هذا ..

وتغلف صوتهابمسحة إشفاق :

ـــ ربما نالك عقابهم ..

... ...

... ...

لحضرة صاحب الفضيلة ، الإمام المرسى أبو العباس ، رضى الله عنه . سلطان الإسكندرية ، ومنصف الغلابة والمنكسرين ، ومغيث طالبى الشفاعة والمدد ..

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على رسوله الكريم ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وآله أجمعين ..

حضرة سلطان الإسكندرية ، شيخنا الكبير ، قطب الطريقة الشاذلية ، صاحب المقام الرفيع ، صاحب السيادة والفضيلة ، صاحب المجد والشرف ، سيدى الإمام أبو العباس المرسى ، رضى الله عنه وأرضاه ..

ياإمام العارفين ! ياسيدى ! ياشيخى ! ياإمامى ! ياحاضر المريدين ! ياقطب الأولياء !..

تتظلم إليكم بهذا أنسية بنت جمالات ، بنت أنور المدفع ، المقيمة فى حماكم بمدينة الإسكندرية ..

توسلت إليكم بجاه سيدنا محمد الحبيب ، أن تقضى حاجتى ، وتزيل شدّتى ، ياحاضراً لايغيب ..

سيدى الإمام ..

أنا فى عرض الله وعرضك . أتوسل بك إلى الله سبحانه وتعالى ، أن تنتقم عاجلاً ، مستعجلاً ، ممن ظلمونى ، وأساءوا إلىّ ، وأن يورّينى الله فيهم بقدرته ــــ سبحانه ــــ مايسر خاطرى ..

أنا أرفع شكواى إلى أهل الباطن ضد من ظلمونى ، واستحلّوا ماحرّم الله ، وتعدّوا على بكل شئ ..

أُحكم بعدلك على هؤلاء القوم الظالمين . إجعلهم موعظة لمن يتّعظ ، وعبرة لمن يعتبر ..

لقد سبّنى إمام جامعك بما يمنعه الله ويحرّمه . لايعلم أنى ابتعدت عن كل مايسئ إلى دين الإسلام ..

ولما ساعدنى المعلم عبد الرحمن الصاوى ، عاب عليه حمادة بك ذلك . قال له كلاماً فصيحاً ، معناه أن الصدقة لأمثالى حرام ، مع أنى ـــ يشهد الله ـــ أريد أن أبتعد عما يغضب الله ورسوله ، ويغضبك ..

لقد ظلمنى هؤلاء الناس كثيراً ، ودائماً يتعرضون لى بالأذى ..

أنا لاأحد لى خلافكم ، لافى الدنيا ، ولافى الآخرة ..

لقد حرم الله على نفسه الظلم ، وهؤلاء الناس ظلمونى ..

أتوسل إليك أن تمنع عنى حمادة بك .. فهو يضايقنى ، ويتعرض لى ، ويوجه لى كلمات قاسية ، ويعرض علىّ

أموراً معيبة ، أنت أعلم بها ، وقررت أن أبتعد عنها ، وأخلص لعبادة الله ..

إن حمادة بك يريد أن أظل مخلوقة فاسدة ، ولاأعود مثل بقية الناس مخلوقة صالحة . فهو يدعونى إلى الفعل الحرام . وهذا لايرضى الله ، ولاالرسول ، ولاأنتم أيضا ..

فاحكم بما يرضى الله ، ورسوله ، ويرضى فضيلتكم ، ويكون الحكم مشمولاً بحضرة النبى المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وخلفائه الكرام ، والأقطاب الأربعة ، والأنبياء ، والمرسلين ، والمقلدين ، والمجتهدين ، والشهداء ، والصالحين ..

أرجو سرعة الحكم فى بحر أيام ، لآخذ حقى من هؤلاء المعتدين ، لأنى امرأة مسكينة ، لاجاه لى ، ولاسند ..

أجرنى ياسيدى أبو العباس ، وانتقم ممن ظلمنى ، واظهر لى كرامتك فيهم ..

أعرفك لما ربنا يبلّغ المقصود ، لك الحلاوة إن شاء الله . أعمل لك خاتمة لوجه الله ، وأنفق على المحتاجين والفقراء ، على قدر طاقتى ، وأقبّل عتبة مقامك ..

الله يقدّرك للعمل الصالح . أنا متعشمة فى بطل منصان..

أرجو أن تظهر لى ، وتبين لى بيانك ، وتنتقم من الذين تعدّوا علىّ بإذن الله ..

مددك مددك مددك ياسلطان .. يامرسى ..

أنا محسوبة عليك ، والمحسوب منسوب ، ياأبا مقام عال ..

العبد ليس بيده شئ ، وأنتم من عباد الله الصالحين ..

... ...

... ...

بدأت بالأولياء الإثنى عشر . ثم لجأت إلى قطب الأولياء . يبحث الأمر ، ويقضى فيه . إذا حدثت النصفة ، فقد نالت ماتتمنى . أما إذا ظهرت المسألة أكبر من همته ، فإنه يرفعها بكل ماباحت ، ودعت ، وابتهلت ، إلى الديوان . تتصدّره الست الرئيسة . يحضره الأئمة الرفاعى والشافعى والبدوى والجيلانى . يناقشون الأمر ، يقلّبونه على كل وجه ، يقضون بالقرار الذى يسعد أيامها ، مع سيد الفران ، أو بدونه . فهم أدرى بصالحها . أرهقتها الأيام ، ولابد لكل شئ

من نهاية . طالعها المقام بنور غائب المصدر ، وتضوع بخور برائحة جميلة ..

تأكدت من التفاف الملاءة حول رأسها ، فلا يبين من شعرها شئ . السلطان يراها ، ويعاين هيئتها . قد يغضبه ماتراه عادياً . أخرجت من عبّها منديلاً ، مسحت به على المقصورة ، ثم مسحت على رأسها . البركة تسرى من السلطان إلى المقصورة ، فإلى المنديل ، فإلى حياتها ..

ثبتت يدها على القضبان النحاسية ، اللامعة . وحياتك ياسلطان .. وحياة من أماتك ، ووضع فيك البركة . أنا وليّة مسكينة ، لاأهل لها ولابيت . لاأريد إلاّ أن يتركنى الناس فى حالى . إذا كنت غلطانة ، عاقبنى . وإذا كنت مظلومة ، فلا تجعل الظلم يستمر ..

ألصقت شفتيها بالشبابيك ، كى يستمع السلطان إلى ماتهمس به . يقضى فيه إن تيسر القضاء ، أو يرفعه إلى أولياء الديوان ، يقضون بما لهم من حول وقوة . يتحقق مطلبها ، فتطلق الزغاريد فى أنحاء المقام ، إعلاناً للفرحة ..

تأكدت من التفاف الملاءة بيد . إنحنت ، فكنست باليد الأخرى أرضية المقام . ثم قلبت السجاجيد المحيطة به . مقلوبة عليهم إن شاء الله ..

وانصرفت ..

***

قبل أن تميل إلى الميدان ، شهقت لرؤيته ..

لم تتبين فى الغلالة الرمادية ، سوى هالة الشعر التى غطت وجهه ، والعينين يطل منهما بريق غريب ..

قال لتراجعها المذعور :

ــــ مم تخافين ؟..

تعرف أن القطب يظهر لزائريه أحياناً . الناس ــــ الآن ، وفى كل وقت ــــ يتحلقون ضريحه ، ومقامه ، يبثون شكاياتهم ودعواتهم وابتهالاتهم . هاجس يحدثها بأن الشيخ الواقف أمامها ، هو القطب الأعظم ، لاسواه ..

حاولت انتزاع الكلمات :

ــــ أنا ..

قاطعها :

ــــ أنسية ..

أضاف لنظرتها الذاهلة :

ـــــ مشكلتك لها حل ..

فى توسّل :

ـــــ أستريح ..

ـــــ يقضى الله بالصالح ..

استجمعت جرأتها :

ـــــ هل أنت ؟..

قاطعها :

ـــــ سبحانه سيد الخلق ..

وذهب متلاشياً ، كأنه لم يكن ..

خامرها ندم لأنها لم تعلق به . تكشف رأسها ، وتنحنى على قدميه تقبلهما . تعلن ـــــ بما وسعها ـــــ استغاثتها بكراماته ومدده . مفاجأة اللحظة أنستها ماكان عليها أن تفعله ، وإن تعزت بالابتسامة التى لم تفارقه ..

الليلـــــةالكبيـــــرة

إلهى قد خلقت لــنـــا محـــمــــــد لك الفضل والجميل على محمـــــــد

ونشهد أنك المولـــــى إلهــــــى والموصــول كالهــــــادى محمــــــــــد

وقل ماشئت تمـــــدح محمـــــد مـــن البيــت الحــــرام ترى محمـــــــــد

الليلة التاسعة . الليلة الأخيرة فى مولد السلطان ..

امتلأ الميدان الواسع بالناس والأعلام والأكشاك والخيام وسرادقات الأذكار ونصبات القهاوى والغرز والوشامين والملاهى وألعاب النشان ، وباعة المصاحف وصحيح البخارى وكتب السير الشعبية وتراجم الصحابة وأولياء الله والصالحين ، والصور الدينية وعربات الأكل والحلوى وباعة الفول والفلافل والمخلل والترمس والخروب والعرقسوس والحمص وحب العزيز وحلاوة دمياط وألعاب الثلاث ورقات ، والسجاجيد والحصر والكلوبات ولمبات الكهرباء والميكروفونات وأكشاك الختان ، وحلقات الذكر والفرق

الموسيقية وعساكر سوارى البوليس ، والدخان الباهت يتصاعد من مداخن عربات اللب والسودانى ..

تعالت البيارق والأشاير والخرق الملونة ، وأصوات المزامير والدفوف والطبول والمزاهر ودقات الكؤوس ، والأدعية والابتهالات والصياح والصراخ والملاغية والتوسلات ومناداة الأولياء ، والنداء يطغى على كل الأصوات : الله حى !.. الله حى !..

الآلاف وفدوا من الإسكندرية ، والمدن ـــ والقرى ـــ المحيطة . نصبت خيام الخيش ، وأكشاك الكارتون ، والقعدات التى بلا غطاء ، فى زوايا الميدان ، وفى الدحديرة الخلفية ، وفى امتداد الطريق إلى الموازينى والسيالة والحجارى . شغل القادمون مداخل البيوت ، وحنايا السلالم . وفرشت الحصر والأكلمة والسجاجيد . وصفّت أوانى الطعام ، وعلب الشاى والسكر ، وتعالى وشيش البريموس ..

علت لافتات الطرق الرئيسية ، والفرعية : الشاذلية والأحمدية والرفاعية والقادرية والبرهامية . أعلام الشاذلية مختلفة الألوان ، عكس أعلام الفرق الأخرى ذات اللون الواحد ..

ازدحمت الساحة الواسعة ، المطلة على الميناء الشرقية ، بالبشر والألعاب والبشاير والنايات والموشحات والمواويل والضحكات والهمسات والهذيان والصراخ والانجذاب ورشفات الشاى وأنفاس الحشيش وحبش إيطاليا والكرملة وعصاية على افندى والأغنيات والأناشيد وزعيق المكروفونات واللبد والطرابيش والجلابيب والسيالات والملاءات اللف والبلغ والأقدام الحافية والملاحف والسراويل والمسابح والعمائم واللاسات والسيوف الخشبية والأذرع والسواعد وبقايا الطعام وروائح البخور والقئ والعطن والمجاذيب والمصروعين ورجال الطريق والفتاة الكهربائية وفرقة على الكسار وفرقة المسيرى وشاعر الربابة ولعبة القوة والأركان المظلمة والألعاب النارية وألعاب الحظ والمراجيح والدويخة والعرائس والأراجوز وخيال الظل وصندوق الدنيا والحواة ورقصات الغوازى من صحراء المتراس ، ومن خارج المدينة ..

القهاوى مفتوحة إلى الصباح . نصباتها من الخشب والصفيح والخيش ، ومئذنة أبو العباس التفت بأضواء ملونة . وتلاغط من مدائح الرسول ، وأذكار الشاذلى ، والأوراد ،

ودلائل الخيرات ، والدعوات ، وصيحات المنشدين ، وحشرجات أهل الذكر ، وطالبى البرء والشفاعة والنصفة والمدد . جماعات يتلون آيات القرآن الكريم ، وأناشيد الترنم بحب الرسول ، والصلاة والسلام على النبى . أجسام الذاكرين تتمايل ، وتتهدج أصواتهم . يطيب لهم الذكر ، وترديد أسماء الله الحسنى . يتواجدون ، يضطربون ، يشحطون ، يسّاقطون على الأرض ، يظلون بلا حراك حتى يكبس الشيخ أيديهم وأرجلهم ، وإنهاضهم على بركة الله . تتعدد حالات الصعق والوجد والبكاء والنحيب وإلقاء العمائم والطرابيش واللبد ، ونزع الثياب ، أو تمزيقها ..

مـــدد مـــدد .. ســـيدنا النبـــى مـــــــــــــــدد

مـــدد سيدنا الحسين مـــــــــــــــــــــــدد

مـــدد مـــدد .. ياطـــاهره مـــــــــــــــــــــدد

مدد مـــــدد ياشاذلـــــــــــى مـــــــــــــــــدد

ويابدوى .. يامرسى .. ياحنفى ياراضى يارفـــاعى

سيدى ابراهيم

مدد مدد .. ياشاذلى .. مـــــــــدد

العشرات يعزّمون ، ثم يبتلعون الجمرات المشتعلة ، يزردون الزجاج ، يضعون فى الأفواه ثعابين تتلوى ، يلتهمون الثعابين الحية ، يطعنون الصور بالمدى ، يقبضون على الحديد المحمى ، يضعون الأصابع فى النار ، يدخلون النيران ، يرتدون الأطواق الحديدية فى الأعناق ، يلفون الأجسام السلاسل ، يوخزون الوجنات بالإبر الطويلة ، تخترق الفم إلى الوجنة الأخرى ، يلفون الشعور ويلبدونها ، يرتدون طواقى السعف والطراطير المزدانة بالريش والخرق الملونة ، يحملون مزاريق الجريد ، والسبح الهائلة ، والشموع ..

اعتاد رؤية ليلة المولد ، حتى أعوام قريبة . ثم لم يعد يذهب إليها ..

كان الزحام يسعده . يغرق فى بحر الناس . يتلذذ بالتصاق الأيدى والأكتاف ، ورائحة العرق ، والصراخ ، والشتائم . ربما اندس فى زحام الترام ، أو الأوتوبيس . ينغرز اللحم الملتصق ، والأنفاس ، والعرق . يلتذ بالضغط من حوله . يغمض عينيه ، ويسرح فيما لايتبينه . وكانت الاحتكاكات تضيف إلى صراخ أعماقه . ثم حرص جلساء

قعدة الحاج محمد صبرة ـــ لايذكر لم ولامتى ـــ أن يصحبوه فى جولاته داخل المولد . يذوب فى البحر الواسع . من يعرفهم ، ومن لايعرفهم . يتدخل الجلساء ـــ لم ؟ ـــ يبعدون الزحام عنه ، حتى يغادر المكان ..

قال له المعلم أحمد الزردونى :

ـــ غداً الليلة التاسعة لمولد السلطان .. الليلةالختامية..

أردف لملامحه المتسائلة :

ـــ دخولك الانتخابات يفرض أن تحضر ليلة المولد..

قال عباس الخوالقة :

ـــ هذه هى الليلة الكبيرة .. وغداً يبدأ مولد سيدى جابر ..

قال المعلم الزردونى :

ـــ الحاج محمد يملك قائمة بموالد الأولياء : أبو العباس ..فسيدى بشر .. ثم سيدى محمد الرحال ..

وأضاف :

ـــ أكل عيشه فى هذه الموالد ..

قال عباس الخوالقة :

ـــــ لم يعد محمد صبرة يذهب بعيداً عن مولد أبو العباس .. ترك بقية الموالد لصبيانه !..

قال الحاج قنديل :

ـــــ لاتتعبوا الرجل .. فنجاحه مضمون ..

قال المعلم الزردونى :

ـــــ النتيجة الوحيدة المضمونة ، هى فوز مرشحى الوفد ..

قال عباس الخوالقة :

ـــــ نحن لانعرف متى تجرى الانتخابات ، ولامن سيرشح الوفد ؟..

قال الزردونى :

ـــــ قيل : لو رشح الوفد حجراً لانتخبناه !..

قال الحاج قنديل :

ـــــ حمادة بك يستطيع الفوز مستقلاً ..

اعتاد أهل الحى مناداته بلقب بك ، منذ صاهر أسرة سعيد النقيب . ناداه الحاج قنديل باللقب ـــــ أول مرة ـــــ تقديراً لمكانته الجديدة ..

أضاف عباس الخوالقة مهوناً :

ـــــ إنه فى قلوبنا نحن ، ولن تذهب أصوات دائرة الجمرك إلى سواه ..

نزع الحاج قنديل مبسم الشيشة ، ومسح عليه بباطن يده:

ـــــ إذا فاز حمادة بك .. نضمن أن يكون لنا فى البرلمان سند قوى ..

قال حمادة بك :

ـــــ بل تضمن أنك أنت نفسك قد أصبحت عضواً فى البرلمان !..

قال المعلم الزردونى :

ـــــ الأمنيات الطيبة وحدها لن تكفى .. لابد أن يتحرك حمادة بك بين ناخبيه ..

كان قد صافح آلاف الأيدى . شرب مالاحصر له من أكواب الشاى ، وفناجين القهوة . سار فى حوارى وأزقة . لم يكن يتصور أنها تابعة لحى الجمرك ، أو أن ناسها يسكنون بحرى . تحمّل المساومات ، والابتزاز ، والملاحظات المتسائلة عن الانتخابات التى لم يبد أفقها ..

علت الأصوات المؤيدة ..

قال عبد الرحمن الصاوى :

ـــ هذا هو مايجب أن نفعله .. جولة فى قلب الليلة الختامية ..

قال حمادة بك :

ـــ لكنها ستكون ليلة زحام ..

قال الخوالقة :

ـــ هذه افضل دعاية ..

قال الزردونى :

ـــ نحن لانعرف متى تجرى الانتخابات ..

جاوز حمادة بك الملاحظة :

ـــ المهم .. كيف نسير وسط الجلوة ؟..

قال الحاج قنديل :

ـــ دعوا لى هذه المسألة .. ثلاثة عساكر يفسحون الطريق إلى داخل الضريح ، لوشئنا !..

دفعه الحاج قنديل ـــ مترفقاً ـــ بعيداً عن موكب المطاهر . يركب الأولاد حميراً . كل واحد ممسك بمنديل أبيض . يضعه على فمه . يقيه من الشيطان ، ويحفظه من العين الحاسدة . يتوقف أمام الخيمة الصغيرة . أضاءها ـــ

من الداخل ـــــ كلوب . جلس الحاج محمد صبرة . إلى جانبه ترابيزة ، عليها أدوات الختان ، ومايعقبه . أمامه كرسى صغير ، يضع الأهل طفلهم عليه . يتولى الصبى رخا نزع أسفل جلبابه ، وإفساح مابين ساقيه . يجرى الحاج محمد بالموسى ، فينتزع قطعة الجلد ، قبل أن يبدأ صراخ الطفل . يكتم رخا بيده تواصل الصرخات ، فلايخاف من ينتظر دوره من الأطفال ..

فى أيام مولد السلطان ، يفرغ الحاج محمد لعمليات الختان . يغيب عن دكانه . يظل فى الكشك الخشبى الصغير ، قبالة الباب الخلفى للجامع . لاتكف فيه عمليات الختان . للسلطان بركته فى الذكورة ، وعدم الربط ، وسرعة التئام الجروح . يستعين بشطورة ، ضارب الطبلة من قهوة العوالم ، كى يغطى على بكاء الأطفال ، وصراخهم ..

بدت الجلوة من بعيد .. موجات من البشر ..

أبطأ حمادة بك من خطواته ، فأبطأ من كانوا معه : كيف ينفذ وسط بحر البشر، إلى ضريح أبو العباس ؟..

قال الحاج قنديل :

ـــــ لاتخشوا شيئاً .. العساكر أمامنا يفسحون الطريق..

التصقت الأكتاف بعفوية ، وظلوا فى أماكنهم ..

همس حمادة بك :

ـــــ لامعنى لذلك كله .. الأفضل أن نعود ..

قال الحاج قنديل :

ـــــ ويقول الخصوم إنه خشى السير وسط الناس ؟!..

أرفق الحاج كلماته بدفعه بيده . تلاحمت الموجات الصغيرة ، المتلاحقة . شكلت موجة عالية ، قاسية ، ضاغطة ، اجتذبته فى قلبها . وجد نفسه ـــــ فجأة ـــــ قطرة فى البحرالصاخب . الصراخ والزعيق والأيدى والأرجل والرءوس والأنفاس ورائحة العرق والعصى والقوايش والأزرار النحاسية . لمح ـــــ وسط الموج البشرى ، المندفع ، الإفريز العلوى لواجهة أبو العباس . ثانية أو أقل ، ثم اختفى . لم يعد إلاّ الموج الضاغط ، المتلاطم ..

تدافعت الجموع . تلاصقت . أحس أنه يختنق ، ينضغط بتدافع الأجسام . يختلف عن الضغط الذى يحبه فى وقفته أمام باب الترام ، أو مايتطلع إليه فى سره المحير .

يعانى الدفع ، واللكزات ، وقبضات الأيدى ، وركلات الأقدام ، وتمزق الملابس ، وصعوبة التقاط الأنفاس . لم تفلح ضربات العصى ، ولاالقوايش ، فى فك الأجسام التى تلاحمت ، وذابت ، فبدت جسماً واحداً ، ينتفض ولايتحرك ، أو أن تحركه لايكاد يبين ، اعتصره التلاصق ، واختلاط الأنفاس والرائحة النافذة والعرق والنداءات والصيحات والصرخات والتدافع الثابت فى مكانه ..

تداخلت مجموعة الرجال . ابتعدت عن العساكر . ثم انفصلت بضغط الزحام الهائل . الأمواج أقوى من تفاديها . دفعت بالرجال ، كل فى ناحية . ذابوا فى مياه البحر الصاخب . بكى الحاج قنديل بلا إرادة . تساقطت الدموع على خديه ، دون أن يجد منفذاً فى الحصار الضاغط . وخانت الصرخات حمادة بك . تلاشت فى الصخب العنيف حوله . وأسلم بقية الرجال أنفسهم إلى الموجات المتدافعة ، المتلاحقة ، القاسية . لايقوون على التملص ، أوالتقاط الأنفاس ، وتحول النظرات عن السواعد والأيدى والرءوس والوجوه والأقفية . إختلطت المشاهد . تضوى وتختفى . غاب الزمان والمكان ، فلم تعد إلاّ اللحظة . بدأت ، وهى

التى تحدد ـــــ إذا انحسرت الأمواج البشرية ، المتلاحمة ،
المتدافعة ـــــ متى تنتهى ..

اليقيـــــن

متى تنزل أمطار المدد على أرض النفوس الطيبة ، والقلوب المطهرة ، والأرواح المضيئة ، والأسرار المقدسة ؟..

***

أنا من أهوى ومـــن أهوى أنا　نحن روحان حللنا بدنـــا
فإذا أبصرتنى أبصرته　وإذا أبصـــــرته أبصرتنــــــــا

لما غادر الحضرة ، كانت تهب على ميدان المساجد نسمات خريفية ، تماوجت فى نفسه مشاعر متباينة ، كأنها الفرحة ، أو اللذة ، أو الانبساط ، ففتح قلبه لكل من حوله ، وماحوله . أحس أنه يطير فوق الأرض ، فليس لقدميه وقع ، تسيران ولاتسيران ، قوة غريبة تحمله ، تمضى به إلى الأمام ، وإن بدا له كأنه ينقل خطواته ..

كان الطريق خالياً ، لايرى شيئاً يكرهه . حتى الكلاب التى اعتاد رؤيتها ـــ وتجنبها ـــ بالقرب من دكان شبيرو الجزار ، لم يعد يخشاها . طابت له نفسه . استغرق فى النشوة ، فغمرته تماماً ..

قال له الشيخ يوسف بدوى ، وهو يغادره :

ـــ أنت الآن منته واصل . مقام الصحو والتمكين ، وإجابة الحق من حيث دعاه ، وإن كنت جاوزت ـــ فى الحقيقة ـــ كل المقامات ..

زالت العادة ، وحلت العبادة . جاوز حجب التردد والشك والخوف . جعل من المجاهدة سبيلاً وحيداً لأنوار المشاهدة . التجلى والانكشاف ، أوجبا عليه الصمت والمشاهدة . صمت حتى عن ذكر الله ، خشية ألاّ تفد الرؤيا . يغمض عينيه ، فتنسد طرق الحواس الظاهرة ، وتفتح الأبواب لحواس القلب . يهبه الله علم أسرار المفاتيح على اختلافها . يفتح به الخصومات والمغالق والمعضلات والمضايق . زهد فى الدنيا . مال إلى جانب الآخرة . يحميها حرس الله . يشرف عليها بعدله . لاتغفل عنها عينه . تكتمل للإنسان فيها طمأنينته . قطع العلائق كلها ، وأقبل بكنه الهمّة

على الله . شغله التعرف إلى جواهر العلوم والأنباء والمعارف ، الحقائق التى لاتتبدل ولاتتغير باختلاف الشرائع والأمم والأزمنة . تطلع إلى الأفق المبين ، نهاية مقام القلب . جلا مرآة قلبه ، فلا ينطبع فيها إلاّ وجه المحبوب . تنزه عن أن يشغله أى شئ عنه . لم يعد يشارك فى حلقات الذكر . لاذ بالحضرة الواحدية . انصرف بفكره إلى قدس الجبروت ، واستدام لشروق نور الحق فى سره . يرى اتصال مدد الوجود ، ويخشع لذكر الألف . كل شئ موجود به ، معدوم بنفسه ..

عظمت المحبة ، وكثر العطش ، وغرق فى بحار المنن والآلاء ، واستحقت الروح رفع الحجاب ، وتأهب لورود الإمداد . سافر إلى جزر قريبة ، وبعيدة . تناهت أصوات موسيقا . رقصت ــــ فى ضوء القمر ــــ بنات الحور ..

كان يحس ــــ وهو يصلى ــــ أنه بين يدى الله العظيم . عن يمينه الجنة ، وعن شماله النار ، وخلفه الملائكة ألوف ، يصلون ، ويدعون له بحسن القبول . لايحصره الكون ، فلا تقله الأرض ، ولاتظله السماء ، والبحار لاساحل لها ، والغوص بلا حد ولامنتهى ..

لمح أنواراً فى أفق قلبه . لاحت ، فاطلع على ماكان خافياً . أغرقته سحائب الرحمة . تكشفت له الأسرار . تطهرت نفسه من الهواجس والوساوس الخفية . برئت من شوائبها . صفت ، وسمت . استحالت إلى روح لطيفة خالصة ، تهفو للوصول إلى الملأ الأعلى ، والمبدأ الأسمى . تشهد من الجمال المطلق مالا رأت عين ، ولاسمعت أذن ، ولاخطر على قلب بشر . عالم يتوق إليه ، فلا يبلغ معرفته إلاّ بالكشف ..

ترك حظوظ النفس فى جميع مافى الدنيا ، فى كل مايشغله عن الله . انخلع عن كل مايمت للأرض بسبب ، وتحير فى ميادين القرب . صبر على المجاهدات والرياضات ، وغلب عليه الشوق إلى المشاهدة . أطال العكوف على باب الحضرة الإلهية ، يتطلع إلى انفراجه . يترصد للشرارة حتى يلتقطها . قطع المنازل والترقى فى المقامات ، فشفت الحجب الكثيفة ، وتقطعت أستار الجلال ، وأشرقت شموس العرفان ، وصفت البواطن من الشواغل والشواغب ، وشعر أنه قد بلغ غاية مقام القرب والتمكن . حتى السماء السوداء ، استحالت قبة من نور أسود ..

مال من الميناء الشرقية إلى الأنفوشى . عبر حلقة السمك ، فلم يرها . غاب عن سمعه تلاغط البيع والشراء ، والصيحات التى ناداه بعضها باسمه . انشغل عن نفسه ، وعما حوله ، بالدفقات والنفحات ، تهب عليه ، تكشف له عن حقائق الأمور الإلهية ..

استقر إيمانه . لم تعد تشغله تصرفات الحاج قنديل ، ولاشتائمه ، ولاقلة ، أو كثرة ، مايصطاده ، وإن كان المزاد فى الحلقة يتوقف عنده ، أم يفوز به غيره . أحس أنه قد انتقل من ضيق الأكوان ، ورحل إلى سماء المعرفة ، وأنه على أعتاب الحضرة الإلهية . تهيأ باطنه لتلقى الإلهامات الربانية ، أنوار الله واسراره ، يتلقى المدد من الواحد الأحد ..

تأمل أمواج البحر المتلاطمة فى صخب . أحس أن مايمور فى أعماقه أشد صخباً . فاض ماء المدد ، فغسل أوساخ الوهم . تمت المصافاة . حلت المناجاة . فتح باب القدرة . تنزهت الروح فى عالم الملكوت . جالت فى دنيا الحق . أشرقت عليه شوارق الأنوار ، ومقامات الإيمان بالله ، وغرقت الروح فى بحر التوحيد ..

تكامل إشراق نور اليقين ، فغطى الوجود ، وارتوى من الخمرة الأزلية . تبدت أمامه صفات الله : العظمة ، والعزة ، والجلال ، والجمال ، والكبرياء ، والكمال . انتهى إلى الله ، وفى الله . استمرت ذاته فى ذاته ، وصفاته فى صفاته . غاب عن كل ماسوى الله تعالى . لم ير فى الوجود غيره . استكان لتصورات الآتى : يترقى فى مراتب الأسماء . يترجل فى معراجه . يصعد سماء بعد سماء . يتلفت إلى عجائب الله وآياته فى الكون المحيط . يهمس له الملائكة الملتفون حوله : لاتتلفت فتتعثر .. إن السفر طويل . تتفتح السماء واحدة بعد أخرى ، وترفع الحجب . يصل إلى السماء السابعة ، حيث الملكوت الإلهى ، ويواصل السير بلا انتهاء . يضاعف من الأوراد والذكر والأحزاب . يبين التألق فى سدرة المنتهى ، جنة المأوى والملاذ السرمدى . يخطو منها إلى حضرة العرش ، والرحمن الرحيم قد استوى ، ويمضى ـــ بخطوات الفرحة ـــ إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر ..

فاجأه عجوز يستند إلى جدار أبو العباس ، لم يعرفه ، ولارآه من قبل ، وهو يغادر الباب المطل على ميدان المساجد :

ـــــ فيما أرى ، فأنت تريد الجنة .. والصوفى الحقيقى يريد رب الجنة !..

تأمل العبارة لأيام . حيرته . لم يشر الشيخ يوسف بدوى إلى المعنى فيما قاله . هل يخلص فى عبادة ربه ، فلا يجد فى نهاية المسعى إلاّ السراب ؟!..

راعه أن خليفة الشاذلية حين ركب حصانه فى مولد أبو العباس ، لم يقبل على الشيخ يوسف بدوى ، وهو واقف وسط مريديه ، والجلوة تميل من الميدان إلى شارع البوصيرى ، ولاألقى عليه التحية . ضايقه أن الخليفة يتجاهل شيخه ، كأنه ليس من رجال الشاذلية .. فعلى من أخذ العهد؟!

مال إلى الوحدة ، واعتنس بالإنفراد . شغلته القراءة . عرف الطريق الواحدة ، طريق الألف . أقبلت نفحات الصبا الرحمانية ، الآتية من جهة شروق الروحانيات ، والدواعى الباعثة على الخير . إن لم يكن قد ملك ـــــ فى هذه الحياة

الفانية ــــ قليلاً ولاكثيراً ، فإن دولة الفقراء ذات السلطان الواسع النطاق ، الممدود الرحاب ، فى جنة الله يوم الدين . يخرج من قبره ، فتستقبله نوق بيض ، لها أجنحة . عليها رجال الذهب ، شرك نعالهم نور يتلألأ كل خطوة منها كمد البصر ، فينتهون إلى باب الجنة . يدخل عليه أهل الجنة مهنئين ، حاملين الهدايا والمواهب والخلع . يخبرونه أنه قد بدأ حياته الأبدية . يأتى المؤمنون رب الحق فى حلل خضر ، ووجوه مشرقة ، وأساور من ذهب ، مكللة بالدر والزمرد ، وعليهم أكاليل الذهب . تزول اللحى والشوارب ، وشعر الإبط ، وشعر العورة والبطن . ليس لهم شعر إلاّ فى الرأس والحاجبين وأهداب العينين . لايبولون ، ولايتغوطون ، ولايبصقون ، ولايمخطون . أمشاطهم الذهب ، ومجامرهم عود الجنة ، ورشحهم المسك ، وأخلاقهم على خلق رجل واحد . يعطى كل واحد منهم قوة مائة رجل فى الطعام والشراب والشهوة . يجد لذة شهوته قدر أربعين سنة . تتدفق الأنهار ، وتصطف الأشجار ، وتهب النسائم ، وتغرد الطيور ، وتضوع فى قصور الأبدية روائح المسك والكافور والزعفران . وثمة شجرة يخرج من ساقها عينان . يغتسل

المرء من العين الأولى ، فلا يشعث رأسه بعدها أبداً ، ولايتغير جلده ، ويشرب من العين الثانية ، فيتطهر جوفه ..

ــــ أين أنت ؟..

نظرة الشيخ يوسف بدوى الثاقبة لاحظت انعزاله عن الجماعة ، وعن كلمات الشيخ نفسه . بدا منعزلاً فى مكان ، يعرف هو ــــ وحده ــــ ملامحه ..

إعتذر ، وإن لم يجب على السؤال ..

نقله حديث الشيخ إلى دنيا يحلم بها ، عوالم سحرية يراها ويحيا فى قلبها ، وإن تشوف إلى تفصيلاتها وملامحها . آفاق بلا نهاية من النورانية والروحانية والحقيقة المطلقة ..

سرح به الخيال فى معانى المفردات . الكلمة تنطلق فى آفاق اللانهاية . الرؤى والتكوينات والألوان والظلال ..

فاجأه الشيخ حماد ، المستند إلى جدار أبو العباس :

ــــ لاعلم ولاعمل ، إلاّ بصدق التوجه إلى الله .. الإخلاص مطلوب !..

أضاف بلهجة مشفقة :

ــــ لاتشغلك الجنة .. فنعيمها ــــ كما قال شيوخنا ــــ حجاب عن الله !

تذكر ماقاله أمين عزب : هل يصحو فيجد نفسه شديد القرب من نورانية المكاشفة ؟!..

كان القلب مغموراً بالمشاهدات : الحقائق ، والأوصاف ، والخواص ، والأحكام ، والكرامات ، والأسرار . ينادى المنادى : آن لك أن تصح ، فلا تسقم أبداً . وآن لك أن تحيا ، فلا تموت أبداً . يتحول ظاهره وباطنه إلى مسحة آدم ، وصورة يوسف ، وقلب أيوب . يتزوج خمسمائة حوراء ، وأربعة آلاف بكر ، وثمانية آلاف ثيب . يعانق كل واحدة منهن قدر عمر الدنيا . ينزل عن سرير الياقوت . يمشى فى رياض الزبرجد . يخرج إلى صحارى الزعفران . يمر على مروج العنبر وآكام القرنفل وميادين الصندل . لاحر ، ولابرد ، ولاشمس ، ولاقمر . الأطيار تغمس أجنحتها فى بحر المسك والكافور ، وتجوز فوق الرءوس بأجنحتها ، فيطيب المؤمنون عن آخرهم بريشة واحدة . يركب الرجال على خيل من ياقوتة حمراء . لكل فرس جناحان من فضة ، وجناحان من ذهب . خيل مسرجة لاتغوط ولاتبول . وعلى خيل بلق أجنحتها خضر . والنساء على نجائب أقتابها من ذهب . وبها البراق : رأسه من الذهب الأصفر ، وعيناه من

المرجان ، وجوانبه من الدر ، وذيله من اللؤلؤ ، وقوائمه من الكافور الأبيض ، وحوافره من اللجين ، وسرجه من الزمرد الأخضر ، وركابه من النور ، ولجامه من الحرير الأخضر ..

دهمته الرائحة الغريبة ، ألفها . الحيطان تآكلت . وبدا الطوب الأحمر من المصيص المتساقط ، والبيوت الواطئة ، القديمة ، تستند إلى كمرات الخشب ..

ثمة روح مهيب يملأ جوانبه ، وأطياف تتراءى من بعد . أشعة ضوء تخترق الظلمة المتكاثفة ، تعكس شفقاً شفيفاً ، يضئ المرئيات حوله ، ويضئ نفسه . ثم انعكست آثاره كلية فى نور الأنوار ..

هل وصل إلى الغاية القصوى ، وتمت له معرفة الله ؟ هل كشف عنه الحجاب ، وانفتح له علم الغيب ؟ وهل تفتح أبواب السماء بقدرة الله ، وتظهر طاقة القدر صافية البياض ؟..هل تنعكس على مرآة القلب دنيا لاتعرف الظلام ؟ يسعد بمشاهدة الله ، وتفيض عليه أنواره . يتلقى فيض التجليات على قلبه ، وتنزل أمطارالمدد على أرضه الظمأى . لايلتفت يمنة ولايسرة ، ولاإلى وراء . يدخل الجنة ، فيتمتع بمجامعة

الحور العين ، ويفاكه الأبكار ، ويتكئ على الأرائك ، ويسعى عليه الولدان المخلدون بأصناف الطعام ، وألوان الشراب ، وطرائف الثمار ، والحدائق الوارفة الظلال ، والخضرة ، والأريج ، وأفنان الريحان والياسمين والورد ، وأشجار البرتقال والرمان ، واللبن ، والعسل ، والخمر ، والموسيقا الحالمة ، والغناء الشجى ، والأطيار ، والحمائم ، والرحيق المختوم . يجلس تحت شجرة " التوبة " ، شجرة الجنة الوارفة ، تتوالد بما لايتصوره أحد . تمتد أغصانها عالياً ، ثم تعود إلى الأرض ، تتجذر فيها ، تصبح جذعاً جديداً . يتغطى المكان بظلال النباتات المتسلقة والورود والأزهار المثمرة . تتوقف فوق رءوس المؤمنين . لاشغل ولامرض . يعم السكون والطمأنينة والهدوء والسلام . ينمحى الخوف ، وينال المؤمن جزاء إيمانه . حتى لو بلغ مرتبة الولاية ، فسيظل يأخذ نفسه بالتستر والإخفاء . ينشغل ــــ ولو ظاهرياً ــــ بشئون الدنيا . يبيع ويشترى ، ويساوم ، ويعقد الصفقات . يحرص ألاّ يعرف الناس حقيقة أمره ، فهو واحد من التجار ، واحد من الصيادين ، واحد من المترددين على السلطان ، المريدين له ، الساعين فى طريقه

، المؤمنين بأقواله ، وبمعجزاته ومكاشفاته ، المتطلعين إلى فيض بركته ، إلى الشفاعة والنصفة والمدد . ربما سكت عن إجابة يعلمها ، ويعجز عنها إمام الجامع ، فى سؤال لأحد المصلين ..

ارتفعت القلوع ، وامتلأت الصوارى بالهواء البارد ، ومضى القارب إلى الشاطئ البعيد ، الغامض ، المحمل بالأسرار ..

لاحت الأسرار من أكنتها ، وظهرت الأنوار من سبُحاتها ، وارتفعت الحجب عن القلب ، وظهرت المعنى الإلهية . تجلت فى مرآة الخيال ، فرأتها عين البصيرة . إنكشف لها مافى غيابات الموجود ..

مكاشفـــــة

انتهت صلاة المغرب ، وبدأت نصف الدائرة فى الالتفاف حول مجلس الإمام ..

حضر الجلسة ـــ بعد غيبة ـــ حمادة بك . لزم البيت ـــ لأسابيع ـــ منذ الليلة الكبيرة لمولد السلطان . زاره أطباء ، وعاده أصدقاؤه ومعارفه وجيرانه . لزم الآخرون بيوتهم ـــ لأيام ـــ حتى استردوا عافيتهم ..

ظل ماحدث محور أحاديثهم . تناولوه بالحزن ، ثم غلّفوه بالسخرية . ضمّنوه نكاتاً ومفارقات ، فى زياراتهم لحمادة بك ، وفى جلستهم أمام دكان الحاج محمد صبرة . ذكرهم عباس الخوالقة بأنهم نسوا ـــ عند الفرار بحياتهم ـــ زيارة مقصورة السلطان ، وطلب الإذن بمغادرة المولد ، والدعاء بأن يدعوهم إلى مولد العام القادم : عودة يارب ..!

قال حمادة بك :

ـــ نجوت من الموت مرتين فى الفترة الماضية ..

سرح بعينيه :

ـــــ فى المرة الأولى ، أنقذنى الصياد قاسم الغريانى من الغرق فى الميناء الغربية..

قاطعه الحاج قنديل :

ـــــ إنه أحد صبيانى .. وخادمك ..

قال حمادة بك :

ـــــ أما فى المرة الثانية ، فلست أدرى ـــــ حتى الآن ـــــ كيف نجوت ..

قال الحاج قنديل :

ـــــ هذه بركات مولانا السلطان ..

أردف عباس الخوالقة :

ـــــ وبركات أولياء الله الصالحين .. سادة حينا !..

قال الحاج محمد صبرة :

ـــــ نصيحتى أن تأخذ تعويضاً من الحاج قنديل .. فهو الذى دفعك إلى ترشيح نفسك ..

قال عباس الخوالقة :

ـــــ لكن المعلم الزردونى هو الذى دفعه إلى حضور الليلة الختامية ..

قال الحاج قنديل :

ـــــ فى رواية ، أنه عاد إلى وفديته القديمة .. فأراد إثناء حمادة بك عن الترشيح بوسيلة مبتكرة ..

اغتصب حمادة بك ضحكة :

ـــــ أصدق لو أنه لم يكن معى يوم الهول العظيم !..

قال المعلم الزردونى :

ـــــ الانتخابات قادمة .. وستشهدون تأثير مشاركة حمادة بك فى الليلة الكبيرة ..

رفع حمادة بك يديه ، كمن يتقى خطراً :

ـــــ توبة !..

اهتزت النظارة الطبية على منخار الحاج قنديل :

ـــــ ألن ترشح نفسك ؟..

قال حمادة بك :

ـــــ السياسة بحر .. لاأجيد العوم فيه ..

قال الحاج قنديل :

ـــــ أوجاعك هى التى تتكلم .. إنتظر حتى تبرأ ..

قال وهو يهز رأسه فى تلاحق :

ـــــ للسياسة رجالها !..

أطال الصلاة ـــ لحضورهما متأخرين ـــ الحاج قنديل وعبد الرحمن الصاوى . روى الإمام ـــ حتى يأتيا ـــ حلماً ، استيقظ فى نهايته ـــ وربما قبل أن ينتهى ـــ على أذان الفجر ..

لم يكد يلتقط منه طرف خيط البداية ، حتى فوجئ بالبداية نفسها فى أفواه الحاج قنديل وعباس الخوالقة وحمادة بك . تساءلوا : هل من المعقول أن يشاهدوا حلماً واحداً ـــ وإن اختلفت تفصيلاته ـــ فى لحظات متقاربة ، فلا يوقفهم إلاّ آذان الفجر ، يتصورون مارأوه حلماً وانقضى ..

تراوحت التفسيرات ، داخل الذات ، أو مع الآخرين .. لكن السؤال الذى بدا ملحاً ، بعد أن روى الإمام ماروى : هل كان ماجرى حلماً ، أو أنه شئ آخر ينتسب إلى معجزات سلطان الإسكندرية وحاميها ؟..

روى مريدوه الكثير من مواجيده وأحواله ومكاشفاته وكراماته . كان يأخذ علمه من ربه ، أى وقت يشاء ، بلا تحفيظ من كتاب ، ولادرس . يأخذ عن الكون ، ويمشى على الماء ، ويطير ، ويمسك النار ، ويحتجب عن الأبصار ، ويطوى الأرض ، وربما قطع المسافات البعيدة فى غمضة

عين . وكان يرى الكعبة من موضعه ، أينما كان ذلك الموضع ، حتى يتجه إليه فى صلاته ، ويتكلم عن مكة والمدينة وسائر أرض الحجاز ، كأنه نشأ فيها . ويشاهد ــــ من داخله ــــ العالم الملكوتى الروحانى ، والترابى ، يحيا مع الملائكة والملأ الأعلى والجن والخضر والأبدال ، ويتحدث إلى الراحلين عن دنيانا ، ويطّلع على الخواطر ، فيخاطب كل واحد من مريديه بشرح حاله . ويعرف الزائر له قبل قدومه على مسافة بعيدة . وكان يدخل عليه شخص لايعرف المريدون من هو ، فيحادثه لحظات ، ثم يخرج عنه ، لايتكلم عما جرى أمامهم ، ولايشير إليه . فإذا وقف المرء أمامه ، وظل صامتاً ، أخبره بما فى نفسه ، ونصحه فيما قدم للبوح به . وعرف عنه إعلامه بكوامن فى المستقبل . كان يتوجه إلى البحر ، يمشى على الماء ، ويراه الناس ، دون أن تبتل ثيابه ، كأنه يمشى فى الأرض تماماً ، لايشغله عما حوله شئ ، ولايتلفت . وكثيراً مارآه الناس يدخل بحر الأنفوشى بثيابه ، يظل ساعة طويلة ، ثم يخرج . معظم ماكانت رؤيته وهو فى هذه الحال ، عندما يكون القمر فى السماء بدراً . وكان يطير بلا جناحين ، ويغطس فى مياه

الميناء الشرقية ، فلا يظهر إلاّ فى المنتزة أو أبو قير . وربما طار إلى مكة ، يطوف حول البيت الحرام ، ويزور قبر الرسول ، ثم يعود إلى مجلسه ، كأنه لم يغادره . وأقسم مريدوه أنه كان يزور ـــــ بجسده ـــــ أضرحة أولياء الله : السيدة زينب والسيدة نفيسة والسيدة فاطمة النبوية والشهيد الحسين وغيرهم ، دون أن يبرح مجلسه وسط المريدين . وكان لايغيب عن الله ، ولو فى حالة الجماع . من بين ماأحصاه : علوم الشريعة كلها ، وعلوم الحقيقة كلها ، وعلم لغات الإنس والملائكة والجن والطير والوحوش والهوام ، وعلم ضرب الرمل والتنجيم ورصد الإفلاك . وكان يتفرس فى لغات الحيوان ، يعرف ماتقوله وماتريده ، فيعيد حكايته على الناس . وكان يسخّر الجن ، وتطيعه . وكان يسمع تسابيح السمك فى البحر . وروى أنه ألقى على الأرض ـــــ ذات يوم ـــــ رءوس فجل ، تناثرت ، وتحولت إلى ثعابين وحيّات ، تفرقت وسط ذهول المريدين ، فلم يلحظ أحد أين ذهبت . وعرف عنه تبحّره فى علم السميا ، يسهل عليه به أن يتصرف على مابالكائنات من خير وشر ، وجلب وطرد ، أعماله فى الخير كالترياق ، وأعماله فى الشر كالسم الاقع .

وكان يأتى للحوامل والمرضى بالفاكهة ، فى غير أوانها . يتمتم بكلمات ، ويمد يده فى الهواء ، فتلتقط الثمار المرجوة ، يدفع بها إلى من يطلبها ، فيرضى بها رغبته . كان يعرف أشياء تخفى على البشر العاديين ، ويكاشف الناس بما فى صدورهم . حتى الأفعال التى يكتمونها ، ويحرصون على عدم البوح بها ، يرويها كأنه يراها . يكاشف كل واحد من مريديه بما حدث له فى يومه وليلته ، ويتصرف ـــ فى مجلسه ، وبين مريديه ـــ بإلهام يشبه الوحى ، يخاطب من لاتراه عيونهم ، يأخذ ويعطى ، يسأل ويجيب ، ثم يتجه إلى المريدين بالرأى الصواب . وعرف عنه المقدرة على الكشف عن حال الموتى ، وسماع كلامهم . وقد يستطيع ـــ بقدرة الله ـــ إحيائهم ..

لم ينقطع المدد بوفاة السلطان ، ولاانتهت كراماته ومكاشفاته . أمكن له ـــ داخل قبره ـــ أن يرعى مريديه وأتباعه وقصّاد مقامه . لاينام ـــ كل ليلة ـــ قبل أن يغادر قبره ، يسير ـــ بمفرده ـــ فى الأنفوشى ورأس التين ، والشوارع والحوارى والأزقة المحيطة ، يطّلع على

أحوال الناس ، ينصت إلى مايعانون ، فيلبى الخير مما طلبوا..

قال الإمـــــــام :

التف المكان ـــ حول مقام سيدنا المرسى ـــ بغلالات رقيقة . تصاعدت رائحة نفاذة ، كأنها الأريج العبق . إنشق الضريح عن سيدنا ، بقامته المربوعة ، المهيبة ، ووجهه المضئ ، ولحيته الكثة ، وعينيه اللتين تشعّان طهراً وقداسة ..

بدا الخوف ـــ بتأثير المفاجأة ـــ على وجوه النساء القرييات . همت أكثر من واحدة بالفرار ، لكن النظرة الوادعة ، المسيطرة ، ألزمت الجميع بالبقاء فى أماكنهن ..

تجرأت المرأة أنسية ـــ لاأدرى متى ولاكيف تسللت إلى المقام ـــ فاقتربت . تتظاهر بالرغبة فى تقبيل قدميه ..

زجرتها ، لكن سيد المتواضعين أحنى قامته ، وساعد المرأة على النهوض ، وأحاط كتفيها بأصابع مترفقة :

ـــ من احتمى بمقامى لايقدر أحد أن يبعده عنه ..

ثم وهو يضغط على الكلمات :

ـــــ قال شيخنا أبو الحسن الشاذلى : إحرص أن تصبح وتمسى مفوضاً ، مستسلماً .. لعله ينظر إليك ..

استطرد فى صوت مترقق :

ـــــ زادت هموم الناس ، فخرجت لأحمل منها ماستطعت ..

زالت الدهشة من نفوس المتحلقات بالمقام . أقبلن على السلطان ، يمسحن أدرانه ، يأخذن تراب قدميه ، يتشممنه ، يجرين به على وجوههن ..

قال حمادة بك :

ـــــ هل كان السلطان بمفرده ؟..

هل عرف الإمام ماخشى أن ترويه أنسية لسيد الفران ؟.. وهل عرف بقية الجالسين ، فى الحلم القريب ، ماحرص على كتمانه بأعوام عمره ؟.. هل لأنه يرفض إقامتها فيه ، أو لأنها صحبته إليه فى ليلة الجنون ؟.. الليلة الختامية أبعدته ـــــ دون قرار ـــــ عن الوقوف أمام النازلين من ترام الرمل . مجرد الاحتكاكات العفوية تربكه . حتى الصلاة فى أبو العباس ، حرص أن يصلّى بجوار العمود الرخامى الهائل ، ويترك بينه وبين مجاوره مسافة ..

قال الإمام :

ــــ تبعه آخرون .. وقفوا بالقرب منه ..

استطرد كالمتذكر :

ــــ بدوا غرباء .. إكتفوا بمتابعة السلطان ، وإن ميزت من بينهم الصياد على الراكشى . وقال السلطان : جميع الأنبياء خلقوا من الرحمة ، ونبينا صلى الله عليه وسلم هو عين الرحمة . وقال : رجال الليل الرجال ، وإن أولياء هذا الوقت ليؤيدون بشئ من الغنى واليقين ، فالغنى لكثرة ماعند الناس من الإفلاس ، واليقين لكثرة ماعند الناس من الشكوك . وقال : الصوفى منسوب لفعل الله تعالى به ، أى صافاه الله تعالى فصوّفنى ، فسمى صوفياً . وقال : الولى إذا أراد أغنى . والله مابينى وبين الرجل إلاّ أن أنظر إليه نظرة وقد أغنيته . وقال : والله لو حجب عنى رسول الله ، ماعددت نفسى من المسلمين . وقال : لو فاتنى الوقوف بعرفة ، ماعددت نفسى من المسلمين . وقال : والله لو حجبت عنى جنة الفردوس طرفة عين ، ماعددت نفسى من المسلمين . وقال : الدنيا كالنار ، وهى قائلة للمؤمن جرياً يامؤمن ، فقد أطفأ نور قناعتك لهبى . وقال : من أحب

الظهور ، فهو عبد الظهور ، ومن أحب الخفا ، فهو عبد الخفا . وقال : رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى المنام . فقلت : ياأمير المؤمنين ، ماعلامة حب الدنيا ؟. قال : خوف المذمة ، وحب الثناء . فإذا كان علامة حبها خوف المذمة وحب الثناء ، فعلامة الزهد فيها وبغضها ، ألاّ يخاف المذمة ، ولايحب الثناء . وقال : مادخل بطنى حرام قط . وقال : الورع من ورّعه الله . وقال : الطمع ثلاثة أحرف ، كلها مجوفة ، فهو بطر كله ، فلذلك صاحبه لايشبع أبداً . وقال : العلم هو الذى يتطبع فى القلب ، كالبياض فى الأبيض ، والسواد فى الأسود . وقال : أوقات العبد أربعة لاخامس لها : النعمة ، والبلية ، والطاعة ، والمعصية . ولله عليك فى كل وقت منها سهم من العبودية ، يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية . فمن كان وقته الطاعة ، فسبيله شهود المنة من الله عليه ، إذ هداه الله لها ، ووفقه للقيام بها . ومن كان وقته المعصية ، فسبيله الاستغفار والتوبة . ومن كان وقته النعمة ، فسبيله الرضا بالقضاء والصبر ، والرضا رضا النفس عن الشهوات ، والصبر مشتق من الأصبار ، وهو الفرض للسهام . وكذلك الصابر ينصّب نفسه غرضاً

لسهام القضاء ، فإن ثبت لها ، فهو صابر ، والصبر ثبات القلب بين يدى الرب . وقال : العامة إذا خوّفوا خافوا ، وإذا رجوا رجوا ، والخاصة متى خوفوا رجوا ، ومتى رجوا خافوا . وقال : الفرق بين معصية المؤمن ومعصية الفاجر من ثلاثة أوجه : المؤمن لايعتزم عليها قبل فعلها ، ولايفرح بها وقت الفعل ، ولايصر عليها بعد الفعل ، والفاجر ليس كذلك . وقال : خلق الله الآدمى وقسمه ثلاثة أقسام : لسانه جزء ، وجوارحه جزء ، وقلبه جزء . وقال : الناس على ثلاثة أقسام : عبد هو بشهود مامنه إلى الله ، وعبد هو بشهود ما من الله إليه ، وعبد هو مامن الله إلى الله . وقال : الناس على ثلاثة أقسام ، قوم غلبت حسناتهم سيئاتهم ، فهم فى الجنة قطعاً ، وقوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فلا يدخلون النار قطعاً ، وقوم غلبت سيئاتهم حسناتهم ، فيخلدون فى النار قطعاً . وقال : صلاح العبد فى ثلاثة أشياء : معرفة الله ، ومعرفة النفس ، ومعرفة الدنيا ، فمن عرف الله خاف الدنيا ، ومن عرف النفس تواضع لعباد الله ، ومن عرف الدنيا زهد فيها . وقال : المؤمن لايرضى لنفسه بالخير إذا كان فيه ، لأن فوق الخير خيرات . أتراه يرضى بالشر ؟.

وقال : " يسّروا ولاتعسّروا " ، أى دلّوهم على الله ، ولاتدلوهم على غيره ، فإن من دلّك على الدنيا ، فقد غرّك ، ومن دلّك على الأعمال فقد أتعبك ، ومن دلّك على الله فقد نصحك . وقال : أنا لاأتشفى من أحد ، ولاأحمل أتباعى على التشفى من أحد . وقال : إذا علمت أنه لم يخرجك إلى مملكته إلاّ وقد كفاك ومنحك وأعطاك ، ولم يبق لك حاجة عند غيره ، فلا تطلب ممن هو بعيد عنك ، وتترك الطلب ممن هو أقرب إليك من حبل الوريد . وقال : السلامة فى الدين ، بترك الطمع فى المخلوقين . وقال : الدخول فى الجنة بالإيمان ، والخلود فيها بالنية . والدرجات فيها بالأعمال ، والدخول فى النار بالشرك ، والخلود فيها بالنية ، والدركات فيها بالأعمال .. ثم مسح السلطان على جبهته براحته ودعا : اللهم إنّا نسألك الخوف منك ، والرجاء فيك ، والمحبة لك ، والشوق إليك ، والأنس بك ، والرضا عنك ، والطاعة لأمرك على بساط مشاهدتك ، ناظرين منك إليك ، وناطقين بك عندك . لاإله إلاّ أنت سبحانك . ربنا ظلمنا أنفسنا ، وقد تبنا إليك قولاً وعقداً ، فتب علينا جوداً وعطفاً ،

واستعملنا بعمل ترضاه ، وأصلح لنا فى ذرياتنا . إنّا تبنا إليك ، وإنّا من المسلمين ..

أشار بيده إلى جدار الجامع ، من ناحية ميدان الأئمة . إنفرج الحائط ، فمضى من خلاله إلى الميدان ..

قال الحاج قنديل :

فاجأنى فى جلستى المعتادة ، أمام دكان الحاج محمد صبرة . كنت قد اعتذرت ــــ قبلها ــــ عن عدم التوسط لدى نبيل افندى قرة ، ضابط نقطة الأنفوشى ، فيفرج عن على الراكشى . كان قد أسرف فى التطاول ، فأعفيته من عقابى ، واستدعيت له البوليس . اقتعد سيدنا الكرسى المجاور فى هدوء . شمّر عن ساعديه ، فظهر عليهما النور:

ــــ والعافين عن الناس ..

قلت :

ــــ من تقصد ياسيدنا ؟..

حدجنى المرسى بنظرة معاتبة :

ــــ على الراكشى .. لماذا لاتعفو عنه ؟..

ــــ لقد رمانى بالباطل ..

ـــــ ربما أنت المخطئ ..

ثم فى تساؤل غاضب :

ـــــ لماذا تحاربه فى رزقه ؟!..

ومضى ..

قاطعه الإمام :

ـــــ هل رويت كل ماجرى ؟

قال الحاج قنديل :

ـــــ علا صوت السلطان ، فسمعه العابرون :

ـــــ لم يعد للبلطجة موضع ـــــ منذ الآن ـــــ فى بحرى ..

وفى صوت تخالطه نبرة اعتذار :

ـــــ كل إساءة أدب تثمر أدباً ، فليست إساءة أدب ..

تطلع الحاج قنديل إلى الأمام ـــــ من وراء النظارة الطبية ـــــ بعينين خائفتين :

ـــــ هل يعاقبنى السلطان ؟..

قال الإمام :

ـــــ عامل الراكشى بالحسنى ، فينتهى كل شئ !..

قال الحاج قنديل :

ـــ أرضيته ياMولانا .. وأرضيت كل الصيادين والسماكين ..

ثم بنبرة مستعطفة :

ـــ يبقى رضاء سيدنا السلطان !..

قال حمادة بك :

بدا السلطان كأنه ينتظرنى على ناصية شارع سيدى داوود ، والتقائه بالمسافرخانة . كان الوقت ليلا ، والبرد القارس أغلق الأبواب والنوافذ . وخلت الطريق من المارة . خمنت أنه المرسى من قبل أن يحدثنى . نزلت الرهبة فى نفسى ، فلم أقو على الحركة ولاالكلام ..

قال المرسى وهويشير إلى البيت المهجور أوسط شارع سيدى داوود :

ـــ المرأة أنسية أولى بأن تسكن هذا البيت ..

سأل الحاج قنديل :

ـــ أى بيت ؟..

قال الإمام :

ـــــ لماذا لاتتركها فى البيت ؟..

لم يطرد أنسية . سرق حاجياتها لتبعد . خشى ـــــ إذا واجهها بالطرد ـــــ أن تفضح سره ..

هتف حمادة بك :

ـــــ إنها أنسية يامولانا !..

قال الإمام :

ـــــ لقد رأيت الحلم بنفسى . وعرفت عن البيت مالم تذكره من حلمك ..

ثم بتسليم :

ـــــ نفذ مايقضى به مولانا السلطان !..

قال عباس الخوالقة :

تابعته عن بعد . كنت واحداً من العشرات الذين لازمت خطواتهم خطواته . طاف ـــــ فى البداية ـــــ بأرجاء الجامع . تأمل التجاويف والمحارات والمقرنصات الصغيرة والصنج المعتقة والزخارف النباتية والعقد المخفف والقباب الصغيرة فى الأركان الأربعة . إتجه إلى الباب الرئيسى ، وهبط الدرجات . دخل جامع البوصيرى من بابه الخلفى .

تأمل البردة المحيطة بأعلى الجدران ، والإزارات الزرقاء فى حوائط الصحن . أبطأت خطواته لما اقترب من الضريح ، وقال كالمتوسل :

ـــ والله مارأيت العز إلاّ فى رفع الهمة عن الخلق ..

إخترق الحائط المجاور للضريح . الأنوار تملأ بدنه ، وتتبعث من وجوده . هبط فى ميدان المساجد . مضى ناحية الأئمة الإثنى عشر . قرأ الفاتحة على أرواح أولياء الله . فرّق بيده من الهواء المحيط ، يضعه فى جيب عباءته ..

طاف بنظرته فى المكان . أحاطت بالناس والبيوت والأشياء ، تكاد تنفذ داخل الجدران ، وماوراء النوافذ والشرفات . تصل إلى الشوارع والأزقة البعيدة . فى نهاية السيالة ، أول الحوارى الضيقة ، الملتوية ، المفضية إلى حلقة السمك ، ارتفع السلطان فى الهواء ، حتى اختفى ..

***

غادر الرجال الجامع ـــ فى هدأة الليل ـــ بعد أن استكانوا إلى رأى الإمام ، بأن ماجرى كان حلماً ، توزع فى الليلة ذاتها ـــ بكرامات ولاية المرسى ـــ على الفضلاء من أبناء الحى . يجمعهم هدى الله فى درس المغرب ،

وجلسات المحبة أمام دكان الحاج محمد صبرة . يزيدهم ـــــ بإرشاده ـــــ إيماناً وتقوى ..

لكن السؤال ـــــ بما فاجأتهم به الأيام التالية ـــــ عاود إلحاحه : هل كان ماجرى حلماً ، أو أنه شئ آخر ، ينتسب إلى معجزات سيدنا السلطان ؟!..

" محمد جبريـــل "